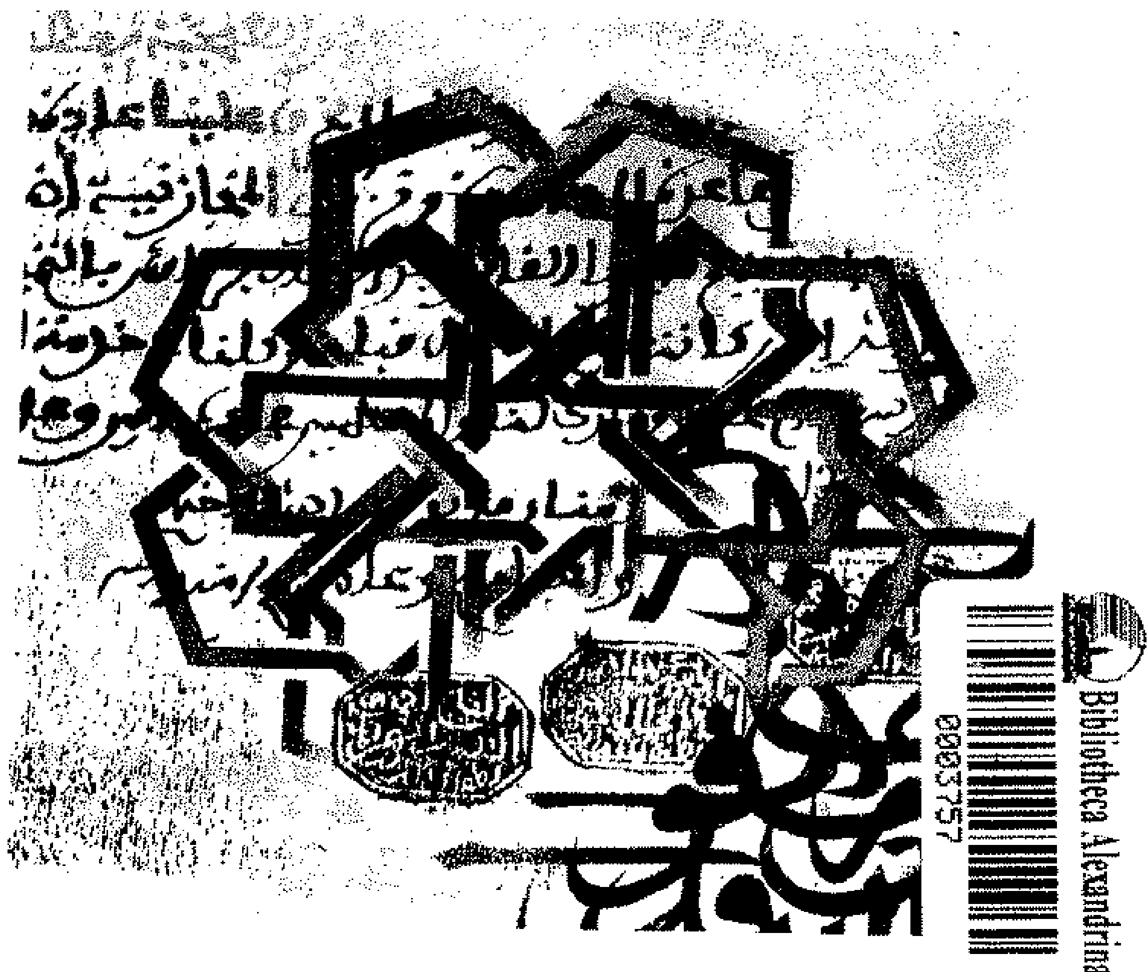
محمد زروق

دراسات في تاريخ المغرب



أفريقيا الشرق

دراســـات
في تاريخ المغرب

الطبعة الأولى 1991
رقم الإيداع القانوني : 1991/444

محمد رزوق

دراسات في تاريخ المغرب

أفريقيا الشرق

تقديـــم

اخترنا هذه المجموعة من الأبحاث لنشرها في جزء أول على أن نقوم بنشر الباقي في جزء ثان. وقد توخينا في اختيارها التنوع.

وهذه الأبحاث قسمان :
- قسم أعد خصيصا لندوات معينة (وطنية ودولية)
- وقسم آخر أعد خصيصا لنشره في مجلات مغربية وعربية.

وإن الأمل لكبير أن تفتح هذه المجموعة بعض أبواب البحث وأن تثير فضول الدارسين لمناقشتها وإبداء ملاحظاتهم حولها.

د. محمد رزوق

الدار البيضاء

في 1990/6/20

قضية الرق في تاريخ المغرب (*)

مازالت قضية الـرق بالمغرب لم تحظ بعد بالعناية الكافية من طرف الباحثين المغاربة والعرب بصفة عامة، مما ترك المجال مفتوحا للدراسات الغربية التي تنظر الى القضية بوجهة نظر أوروبية، أي في النهاية النظر الى تاريخ الرق في المغرب بنفس نظرتها الى تاريخ الرق في أوروبا، في حين أن الاختلاف واضح، ويظهر ـ على الأقل ـ على مستويين :

على المستوى السياسي : إن وجـود المغرب في افريقيا الغربية خلال القرن السادس عشر لم يكن أبدا بهدف جلب الرقيق، بل كان هدفه الأساسي حماية تلك المناطق من الغزو الايبيري، وتوحيد كلمة المسلمين، في حين أن العكس تماما كان بالنسبة للأوروبيين، اذ إنهم عندما خرجوا في حركاتهم الاستعمارية في إفريقيا كان الرق من بين أهم أهدافهم الأساسية، وذلك لتصديره للعالم الجديد.

على المستوى الاجتماعي : تختلف العلاقة بين العبد وسيده في المغرب عن العلاقة بين العبد وسيده في أوروبا. فمعاملة المغاربة للعبيد كانت ـ بصفة عامة ـ معاملة إنسانية. (1) فقد كان العبد جزءا من العائلة، حتى ان بعض العبيد يذهب الى حد رفض الحصول على الحرية. (2) كما كان بإمكانه أن يصل الى المستوى العلمي لسيده، وربما يفوقه، فقد دعا محمد ابن عبد الكريم المغيلي بعض مماليكه لمناظرة فقهاء فاس حول مسألة اليهود، إذ يذكر ابن عسكر في هذا الصدد : «ولما اختلف الفقهاء عليه تقدم على فاس لأجل المناظرة بحضرة السلطان الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي ثم المريني، فلما نزل بظاهرة فاس خرج الفقهاء الى لقائه والسلام عليه، وكان له ستة مماليك من السودان كلهم يحفظون مدونة البرادعي عن ظواهر قلوبهم، وكلهم فقهاء فلما استقر الجلوس بفقهاء فاس عنده، قال لاحد المماليك، واسمه الفقيه ميمون، تكلم مع الفقهاء في نازلة اليهود. . .». (3)

أما بالنسبة للأوروبيين فالأمر يختلف تماما، فقد استخدموا الأفارقة للعمل في مزارع قصب السكر بأمريكا وعاملوهم بكل قسوة مما أدى الى افناء الكثير منهم، كما كان العبد مهمشا تماما بالنسبة للعائلة الأوروبية، فلم يكن بإمكانه أبدا أن يتدخل في شؤونها أو يشاركها بعض همومها المعاشية، ناهيك عن السماح له بمستوى معين من التعليم.

وسنحاول في عرضنا هذا أن نلم بالنقط الآتية :

أولا : دور الأوروبيين في الرق الافريقي.

ثانيا : الرق في مملكة سنغاي في عهد الاسقيين.

ثالثا : الرق في المغرب خلال العصور الحديثة.

- الرق في العهد الوطاسي.
- الرقيق المغاربة بالبرتغال.
- الرق في العهد السعدي : رقيق السودان الغربي.
- الرق في العهد العلوي : تجربة جيش العبيد.

أولا : دور الأوروبيين في الرق الافريقي :

تعتبر البرتغال فاتحة صفحة الرق في العصر الحديث رغم أنها كانت تحاول أن تتستر وراء عملياتها البشعة في إفريقيا بعوامل دينية. [4] وهكذا بدأت تبرز أهمية الساحل الغربي لافريقيا كمورد للرقيق، وظلت البرتغال تحتكر هذه التجارب البشرية لمدة طويلة قبل أن تنافسها فيها هولندا وفرنسا وبريطانيا. [5] غير أن لشبونة ظلت في هذه الفترة تحتوي على سوق كبير للرقيق يمد العالم الجديد كله بحاجته منهم. [6]

ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان الرقيق قد أخذ يشحن إلى أمريكا، [7] والى كوبا في عام 1521، وقد بلغ عدد العبيد الذين بيعوا لهذا الغرض في سوق لشبونة (سنة 1539) : 10.000 عبد [8] ومن تم لم تستطع الجهود البرتغالية العادية ان تسد الطلبات المستمرة المتزايدة للرقيق وبدأ استغلال الأسلحة النارية للقنص. [9]

لقد كان الرقيق أغلى سلعة اكتشفتها القوى الاستعمارية في افريقيا وأصبحت هذه السلعة الأساس الذي بنت عليه الدول الاستعمارية اقتصادها ورخاءها. [10] وكان الأوروبي لا يخاطر بالتوغل في الداخل، فاكتفى بالبقاء في المراكز الساحلية حتى يسلم له العبيد عن طريق الوسطاء ثم يتم نقلهم الى العالم الجديد، وقد تألفت شركات برتغالية بقصد الاتجار في الرقيق، وحصلت هذه الشركات على مراسيم من البلاط الملكي البرتغالي باحتكار التجارة في مناطق محدودة من الساحل. [11]

وقد دخل الهولنديون والفرنسيون والانجليز والدانمارك هذا الميدان ليسدوا الطلبات المتزايدة للرقيق اللازم للعمل في مزارع القطن والدخان وقصب السكر في أمريكا مما أدى الى وقوع منافسة خطيرة بينهم، غير أن أرباحهم من هذه التجارة وصلت الى حد خيالي. [12]

وكانت سفن الرقيق البريطانية تقوم برحلة مثلثة، فتنقل المصنوعات الانجليزية لغرب افريقيا، حيث تستبدل بالرقيق. وبلغ عدد ما وصلل بين سنتي (1680 - 1706) الى الممتلكات البريطانية من الرقيق ما يقرب من مليونين ونصف مليون، وإذا عرفنا أن النظام الذي اتبع ترتب عليه أن ما يصل حيا من هذه السلعة لا يصل الى النصف، وإذا علمنا أن ما وصل المستعمرات الأوروبية كلها في قرن واحد قدر بـ 40 مليون افريقي ادركنا أن القارة الافريقية استنزفت ما يقرب من 80 مليون من أبنائها في هذا الميدان. [13] والبعض يقدر هذا العدد بما لا يقل عن مائة مليون. [14]

وخلاصة القول اذا كان الهولنديون يقولون أن مدينتهم العظيمة (امستردام) بنيت على عظام الـزنـوج، فليس بعيدا عن الصواب أن نقـول بأن (لشبـونـة) و(ليفربول) قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودمائه. [15]

هذا ما يتعلق إذن بدور الأوروبيين في الرق الافريقي، فلننظر الى المسألة من الجـانب الـوطني، أي في النهـاية النـظر إليها من الداخل، ولنأخذ كمثال مملكة سنغاي، في عهد الاسقيين، [16] وهي المملكة التي فتحها أحمد المنصور الذهبي كما هو معلوم.

ثانيا : الرق في مملكة سنغاي «في عهد الاسقيين» :

كان العبيد يشكلون الفئة الثالثة في المجتمع، وكانت تقوم بجميع الأعمال في الحقول والمنازل، لحساب غيرهم، ومن هنا يصح لنا أن نعتبرها طبقة الانتاج الأولي في مملكة سنغاي [17] . وقد تكاثر عدد أفراد هذه الفئة مع الزمن، حتى أنه يمكن أن نقدر نسبتهم في المجتمع بما يزيد على النصف [18] . وهذه الكثرة جاءت بالدرجة الأولى من الفتح والتوسع، الذي رأته المملكة منذ أيام (سني علي)، وتوسعت فيه أكثر منذ أيام الاسقي الحاج محمد الأول، وكان الفتح لا يتم عن طريق المصالحة، وانما يتم عن طريق القهر والغلبة، وينتهي باسترقاق مناطق بأكملها. فقد بدأ الاسقيا الحاج محمد الأول حكمه بأن ورث عقب المعركة التي انتصر فيها على (سني بارو) ابن علي أربع وعشرين قبيلة بكامل افرادها ذكورا وإناثا [19] وقد بقي هؤلاء طيلة أيام الاساقيا يعملون في الحقول الزراعية لحساب دار السلطنة، وقسم منهم اختصوا برعاية خيول البيت الحاكم وكان يؤخذ قسم من أولادهم كل عام، ويباعون في الاسواق وتشترى بأثمانهم خيول أخرى، وقسم منهم وهب للشريف الحسني وأولاده، فبقوا في خدمتهم طيلة عهد الاساقي. وكان هذا الشريف ورد على (كاو) في أيام الأسقي الحاج محمد الأول، ويقال ان سبب اعطائه هذه الهبة، كان مراعاة لنسبه وقرابته من النبي، وقد بلغ عدد أفراد هذه الهبة في البداية ألفا وسبعمائة، ثم تكاثروا فيما بعد [20] وحين غزا الاسقي الحاج محمد الأول قبل ذهابه للحج مباشرة منطقة (زاغ)، اختار من سكانها خلقا كثيرا للاسترقاق، وكانت هذه المنطقة قد اشتهرت بكثرة البنائين بها، ولذا فقد كان من جملة من استرقهم (خمسمائة بناء، فذهب بالاربعمائة الى كاو لتخذهم لنفسه. . مع آلات بنائهم)، وأعطى احد اخوته وهو عمر كمزاغ مائة بناء، بعد أن تولى هذا ولاية الاقليم، وعزم على أن يبقى لنفسه وجنده وموظفيه وأتباعه مدينة تكون مقر عمله هناك [21] .

ولما ذهب الاسقى الحاج محمد الأول لقضاء مناسك الحج، بلغ عدد أفراد ركبه ما يزيد على الألف وخمسمائة شخص، كان بينهم من غير العبيد والخدم، أقل من مائة نفر [22] .

وقد كانت البضائع النفيسة يتعامل فيها بالذهب وكانت البضائع المتوافرة بكثرة يتعامل فيها بالودع، وكان العبيد من الصنف الثاني يباعون ويشترون بالودع، وفي

كثير من الأحيان كانت تجري المبايعات عن طريق المقايضة، وفي هذه الحالة يذكر الحسن الوزان (المعروف بليون الافريقي) أن ثمن الفرس، كان يساوي أحيانا خمسة عشر عبدا مقابل رأس واحد من الخيل، كما يزيد الحسن الوزان أيضا ان تغازى كان يعمل في أحواضها العبيد [23]، ويذكر ابن بطوطة حين مروره بكاو (في القرن الرابع عشر) أن الفرد كان حين يسير مسافرا او متنقلا كان يتبعه عبيده يحملون له امتعته معه [24]. ومن هذا كله يتضح أن العبيد كانوا يشكلون بعددهم جزءا كبيرا من الفئة الثالثة، وكانت تقع على كواهلهم معظم الاعمال، ولكنهم كانوا في أدنى درجات السلم الاجتماعي، غير أن هناك ملاحظة أساسية وهي انه وان كانت هناك طبقية واضحة في مجتمع سنغاي فإنها مع ذلك لم تكن ذات حدود مغلقة بحيث لا يستطيع الفرد فيها ان يرقى من طبقة الى طبقة أخرى، (فعلي فلن) الذي أصبح مستشارا لا سقيا الحاج محمد الأول وأمين سره كان في البداية عبدا له [25]. وقد حدث أن أحد ملوك سنغاي استقبل موكب الحجيج على عادتهم في دلك وقبل يد أحد العبيد الذي كان بينهم، فأراد أحد حراس الملك أن يؤدب العبد الذي مد يده للاسقيا دون ان يعرف انه عبده، فكان هذا سببا في ان الملك اعتق ذلك العبد، واعتق خمسين من قبيلة أمه، وخمسين نفسا من قبيلة أبيه أيضا وأسقط عنهم جميع وظائف السلطنة [26]. وجاءت عجوز الى الاسقيا داود تطلب منه أن يبيع أولادها ـ كانوا عبيدا له ـ اذا باعهم، الى مكان واحد، وأن يهبهم اذا أراد ذلك، الى مكان واحد، حتى لا يتفرقوا، فأجابها الملك: «لقد اعتقتهم شكرا لله» وكتب لهم وثيقة بعتقه لهم، شهد بها الحاضرون، وأصبحوا من ذلك الحين أحرارا [27] وكانت درجة العبد أو الخادم الاجتماعية ترتفع بارتفاع درجة مالكه أو مستخدمه، ومن ذلك أن زناجية الشريف الحسني علي مولاي أحمد بن عبد الرحمن اقر الاسقيا الحاج بن داود والي اقليم تندروم ان يعفيهم من جميع وظائف السلطنة احتراما لمقام سيدهم الشريف. [28]

كما أن عبيد الأمراء والولاة وخدامهم، كانوا يرتكبون من أنواع الاعتداء والتسلط ما لا يجرؤ غيرهم من العبيد والخدم على اتيانه، فقد حدث في أيام الاسقيا الحاج محمد الأول ان اعتق جماعة من الدين كان قد استرقهم (سني علي)، وقد جاء في عهد لهم بالعتق: «. . . ويمسك كل جائر وفاجر جوره من جندنا وقدمنا الجائرين وعبيدنا ورسلنا، فلا يقر بضيم ولا بتحقير وتصغير. . .» [29] وعلى عكس ذلك، فإن عبيد النبلاء وخدامهم لم يكن يحق لهم ان يتجاوزوا حدودهم تجاه عبيد

ومملوكي بقية النبلاء، كما أن عبيد وخدم بقية الافراد العاديين، لا يجوز لهم ان يأتوا من الاعمال ما يجوز لغيرهم من العبيد او الخدم الذين ينتمون الى الطبقات العليا، فقد حدث في عهد السلطان محمد بأن أن خلافا نشب بين نبيلين من الأساقي سببه أن أحدهما سرق عبده ملحفة جارية الآخر، وقد رفض صاحب الغلام تسليمه ليعذبه صاحب الجارية حتى يعترف بذنبه أمامه، فقام صاحب الجارية بهجوم مباغت على خصمه، وقد تطور هذا الخلاف الى نزاع بين الاساقي فني فيه خلق كثير، ووقعت معارك وخلافات أدت الى اضعافهم جميعا [30]. هذه هي وضعية العبيد الافارقة بافريقيا نفسها، فلننظر الى وضعيتهم في منطقة اخرى، ولنختر أوروبا نفسها التي استرقتهم، ولننطلق من وضعية العبيد المغاربة بالبرتغال كنموذج.

ثالثا : الرق في المغرب في العصور الحديثة :

الرق في العهد الوطاسي :

عرف المغرب في العهد الوطاسي ازمات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة هزت المجتمع المغربي بعنف [31]، وادت به بالتالي الى الرضوخ عند اقدام المحتل، اذ عرض المغربي نفسه كبضاعة له مقابل لقمة خبز تنجيه من الموت المحقق بسبب الجوع. وتورد المصادر البرتغالية والاسبانية المعاصرة مناظر مروعة لذلك، مشيرة بتفصيل الى عمليات البيع والأثمنة. ونورد كمثال ما يذكره المؤرخ البرتغالي المعاصر B. Rodrigues عن هذه العمليات البشعة اذ يقول في هذا الصدد : «مع انتشار المجاعة بدأ المغاربة يأتون بكثرة الينا للحصول على ما يقتاتون به، وكان يبيع بعضهم بعضا، فالأب يبيع أبناءه، والأخ اخوانه. . . وهذا شيء لم ير ويسمع به قط. . . [32].

وقد لاحظ أيضا أن النساء كن يبعن بسهولة من طرف آبائهن وأخواتهن، غير ان البرتغاليين كانوا يفضلون شراء المغربيات الجميلات صغيرات السن [33]. أما الرجال فكان يختار منهم الأقوياء للعمل في الزراعة ومختلف الاشغال الشاقة [34].

ان عدد المغاربة الذي كان يباع كبير جدا، حتى ان المصادر البرتغالية تعطي ارقاما مرتفعة جدا، ولم يعد (العبد المغربي) في نظرهم يساوي شيئا. [35] ويحكي

في هذا الصدد نفس المؤرخ ان أخوين عرضا عليه نفسيهما، فاشترى أحدهما ودفع الأجر للآخر، وقد قيل له انذاك بأن الخبز الذي سيأكله هذا المغربي أغلى منه بكثير. [36]

وقد استنكر ابن يجيش التازي هذه الوضعية استنكارا شديدا، وصاح في الناس يدعوهم للجهاد «عباد الله، ما هذه الغفلة العظيمة، التي أضحت على القلوب مقيمة ؟ وركنت اليها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة، أما علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم، مستغلون لكل حيلة في نيل الوصول اليكم. . . [37]. ثم يسترسل في تسجيل هذه الوضعية قائلا : «قد أبدلوا بعد العز والفرج ذلا وحزنا، واستولى عليهم الكرب والترح حسا ومعنى، قد اوثقوا بالسلاسل والحديد، وهم في كل يوم عذاب شديد، وصاروا من جملة المماليك والعبيد، كانوا بالأمس أغنياء آمنين، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين. انهبت أموالهم، وتغيرت أحوالهم، فرقت عنهم نساؤهم، وأخذت منهم بناتهم، وصار الكفرة يتنافسون في بيعهم بالأثمان، وجعلوا يفرقونهم في سائر البلدان ويريدون ان يفتنوهم عن دينهم، ويفسدون عليهم قوة يقينهم. ماهذه الغفلة عن إخوانكم يا معشر المسلمين ! » [38].

يحتوي الارشيف البرتغالي لمحاكم التفتيش الدينية على عدد كبير من المحاضر المتعلقة بمحاكمة عدد مهم من المغاربة الذين تم اسرهم أو اختطافهم او بيعهم خلال المجاعات، وخصوصا خلال مجاعة 1520 ومعلوم ان الجوع ارغم المغربي خلال تلك المجاعة على بيع ابنائه قبل بيع نفسه، ولقد كان العرض كبيرا الى حد انه لم يعد أي شيء أرخص من الانسان [39].

وقد كانت التهمة الاساسية الموجهة لهؤلاء العبيد المغاربة هي الرجوع الى الدين الاسلامي بعد ان تم تعميدهم، ويتجلى من خلال هذه المحاكمات نوعية الحياة التي كانوا يعيشونها وظروف القهر والمسخ التي مورست عليهم قصد فصلهم عن جذورهم الأولى [40]. وكانت أهم جريمة يعاقب عليها هؤلاء هي محاولتهم الفرار من البرتغال للالتحاق بالمغرب، فمن بين 229 محضرا من محاضر محاكمة موريسكيي [41] منطقة لشبونة نجد 150 منها متعلقة بهذه الجريمة (65 ٪) في حين أن 79 منها (34,5 ٪) تتعلق بمحاكمات كان فيها التمسك بالاسلام والقيام بطقوس اسلامية، واذا كان المحققون لايرون في محاولات العبيد الفرار الا دليلا

قاطعا على ارتباط الموركسيين بدينهم الأصلي وبحرصهم على مغادرة البلاد المسيحية للتمكن من العودة الى الاسلام والقيام بفرائضه جهرا ودون ادنى مضايقة، فإن قراءة المحاضر تضيف حقيقة مهمة جدا وهي رفض الموريسكي لفكرة الاندماج داخل المجتمع المسيحي والاقامة نهائيا بالبرتغال [42]. وقد اعترفت مغربية انها كانت «. . . تتذكر باعتزاز أرضها وتتمنى ان تلتحق بها، وإنه اذا ما تم لها ذلك، فإنه لم يكن ممكنا بالنسبة اليها ان تكون مسيحية ولكن مسلمة فقط. . . [43]. واستغل البرتغاليون باستمرار كل خلاف او سوء تفاهم مع الموركسي لتذكيره بأصله ولاهانته، ولم يكن البرتغالي في حاجة الى مبرر للقيام بذلك، فلقد ذكر (جوادراغو J. Drago) أمام المحكمة ان خدام سيده كانوا يستغلون كل خلاف معه : «. . . لمناداته بالمسلم القديم، ابن المسلم وابن الكلب . . . [44].

وقد استطاع بعض هؤلاء العبيد الحصول على حريتهم بعد مدة طويلة من العبودية وبعد أداء فدية مهمة أو بعد ان تصدق السيد بذلك قبيل وفاته. وكانت هذه الحرية التي يحصل عليها بصعوبة كبيرة تؤدي في غالبية الاحيان الى تشتيت أفراد الاسرة، ذلك ان تحرير الأم لا يؤدي الى نفس الشيء بالنسبة لمن انجبته خلال اسرها، [45]، وبهذا فقد عدد من الموركسيين أبناءهم نهائيا، فالتونسية (مريا برنالدو Maria Bernaldo) فقدت بنتا عمرها أربع سنوات بيعت بإسبانيا واخرى أصغر منها بيعت بمكان لم يعين لها [46]. وكان بعض البرتغاليين الذين كانوا يجرون وراء الحصول على هذه السلعة الثمينة لا يترددون في فرض ممارسات جنسية على اسيراتهم، لذا نعثر بمحاضر محاكم التفتيش الدينية الاشارة الى ظاهرة غريبة وهي وجود موريسكيين عبيدا لابائهم [47]. ووعيا من الموريسكي بما يسببه ذلك الفراق من آلام توقف البعض عن الانجاب لكي لا يعودوا عبيدا [48]، ودفع اليأس بآخرين الى قتل أبنائهم مفضلين ذلك على فقدانهم بالبيع كبضاعة أو تركهم وراءهم في حالة فرارهم، فلقد بلغت بمغربية أن : «. . . ضربت بنتها في بطنها بحجرة لكي تميتها لانها كانت تود الفرار الى بلاد المسلمين ولم تكن تود أن تبقي ابنتها أسيرة. . . » [49]. لقد كانت قساوة الحياة التي يعيشها هؤلاء العبيد واضحة جدا في محاضر محاكم التفتيش البرتغالية، اذ تكثر فيها الاشارات الى الموركسيين الذين جلدهم اسيادهم أو حبسوهم أو حرموهم من الطعام لمدة معينة او الذين كانوا يجوبون شوارع العاصمة وهم مكبلون بالسلاسل الحديدية [50].

هذه وضعية العبيد المغاربة بالبرتغال، وهي وضعية مزرية كما رأينا، فكيف كان يعيش العبيد بالمغرب خلال نفس الفترة.

الرق في العهد السعدي : رقيق السودان الغربي

فتح السلطان أحمد المنصور الذهبي السودان سنة 1591، وقيل الكثير عن هذا الفتح. فقد تحدث بعضهم عن العنف الذي صاحب هذا الفتح، وتحدث آخرون عن أهداف اقتصادية معينة كانت تحرك هذا العمل. لكن ما يهمنا نحن بصدد هذا الموضوع هو موقع الرقيق من كل ذلك. نعم لقد صحب المغاربة معهم اثر هذا الفتح امواجا كبيرة من الرقيق اذ يذكر الزياني في هذا الصدد : «... فقد ورد عليه محمود باشا عام سبعة وألفا، واتى معه بعشرة آلاف جارية كلهم في سن البلوغ...» [51] مما يدفع بنا الى التساؤل عن أصل ذلك ؟

هناك أصول متعددة لهؤلاء الرقيق، فهناك من كانوا ارقاء بالفعل بالسودان ممن اسروا أثناء المطاحنات التي كانت تجري بين القبائل السودانية، وهناك من اسر اثناء المعارك بين المغاربة والسودانيين، وهناك ارقاء اصلا بحكم المولد وهم معرفون. غير ان عملية نقل العبيد الى المغرب لم تكن تجري بدون انحرافات، فقد كان بعض تجار الرقيق السماسرة يعممون هذه التجارة على طائفة كبيرة من السودانيين بدون مراعاة لاصولهم الاجتماعية. وقد تعرض احمد بابا السوداني الى جملة من هذه القضايا في رده على تساؤلات في الموضوع لرجال توات، اذ يذكر في هذا الصدد : «... وقولكم : ما تقولون في العبيد المجلوبين من البلاد التي تقرر اسلام اهلها كبلاد برنو وعفنو وكنو وجاغو ونحوها مما استفاض اسلامهم، هل يسوغ تملكهم أم لا ؟

فاعلم ـ وفقنا الله تعالى وإياكم ـ ان هذه البلاد كما قلتم أهلها مسلمون، الا عفنو، فلا اعرف أين هي، ولا سمعت بها، ولكن يقرب كل البلاد منها بلاد فيها كفرة، يغير أهل تلك البلاد المسلمون عليهم، وبعضهم تحت ذمتهم يؤدون خراجا على ما بلغنا، كما هو مشهور وربما تفاتن سلاطين هذه البلاد بعضهم على بعض فيتحرك سلطان هذه البلاد على غيره ويغير على بلاده، ويسبي ما تيسر له منهم، وهم مسلمون، ويباع المسبي وهو حر مسلم ـ فإنا لله وانا اليه راجعون ـ، وهذا

مستفيض عندهم في بلادهم بغير أهل كشن على كنو وكذا غيرهم ، والسنتهم واحدة ولغتهم متحدة وحالاتهم متقاربة ، لا يعرف بعضهم من بعض الا هذا مسلم أصلي وهذا كافر أصلي . ومن هذا يلتبس الحال على من جلبوا اليهم فلا يعرفون حقيقة المجلوب .

وقولكم : المعلوم شرعا ان سبب الرق إنما هو الكفر فمن اشترى كافرا ساغ تملكه والا فلا ، وطروء الاسلام بعد حصول الشرط المذكور غير قادح في استمرار الملك .

جوابه : ان الامر كذلك ، ولكن مع كونه غير معاهد او ذي ذمة ولابد .

وقولكم : فمن هذه البلاد المذكورة من مسلم السودان ان حصل الاستيلاء عليهم بالرق حال الكفر واسلامهم طارىء عنه فلا ضير ام لا ؟

جوابه : انهم اسلموا بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنو وكشن وبرنو وسقي ما سمعنا قط ان أحدا استولى عليهم قبل اسلامهم ، ومنهم من هم قدماء في الاسلام كأهل مالي اسلموا في القرن الخامس أو قربه كأهل برنو وسقي .

وقولكم : وكيف ذلك في أهل برنو فإنها دار سلطنتكم والاتيان منهم إلينا كثير ، فهل هم ارقاء أم لا ؟

جوابه : انهم مسلمون احرار ، اسلموا قديما ، بيد انه يقرب اطراقهم كفار يغيرون عليهم ، ويكسبونهم ويبيعونهم كما قدمنا . . .

وقولكم : وكذا من لم تعرف بلاده وجهل حاله ، فلم يدر هل تقدم رقه على اسلامه ام لا ؟ فهل يسوغ بيعه وابتياعه من غير بحث أم يجب ام يندب ؟

جوابه : ان تعلم أن سبب الرق الكفر ، وكفار السودان كغيرهم في ذلك من سائر الكفار أو اليهود أو الفرس أو البربر وغيرهم ممن تبث بقاؤه على كفره دون إسلام كما سيأتي من كلام المدونة آخر هذا الجزء ، فهو دليل يبين أن لا فرق بين جميع الكفار في ذلك ، فمن سبي في حال كفره صح تملكه كائنا من كان ، دون من أسلم طوعا ،

ابتداء من جميع الاصناف كأهل «برنو وكنو وضنغاي وكشن وكبر ومالي» وبعض زكزك، فهم مسلمون احرار لا يجوز تملكهم بوجه. . . (52)

كما ان الناصري استنكر هذه الانحرافات في نص له في الموضوع قائلا : «قد تبين لك بما قصصناه عليك من اخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الاسلام من لدن قديم. وانهم من احسن الامم اسلاما وأقومهم دينا وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبة، وهذا الامر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق اهل السودان مطلقا وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية، يسمسرون بها كان تسمسر الدواب بل أفحش، قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار من العامة يفهمون ان موجب الاسترقاق شرعا هو أسود اللون مجلوبا من تلك الناحية، وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين اذ أن أهل السودان قوم مسلمون فلهم مالنا وعليهم ما علينا، ولو فرضنا أن من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الاسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير انما هو الاسلام، والحكم للغالب، ولو فرضنا ان لا غالب وانما الكفر والاسلام متساويان هنالك فمن لنا بأن المجلوب منهم من صنف الكفار لا المسلمين. والأصل في نوع الانسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق ومدعى خلاف الحرية مدع لخلاف الأصل، ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم في الباعة مطلقا من الكذب عند بيع سلعهم وإطرائها بما ليس فيها، وفي باعة الرقيق خصوصا مما أكثر من ذلك كيف ونحن نرى ان الذين يجلبونهم او يتجرون فيهم انما هم من لا أخلاق لهم ولا مروءة ولادين، والزمان كما علمت وأهله كما ترى ولا يعتمد أيضا على قول العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك، فإن البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرون إلا بما يقدم في صحة بيعهم، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان، فيهون عليه ان يقر على نفسه بالترقية كي ينفذ بيعه عاجلا إلى غير ذلك من الأغراض وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم وقبل اليوم، ويغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض، ويسرقون من الأماكن النائية عن مدا شرهم وعمرانهم فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب في إغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم

أو سرقها والكل مسلمون، وأما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه ان يقدم على شراء ماهو من هذا القبيل، وكيف يجوز له التسري بإنائهم وفي ذلك مافيه من الأقدام على فرج مشكوك . . . » [53] هذا عن طريقة جلبهم والانحرافات التي كانت تقع اثناء ذلك. أما فيما يتعلق بمعاملاتهم داخل المغرب فلم يتحدث أي مصدر تاريخي أو غيره عن قمع او اضطهاد أو معاملة سيئة تعرض لها هؤلاء، فقد اندمجوا مع المغاربة وأثرو وتأثروا، إذ يذكر الزياني في هذا الصدد ـ أثناء الحديث عن وصول العبيد الى مراكش من السودان ـ : « . . . فدفع المنصور نصف العبدان لرؤساء البحر يركبون فيه، ويخدمون معهم ليتدربوا على سفره، والنصف الآخر اعطاهم السلاح والخيل من جملة الجند، وزوجهم بالجواري كل واحد أعطاه واحدة، فأولئك العبيد هم أصل العبيد جمعهم السلطان إسماعيل . . . . .) [54].

كما استغلت طائفة منهم في مصانع السكر المستحدثة [55].

غير انه اذا كان الأمر لم يثر أي مشكل في العهد السعدي نظرا لأن هؤلاء ظلوا في مستوى معين مع أسيادهم، فإن العكس تماما بالنسبة لبداية العصر العلوي في عهد السلطان مولاي اسماعيل عندما قرر تكوين جيش منهم (جيش العبيد)، اذ ظهرت أصوات معارضة من بعض فئات المجتمع ذات المصالح والامتيازات.

ذلك ما سنحاول أن نلقي الضوء عليه.

الرق في العهد العلوي : تجربة جيش العبيد [56]

أشار الزياني الى الظروف التي برزت فيها فكرة جيش عبيد البخاري لدى السلطان مولاي اسماعيل قائلا : « . . . وولع هذا السلطان بجمع العبيد، جعلهم عسكرا، والسبب في ذلك أنه لما كان بمراكش أتاه طالب من أهل مراكش بدفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور، فسأله هل يعرف منهم أحدا ؟ فقال : كثيرون بمراكش واحوازها، وان كلفني سيدي بجمعهم. فكتب له أمره للعمال يقفون معه في جمع العبيد وأولادهم . . . ولما رجع من مراكش لمكناسة كلف كاتبه محمد بن العياشي أن يخرج لقبائل الغرب وبني حسن والجبال لجمع العبيد، وكلف عماله بالقبائل أن يشتروا له العبيد . . . » [57].

وقد أراد السلطان بالفعل أن يبني جيشا جديدا للدولة المغربية يكون دعامة حقيقية لاستمرار السلطة في الدولة الجديدة، ولكي يتم ذلك توصل الى أنه يجب تكوين جيش بمعزل عن أصناف المجتمع، اذ ان هذا يجعله جيشا غير مرتبط بأية مجموعة، وبالتالي لا يرتبط الا بشخص السلطان عن طريق اداء يمين الاخلاص على صحيح الامام البخاري. [56] فأصدر السلطان أوامره الصارمة بعد اقتناعه بالفكرة بجمع الارقاء الموجودين في جميع التراب الوطني، وكان ذلك في سنة 1085/1607 م واسند هذه المهمة الى أحد كبار أطر حكومته «الباشا عليليش». ونجحت الفكرة في البداية ولكنها لم تعط العدد الكافي لتكوين قوة عسكرية كبيرة تحمي الدولة كنظام، وتحافظ على الأمن في مجموع التراب الوطني لذلك وسع السلطان المشروع من جمع الأرقاء الى ادراج عناصر أخرى في نفس النظام، مع ضمان تزويجهم قصد ازدياد عددهم في أطار ارتباطهم الأساسي بالسلطان. مما جعل منهم «مجتمعا عسكريا» تحت اشراف السلطان وتوجيهاته الخاصة. [59]

ويظهر من خلال النصوص المتوفرة لدينا عن هذه المؤسسة الجديدة انها أثارت ضجة كبرى في المجتمع المغربي، ودخل موضوعها في جدل فقهي تارة واجتماعي تارة أخرى. [60] الا أن هذا النقاش لم يطرح بحدته على المستويين معا الا عندما أمر السلطان بجمع الإناث في سنة 1101 هـ / 1690 م. وهكذا عندما دخلت هذه العملية مرحلة الاماء ظهر أنها أخذت تمس مصالح الطبقة الارستقراطية سواء في المدن او في مراكز الزوايا في البادية اذ ثارت ضد العملية كلها ثائرة هذه الطبقة، بدليل ان زعماء الثورة على هذا الاجراء ككل، كانوا ينتمون الى نفس الطبقة. وبدليل آخر ان عملية تكوين «جيش العبيد» «بدأت من حوالي 1088 هـ/1688 ، ولم تظهر عليها أية معارضة. ثم أن مدينة فاس كانت هي الأخيرة التي طولبت بتنفيذها وخصوصا جمع الاماء، وكانت أوساطها العلمية على علم بذلك كله، ولم تساعدنا المصادر على ان هذه المدينة وقفت في المعارضة من البداية ولم تظهر معارضتها الا عندما بدأت في فاس بالذات. بالاضافة الى أن الثورة الفكرية على العملية كلها لم تبدأ الا في عام 1108 هـ / 1697 م [61] وقد كان رد فعل السلطان عنيفا على أهل فاس إزاء قوة معارضتهم فقد كتب الى المدينة رسائل رسمية شديدة اللهجة يوبخهم على موقفهم المعارض من العملية كلها. [62] ونفس الموقف وقفته تطوان التي عارضت في الموضوع بنفس المنطق الذي استعملته مدينة فاس. [63] ويظهر ان فكرة تكوين «جيش العبيد» بهذه الطريقة فكرة مقتبسة بصورة

غير مباشرة من نظام جيش «الانكشارية في الدولة العثمانية» (64) فقد وضع السلطان لتكوين «الذكور من جيش العبيد» نظاما صارما منذ الطفولة الى نهاية حياتهم، وخصص لذلك مكانا اختارته استراتيجة الظروف العسكرية آنذاك وهو مشروع الرملة بالقرب من مركز تيفلت وسيدي سليمان حاليا. وأما الاناث فكن يتكون في القصر الملكي او في البيوتات الكبرى التي كان أصحابها موظفين للدولة في مختلف التراب الوطني أو البيوتات الارستقراطية بالقصر كله (65)

ويلاحظ ان هذا الجيش لم يكن يدرب عسكريا فقط بل كان يدرب على شؤون الادارة والقيادة وقد شغل اذكاهم وأكبرهم ثقة عند السلطان أعلى وظائف الحكومة سواء في العهد الاسماعلي او بعده. (66)

وبصفة عامة فقد كانت المعاملة الانسانية هي السمة الغالبة في تعامل المغاربة مع الرقيق، وظلت نفس المعاملة الانسانية الى غاية اختفائه تماما من المغرب، فأثناء زيارة الانجليزي (آرثرليرد) للمغرب سنة 1872 (67) لاحظ عن الرق بالمغرب ما يأتي : «ان الغرض منه لم يكن استغلال الانسان لحمله على اداء أكبر قدر ممكن من العمل - كما كان الهدف بأوروبا وأمريكا في عصر الرق -، فهذا غير معروف في الديانة الاسلامية، فالعبد أو الأمة في المغرب يندمج في الأسرة التي تتبناه، وهو يكاد يعيش في المستوى الذي يتمتع به باقي أفراد هذه الأسرة، واذا روعيت قواعد الدين فإن الطفل يرسل الى المدرسة مع باقي الأطفال، وهو يتمتع بالتغذية واللباس جيدا . . . وهناك أناس يحتلون بعض المراكز السامية بالرغم مما يجري في عروقهم من الدم الزنجي . . . » (68)

ويقول في مكان آخر عن المعاملة : «وهم يعاملون معاملة حسنة في هذه البلاد، واذا تلقى العبد معاملة سيئة فإن في مستطاعه أن يطلب إعادة بيعه بصفة قانونية، ويحدث في بعض الأحيان أن العبد ينال حريته عن طريق صديق له يشتريه من سيده، على أن العبد يصبح في كثير من الأحيان شديد الارتباط بسيده على صورة يرخص معها أن ينال حريته . . . ». (69)

هكذا رأينا إذن تطور وضعية الرقيق بالمغرب، فهي وضعية تختلف تماما عن مثيلاتها بأوروبا، والمعايير المتخذة في أوروبا لتصنيف هؤلاء الرقيق داخل المجتمع لا تصلح تماما بالنسبة للمغرب، لان تصنيف المجتمع المغربي تصنيف مرن، اذ يمكن للعبد ان يترقى الى مرتبة اجتماعية أعلى اما لعلمه أو مجهوده او كفاءته في ميدان من الميادين وهو حق مازالت تطالب به شعوب افريقية الى يومنا هذا داخل أراضيها نفسها.

الهوامش

(*) أعد هذا البحث برسم الندوة التي نظمتها (الأليسكو) بتونس (1985) حول موضوع «الرق بافريقيا» وقد نشر بالمجلة التاريخية المغربية بتونس (1986)، كما أعيد نشره بمجلة البحوث التاريخية بليبيا، العدد 2 لسنة 1986

(1) من الباحثين المغاربة من يذهب إلى رأي مخالف، نذكر على سبيل المثال محمد الناجي اذ يقول في هذا الصدد: «... ويمكن القول في البداية أن القساوة كانت سمة التعامل مع العبد في بعض الأحيان ولأسباب بسيطة، وتبلغ المعاملة أوجها في القساوة حتى تصل الى القتل »
«حول الرقيق في المغرب ما قبل الاستعمار»، مقال بمجلة «أبحاث» العدد الأول، يناير / فبراير 1983 الرباط، ص 57 »
ويقول في مكان آخر: «... لكن اطلالة على الوثائق المتعلقة بالرق تظهر لنا كثرة حالة الهروب رغم الاخطار المحيطة بها، وهذا يمكنك من افتراض سوء معاملة الزنوج، ولا غرابة في ذلك في مجتمع يحكم فيه على هذه الفئة بالانحطاط فابن خلدون يراها أقرب من الحيوان الى الانسان، وقد كان لليون الافريقي نفس الرأي في هذا الموضوع، اذ يقول بأن السود هم حيوانات بدون عقل ولا ذكاء ولا تجربة، وليس لهم أية فكرة عن أي شيء كان ويعيشون كحيوانات بدون قواعد وقوانين. . »
نفس المصدر ص 58
ويبرر الباحث المذكور ذكره لهذه المظاهر السلبية للرق بالمغرب بقوله: «لقد رأينا من المفيد أن نضع الأصبع على المظاهر السلبية وذلك لفتح النقاش .»
نفس المصدر ص 64
ولا نتفق مع الأستاذ محمد الناجي فيما ذهب اليه، فالنقاش يمكن بطرح أسئلة للنقاش، لا بذكر «مظاهر سلبية للنقاش»، لأنه في هذه الحالة يصبح التوجيه واضحا ثم ان ماذهب إليه لا يعدو أن يكون إشارات عابرة وردت في مصادر معينة وبالتالي لا يمكن الإعتماد عليها وحدها بتاتا لتقويم الرق في المغرب.

(2) moulieras Auguste, **le Maroc inconnu**, 2 · 63-64

(3) دوحة الناشر، ص 131.

(4) يقال إن بعض الملاحين البرتغاليين قد اسروا في إحدى رحلاتهم البحرية جماعة من الأفارقة فأخذوهم معهم لتعليمهم مبادىء المسيحية حتى يعودوا لبلادهم ليكونوا رسلا لنشرها في افريقيا لكن اتجهت أذهان البرتغاليين فيما بعد الى شراء الرقيق الأسود أو خطفه ثم بيعه للعمل في البرتغال (انظر شوقي الجمل، **تاريخ كشف افريقيا واستعمارها**، ص 129.

(5) الى غاية نهاية القرن السادس عشر كانت البرتغال هي التي تمون كلا من املاكها والاملاك الاسبانية بالرقيق، وأصبح الرقيق عماد الحياة الاقتصادية البرتغالية. (انظر شوقي الجمل نفس المصدر والصفحة)

(6) نفس المصدر والصفحة

(7) أول شحنة انطلاقا من ساحل غانا وصلت هايتي في عام 1510.

(8) انظر تشرشل ر. ج.، هاريسون، **الاستعمار الحديث** (ترجمة دولة احمد صادق ومراجعة محمد السيد غلاب)، ص 70.

(9) القرن السادس عشر يسميه بعض المؤرخين في افريقيا عصر البنادق.

(10) انظر شوقي الجمل، المصدر السابق، ص 130

(11) نفس المصدر والصفحة.

(12) انظر صفحي الدين محمد، **افريقيا بين الدول الاوروبية**، ص 79.

(13) انظر شوقي الجمل، المصدر السابق، ص 131.

(14) Garnier Jacqueline BEAUJEN, **Geographie..**, 2/39

(15) انظر حمدان جمال، **استراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص 104 .

(16) انظر حول هذه المملكة الدراسة القيمة التي انجزها الاستاذ عبد القادر زبادية بعنوان **«مملكة سنغاي في عهد الاسقيين»**.

(17) انظر عبد القادر زبادية، المصدر السابق، ص 120 .

(18) نفس المصدر والصفحة .

(19) انظر محمود كعت، **تاريخ الفتاش**، ص 172 ـ 173 .

(20) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 57 .

(21) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 62 .

(22) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 65 .

(23) انظر **وصف افريقيا**، 2 : 176

(24) **رحلة ابن بطوطة**، ص 83 .

(25) انظر محمود كعت المصدر السابق، ص 60 .

(26) نفس المصدر، ص 111 .

(27) نفس المصدر، ص 102 .

(28) نفس المصدر، ص 123 .

(29) نفس المصدر، ص 73 .

(30) نفس المصدر، ص 133 .

(31) يمكن تلخيص الأزمات في :

- تفكك السلطة المركزية وضعفها
- الغزو الايبري للاراضي المغربية
- المجاعات، الأمراض، الأوبئة، القحط .
- النقص الديمغرافي الخطير الذي كان يعرفه المغرب آنذاك

(32) B. Rosenberger et H. Triki, Famines et Epidemies Au Maroc in **Hesperis — Tamuda, Vol.** XIV, Fascicule Unique, 1973, p. 128 Ibid, P 133.

(33) ملاحظة : انتشرت آنذاك ظاهرة شراء الرق لاجل الفراش

(34) Ibid, P 133

(35) Ibid, 134

(36) B Rosenberger et H. Triki, Famines et Epidemless Au Maroc, in **Hesperis-Tamuda vol** XV, Fascicule unique, 1974. P 94

(37) **تنبيه الهمم العالية**، 125

(38) المصدر السابق، ص 126

(39) انظر أحمد بوشرب محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية (1559)، مقال بمجلة **«المناهل»** المغربية العدد 21 يوليوز 1981، ص. 225 .

(40) انظر ـ مثلا ـ محضر المحاكمة المقال السابق، ص. 236 ـ 278

(41) نجد أن كلمة موريسكي كما تستعمل باسبانيا لا تنطبق على الجالية المورسكية البرتغالية التي ينطبق عليها لفظ افريقي Barbaresco أو تركي Turco فهؤلاء دخلوا البرتغال لأسباب خاصة وفي ظروف خاصة كذلك، في حين أن مورسكيي الأندلس جذورهم متأصلة هناك .

(42) انظر أحمد بوشرب، «الجالية الموسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحيتين»، مقال مجلة **«المناهل»** المغربية ع 24، يوليوز 1982، ص. 363 .

(44) المقال السابق، ص 368 .
(45) المقال السابق، ص 371 .
(46) نفس المقال والصفحة .
(47) نفس المقال والصفحة .
(48) نفس المقال والصفحة
(49) نفس المقال والصفحة .
(50) المقال السابق، ص. 373
(51) **الترجمان المعرب، ص. 463**
ملاحظة : يرى R Letourneau ان العدد مبالغ فيه .
أنظر
Extrait de la dynastie saadide, **in Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, 23, 1ère semestre, 1977, P. 53**
(52) مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 478 د. ص. 231 ـ 232 وانظر ملاحظات حول هذه الفتوى عند :
Zakari Dramani - Issifou, **l'Afrique das les relations internationales au XVIème siècle, pp. 111 - 116.**
(53) **الاستقصا**، 131 ـ 132
(54) **الترجمان المعرب** ص 364 .
(55) - P Bertier, 1 : **Un Episode de l'Histoire de la canne à sucre** 233 et 242
انظر أيضا . زراعة قصب السكر وتصفيته في المغرب القديم مقال بمجلة البحث العلمي الرباط العدد العاشر يناير / أبريل 1967، ص 139ـ140
(56) حول وثائق جيش عبيد البخاري انظر محمد المنوني : **المصادر العربية لتاريخ المغرب** 1 : 211ـ213
(57) **الترجمان المعرب** ص. 376 .
(58) A Laroui, **Histoire du Maghreb**, P. 254
(59) انظر هاشم العلوي القاسمي مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر ص. 32
(60) المصدر السابق، ص. 33 .
(61) نفس المصدر والصفحة .
(62) انظر أبا القاسم الزياني **الروضة السليمانية**، 101 ، (ع. الرحمان ابن زيدان **المنزع اللطيف**، 322 .
(63) انظر محمد داود، **تاريخ تطوان** 2 : 34ـ43 .
(64) انظره جب ـ بوون **المجتمع الاسلامي والغرب** (ترجمة أحمد الرحيم مصطفى)، 1 : 82 .
(65) انظر هاشم العلوي القاسمي ، المصدر السابق، 34 .
(66) Ch. de la Veronne, **Documents inedits**, O. 44, note : 3
(67) انظر عبد المجيد بن جلون، ص 7 وما بعدها .
(68) المصدر السابق، ص. 123 .
(69) ـ المصدر السابق، ص. 124 .

المصادر والمراجع

- الزياني ابو القاسم
الترجمان المعرب، عن دول المشرق والمغرب مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم 658
- الفشتالي عبد العزيز
مناهل الصفا، في أخبار الملوك الشرفا تحقيق عبد كنون، المطبعة المهدية بتطوان، 1964.
- البوخصيبي أبو بكر
أضواء على ابن يجبش التازي، الدار البيضاء 1976
- المنوني محمد
المصادر العربية لتاريخ المغرب الجزء الأول، الدار البيضاء، 1983
- ابن جلون عبد المجيد
جولات في مغرب الأمس (1872) الدار البيضاء، 1974
- الناصري أحمد
الاستقصا، لاخبار دول المغرب الأقصى الجزء الخامس، الدار البيضاء 1955
- ابن عسكر محمد
دوحة الناشر. . . تحقيق محمد حجي الرباط 1976
- كربخال مارمول
افريقيا الجزء الأول
ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، احمد بنجلون، الرباط، 1984
- الوزان الحسن بن محمد
وصف افريقيا، جزان، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، 1980، 1982
- بوشرب أحمد
دكالة والاستعمار البرتغالي، الدار البيضاء، 1984
«محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية»
مقال بمجلة المناهل، الصادرة بالرباط، عدد 21، يوليوز 1981، ص 244 ـ 278
«الجالية المورسكية المقيمة بالبرتغال»، مقال بمجلة المناهل، العدد 24، 1982 ص ـ 392 354
- زبادية عبد القادر
مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر 1971
- القاسمي العلوي هاشم
مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر ـ بيروت 1981
- بابا احمد
معراج الصعود
مخطوط المكتبة العامة بالرباط، 478 د
- التاجي محمد
حول الرقيق في المغرب ما قبل الاستعمار مقال بمجلة أبحاث، العدد الأول، يناير / فبراير، 1983، الرباط، ص 55 ـ 64

الجالية الأندلسية بالمغرب العربي (*)
(تونس والجزائر)

عرف استقرار الجالية الأندلسية بتونس تطورا متباينا تبعا للظرفية التاريخية السائدة بالمنطقة، لكن على العموم كان تأثير هذه الجالية قويا في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد اختلف الدارسون في تقويم الوجود الحضاري الأندلسي بتونس، فبينما اعتبره البعض ـ وفي جميع الأحوال ـ عاملا إيجابيا، أقر له البعض الآخر ببعض المظاهر السلبية.

أما بالنسبة للجزائر فإن الوجود الأندلسي يبدو فيها ضعيفا إذا ما حاولنا مقارنته بمثيله في كل من المغرب وتونس ولكننا مع ذلك سنحاول من خلال استقرائنا لمصادر معينة أن نلتمس بعض صوره.

الجالية الأندلسية بتونس :

وردت إشارات عديدة عن الجالية الأندلسية في العهد الحفصي في المصادر التي أرخت لهذه الفترة، نخص بالذكر منها : **الفارسية** لابن القنفذ القسطنطيني، **وعنوان الدراية** للغبريني، **وتاريخ الدولتين** للزركشي، **ورحلة** ابن رشيد **ووصف إفريقيا** للوزان، **والروض الباسم** لعبد الباسط بن خليل، **والمؤنس** لابن أبي دينار، بالاضافة إلى ابن خلدون والمقري في **نفح الطيب**.

أما الدراسات، فبالاضافة إلى دراسة روبير برانشفيك R. Brunschvig حول الحفصيين [1] ودراسات الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه الورقات، ظهرت أخيرا دراستان مهمتان : الأولى للأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة [2]، والثانية للأستاذ محمد الطالبي [3]. على أن أهم دراسة للوجود الأندلسي بتونس في العهد الحفصي هي الدراسة الأخيرة للأستاذ محمد الطالبي.

حاول الأستاذ الطالبي في مقاله ـ السالف الذكر ـ أن يحلل هذا الوجود الأندلسي من خلال نقطتين أساسيتين :

النقطة الأولى : (العقلية الانهزامية) التي حملها معهم الأندلسيون إلى تونس

يقول الكاتب في هذا الصدد : « . . . . وهكذا استولت على مسلمي الأندلس عقلية انهزامية يصورها لنا أحسن تصوير الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال، حيث يقول :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم   فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا   كيف الحياة مع الحيات في سفط [4]

قال ابن العسال هذه الأبيات عند ضياع طليطلة، وهي ترشح كلها بتلك العقلية الانهزامية التي تحدثنا عنها، والتي كانت السبب العميق والحقيقي الذي تولدت عنه الأحداث، تلك الأحداث التي لم تزد على أن تحقق ـ على مراحل ـ النتائج الحتمية لعقلية الانهزام وما يتبعها من انغماس في زائل اللذات، والتهام الفرص قبل دق الجرس. . . [5]

النقطة الثانية : الشعور بالغربة وهم بالأندلس نفسها.

وهي نقطة حاول الأستاذ الطالبي أن يعزز بها النقطة السالفة الذكر إذ يقول : « . . . والذي ينبغي التأكيد عليه لإدراك كل ابعاد الهجرة الأندلسيه الاجتماعية والنفسيه، هو أن مسلمي الاندلس ـ وهم في أغلبيتهم الساحقة من أبناء البلاد الأصليين . كانوا يشعرون أنهم أجانب، وأنهم بأرض ليست بأرضهم، حان وقت المطايا لمفارقتها. . . ومما يصور أحسن تصوير هذه العقليه، قول شاعر مجهول يورده المقري هكذا :

يا أهل أندلس ردوا المعار فما   في العرض عاريه إلا مردات [6]

هكذا كان القوم يشعرون أنهم استعاروا إلى أجل أرضا غير أرضهم، أو أنهم منحوا عارية لابد أن ترد إلى أصحابها الشرعيين، بعد استيفاء ما منحوا من غلتها. . . وأعاد إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي صرخة ابن العسال :

وقائلة لها : أراك تطيل فكرا كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها : أفكر في عقاب غدا سببا لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب [7]

ونجد في صرخته هذه تلك العقلية الانهزامية التي تحدثنا عنها، وتلك الدعوة إلى مغادرة السفينة قبل الغرق، فهو لم يدع أهل بلده إلى التكتل أمام الخطر، وإلى تغيير ما بنفوسهم من أسباب الانقسام والانهزام، حتى يغيروا الوضع، كل ما أسفرت عنه محاسبة النفس، والتفكير في العقاب، هو أنه : فما في أرض أندلس مقام. . . [8]، ويخرج بعد ذلك المؤلف بالنتيجة التالية : «فالهجرة، أي مغادرة السفينة الأندلسية وشأنها، قد هيأت لها إذن عقلية انهزامية انتهازية استولت على النفوس منذ قرون. فكان أمراء الأندلس وكبراؤها يحتسون الكأس حتى الثمالة، قبل أن يفوزوا بأنفسهم وبما استطاعوا من أموالهم.

فأول من غادر الأندلس من المسلمين هم سراتها ونخبتها. . . » [9]. هذا إذن هو منطلق الأستاذ الطالبي لدراسة الوجود الأندلسي بتونس، والباحث وإن كان لا يريد أن يدخل معه في تفاصيل أسباب النكبة ونتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي والمركبات الاجتماعية والنفسية التي تولدت عنها ـ لأن هذا من شأنه أن يخرج بنا عن الإطار المحدد لهذه الفقرة ـ فإنه مع ذلك يبيح لنفسه أن يطرح على الأستاذ الأسئلة الآتية : كيف تجلت هذه العقلية الانهزامية الانتهازية بتونس ؟ هل أثرت العقلية على التونسيين واعتبروا هم أيضا ألا جدوى من مقاومة (الروم)، وبالتالي يجب البحث عن الهجرة عن بلد أبعد، أم أن الأمر كان عكس ذلك ؟ هل اعتبر الأندلسيون غرباء بتونس كما اعتبروا أنفسهم غرباء بالأندلس ؟ هل اندمجوا، ماهي التنازلات التي قدمتها كلتا الطائفتين لأجل تحقيق هذا الاندماج ؟ لماذا اختار الأندلسيون (بعقليتهم الانهزامية الانتهازية وبشعورهم بالغربة) أرض تونس ؟

تلك أسئلة متعددة ولكنها في الواقع متكاملة في الواقع ومن شأن الإحاطة ببعضها أن يجلو كثير من الغموض، لأن من شأن المنهج الوصفي ـ الذي يأخذ به الكثير من الدارسين ـ أن يزيد الأمر غموضا وتعقيدا، وبالتالي يؤدي إلى بروز عدد من المتناقضات، وسنحاول من خلال استعراضنا لبعض مراحل هذا الوجود والبحث عن مكوناته وأبعاده السياسية والحضارية أن نتوصل إلى أخذ صورة متكاملة عنه، يتأتى لنا ذلك مقارنتها بالصورة التي حاولنا استخلاصها بالنسبة للمغرب، خاصة وأن أوجه الشبه متعددة.

عوامل استقرار الجالية الأندلسية بتونس في العهد الحفصي :

ـ العلاقات الودية بين الأسرة الحفصية وأهل الأندلس :

ذلك أن الأسرة الحفصية ـ التي كان مؤسسها أبو محمد عبد الواحد (604 ـ 618/1207 ـ 1221) أحد أبطال معركة الأرك ـ قد استقرت بالأندلس [10] قبل انتقالها إلى إفريقية، فكان الحفصيون يميلون لأهل الأندلس ويقدرون مواهبهم لخدمة دولتهم وسياستهم، فيحسنون لذلك وفادتهم.

ـ الانهيار الديمغرافي الذي أصاب تونس في هذه الفترة :

فقد تواصل الانهيار الديمغرافي منذ منتصف القرن الرابع عشر، فكان الوافدون الأندلسيون ـ لهذا السبب ـ يجدون مجالا واسعا لاستثمار مواهبهم في قطاعي التجارة والصناعة على الخصوص، بالإضافة إلى الميدانين الفكري والسياسي.

ـ الاستقرار النسبي الذي كانت تتمتع به تونس :

كانت تونس تمثل في نظر الأندلسيين ـ في ذلك الحين ـ الملاذ الأخير لما كانت تتمتع به من استقرار ومناعة نسبية، فإليها اتجهت أنظار ابن مردنيش عندما داهمته جيوش أراغون في رمضان سنة 635 هـ / أبريل ـ ماي 1238، فأوفد كاتبه ابن الآبار إلى أبي زكرياء مستصرخا، فأدى له البيعة، وأنشده في حفل سينيته الشهيرة.

أدرك بخيلك، خيل الله، أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا [11]

ويضيف الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة إلى ذلك أن الأندلسيين ضاق بهم الأمر بالمغرب بسبب الفتن التي كانت تهزه «فاتجه قسم منه إلى المشرق نحو الديار المصرية والشامية والحجازية، وبقي القسم الأخير وهو كبير كثير بإفريقية وفي البلاد التونسية متوزعا بين أطرافها مستبدلا بالأهل أهلا وبالأوطان أوطانا. وإلى هذا يشير أبو الحسن حازم القرطاجني في أول قصيدته النحوية بقوله :

فتونس تؤنس الأبصار رؤيتها ... وتمنح الأمم الأسماء والأمما
كأنما الصبح فيها ثغر مبتسم ... وحوة الليل فيها حوة ولما
فأقبلت نحوها للناس أفئدة ... ترتاد غيثا من الإحسان منسجما
فكلهم حضروا في ظل حضرتكم ... فأصبحت لهم الدنيا بها حلما
قد ند فيها الأسى عن أهل أندلس ... والانس فيها عليهم وفده قدما
وأبدلوا جنة من جنة حرموا ... منها وقد بوؤوا من ظلها حرما

كما ينوه بما تم له بإفريقية من أمن وهناء وحظ وذلك في بداية مقصورته حين يقول متحدثا عن ممدوحه المستنصر :

مقدم قبل السؤال جوده ... فما يقول من يرجيه : متى ؟
جرى إلى نهاية الجود التي ... ما بعدها وجود معنى لالى
لو لم يوصل أهله الدهر إلى ... الأئه لم يصلوا إلى الى
طابت بالأيام لي حتى لقد ... ذكرت في قد خلا عيشا حلا
فيا خليلي اسقياني أكؤسا ... نسكر من خمر الصبا من قد صحا
بلغت آراب المنى في دولة ... أولت يدي أسنى الأيادي واللهى [12]

- موقف الأندلسيين من الموحدين :

نفض معظم الأندلسيين أيديهم من الموحدين واعتبروهم مسؤولين عن ضياع بلدهم، لذلك ولوا وجوههم شطر الحفصيين مؤملين منهم أن يعملوا على إنقاذها، ولعل ابن عميرة يعبر عن هذه الفكرة حين يقول من قصيدة يحث فيها أبا زكرياء الحفصي على الاستيلاء على المغرب ويشكو إليه حال الأندلس :

والمغرب الأقصى على غسق به ... وافاه منك سنا الصباح المسفر
كلمته أنياب الزمان وماشكا ... داء ابن داية غير ظهر الأدبر
والأمر فيه قد انقضى إلا لقي ... يكفيه منك تناول بالخنصر
ولأرض أندلس إليك بحالها ... شكوى الهشيم إلى السحاب الممطر
سقمت بعباد المسيح وأنها ... في أن تكون مسيحها لا تمتري
رحمالك فيها من أخيذة أذؤب ... يزري بقسوتها زئير القسور
وبقوتها يقوى القياس فسق إلى ... أبطاله نص الجياد الضمر
وأجبر قناة الدين فيها بالذي ... يقص العدو من القنا المتكسر [13]

ونجد له قصيدة أخرى في مدحه يشيد فيها بأعمال الحفصيين ويهجو الموحدين، وفيها كذلك يشير إلى مبايعة سبتة وسجلماسة له فيقول :

وأرى البلاد ولا لعا لعثارهم ... رمقت اقالتهم بعين القالي
ودعا بذات البحر [14] داع للهدى ... لم تعد أن ولته وجه موال
سعد المجيب بها ويا لك باغثا ... منها جوابا كان قبل سؤال
حسناء أغلى مهرها من لم يزل ... من كان يرغب في النفيس الغالي
وأتتك ضرتها [15] فكان صداقها ... بالنقد من نعماك لا بالكالي
مدت من الصحراء جيدا إذ رأت ... من تلك جيدا هو بأسمك حالي [16]

الهجرة :

- جالية شرق الأندلس :

بدأت الهجرة (الكبرى) إلى إفريقية الحفصية بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى خاصة بلنسية (636 هـ / 1238 م) واتخاذ قرارات الطرد ضدهم، وهكذا هاجرت جاليات مهمة من شرق الأندلس إلى غرناطة أولا ومن هناك إلى المغرب وإفريقية الحفصية بالخصوص، حيث كونوا جالية متميزة عن غيرها. [17] ويلاحظ أن ابن خلدون يستعمل في كل الحالات كلمة «جالية» مما يعني أن القدوم لم يكن فرديا، بل كان جماعيا. [18]

ـ جالية غرب الأندلس :

تأتي بعد المجموعة الأولى مجموعة أخرى يتحدث عنها ابن خلدون على أنها مجموعة متميزة عنها، وهي جالية غرب الأندلس التي أم أفرادها المملكة الحفصية بعد ضياع اشبيلية (646 هـ / 1249 م).

ويذكر لنا ابن خلدون أن هذه الجالية كانت مقربة أكثر من الأولى من طرف أبي زكرياء مؤسس الدولة الحفصية، ومن طرف أبنائه من بعده. فهو يروى لنا أنه «كانت لأهل اشبيلية خصوصا من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه، منذ ولايته غرب الأندلس [19] وعندما يقص علينا كيف ارتقى ابن الدباغ إلى الحجابة، يضيف : «وكان من خبر ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وفد على تونس في جالية اشبيلية سنة ستة وأربعين (وستمائة)، فولد هو بتونس ونشأ بها» [20]

غير أننا أمام سكوت المصادر عن إعطائنا أرقاما وإحصائيات لعدد هؤلاء المهاجرين، فإنه يستحيل علينا ضبط عدد الوافدين إلى إفريقية، لكن الأمر المؤكد أن عددهم كان مرتفعا وأنهم أموا بالخصوص إفريقية، إذ يقول ابن خلدون في هذا الصدد : «لما تكالب الطاغية على العدوة، والتهم ثغورها واكتسح بسائطها، وأسف إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الاعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وإفريقية، وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها» [21]

ولم يجز إلى إفريقية «الاعلام وأهل البيوت»، فقط، بل انتقل إليها أيضا أقوام بأجمعهم، بعدما فشلوا بالمغرب الأقصى الذي كان أشد اضطرابا من إفريقية [22]. وهذا ما وقع لأبي الغنم وقومه فلقد حاولوا أولا الاستقرار بطنجة، لكنهم غادروها سنة 661 هـ / 1263، بعدما قتل غدرا بنو مرين أميرها يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمين، فعندما يقول ابن خلدون : «انتقل بنوه الى تونس، ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمان بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها، وأصهر إليهم بنو الأمين، وارتحلوا معهم إلى تونس» [23].

ملامح التأثير السياسي :

ـ في الميدان السياسي : أراد أبو زكرياء الأول (625 هـ / 647 هـ ـ 1228 / 1249 م) أن يستغل (النخبة الأندلسية) ليدعم بها أركان دولته، ويجعل منها أداة توازن يخفف بها من ضغط شيوخ الموحدين. فاصطنعهم واستكثر منهم في بلاطه وإدارته وجيشه، وأسند لبعضهم أسمى الوظائف فلقد كان الأندلسي الرئيس أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين المسير لشؤون دولته، وكان أسند لابن الأبار، الذي وقد عليه من بلنسية مستنجدا، كتابة علامته، ولقد بلغ عدد الأندلسيين ونفوذهم بالإدارة والجيش مبلغا جعل شيوخ الموحدين يضيقون بهم ذرعا [24]، ذلك أن أبا زكرياء حسب عبارة ابن خلدون، كان قد «اصطنع منهم رجالا، ورتب جندا كثروا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة» [25].

فلما ولي المستنصر (647 هـ ـ 675 هـ / 1249 م ـ 1277 م) أراد أن يقدم بعض التنازلات (للمشيخة الموحدية)، فأبعد ابن أبي الحسين، وأسند وزارته أتى شخصية موحدية مرموقة، فعين لذلك محمد بن أبي مهدي الهنتاتي لكن المشيخة الموحدية لم تعتبر ذلك كافيا، فدبر ابن أبي مهدي، بمساعدة مشيخة الموحدين عملية انقلاب آلت في النهاية إلى الفشل، وإلى تدعيم نفوذ الأندلسيين فأعاد المستنصر ابن أبي الحسين إلى مكانه واعتمد عليه في تسيير شؤون الدولة [26]، وأصبح مثلا يحتذى لمن بعده [27].

واستفحل هكذا النفوذ الأندلسي في البلاط، فأصبح الأندلسيون من «أهل الشورى» [28] على قدم المساواة مع الموحدين.

ولعله ليس أدل على ما بلغه الأندلسيون من رفعة في المملكة الحفصية مما تهيأ لأبي الحسين بن سيد الناس. كان أبوه أبو بكر بن سيد الناس «من بيوت اشبيلية، حافظا للحديث، راوية له، ظاهريا في فقهه على مذهب داود وأصحابه» [29]، فقدم إلى تونس عند الجلاء، وأسند إليه التدريس بمدرسة جامع الهواء، واتصل أباه أحمد وأبو الحسن بأبي فارس بن أبي إسحاق. فأما أحمد فقد قتل بسبب ما كان يحاك من الدسائس. وأما أبو الحسين فقد انقطع إلى أبي فارس، ثم بعد مقتل هذا الأخير في حرب الدعي ابن أبي عمارة، التحق بأبي زكرياء بن أبي إسحاق، وأعانه على اغتصاب بجاية سنة 684 / 1285 وإقامة مملكة مستقلة بها، ولعله يحسن أن نورد النص الكامل الذي خص به ابن خلدون : «قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته،

وأنه لحق بالأمير أبي زكرياء بتلمسان وأبلى في خدمته. فلما استولى الأمير أبو زكرياء على الثغر الغربي، واقتطعه عن أعمال الحضرة، ونزل بجاية وظاهر بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته. وفوض إليه فيها وراء بابه، وأجراه في رئاسته على سنن ابن أبي الحسين، الرئيس قبله في دولة المستنصر، الذي كانوا يتلقنون طرقه، وينزعون إلى مراميه. بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين، لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذي يزاحمونه كما كان ابن أبي الحسين مزاحما بهم.

فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمر مخدومه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة 690 أعظم ما كان رئاسة، وأقرب من صاحبه مكانا وسرا» [30]. وخلف ببجاية أبا الحسين أندلسي آخر، هو أبو القاسم بن أبي جبي الذي تمتع بنفس النفوذ، ودخل في سعايات ومغامرات عديدة [31]. وترك أبو الحسين بن سيد الناس ولدا، وهو محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، الذي لعب دورا هاما في سياسة عصر وولي الحجابة [32]. ومن أشهر الأندلسيين الذين بلغوا قمة الرتب يجب أن نذكر أيضا أبا عبد الرحمان يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن عمر السلمي، الذي قدم جده محمد من شاطبة مع الجالية. وولي أبو عبد الرحمان بن عمر الحجابة ببجاية، واستبد بها سنة 715 / 1315، «مقتصرا على ذكر السلطات في الخطبة واسمه في سكة» [33]، إلى أن توفي على فراشه في شوال سنة 719 نوفمبر - دجنبر 1319.

هذا كان دور الجالية الأندلسية بتونس وهو دور لا يقل عن الدور الذي ستلعبه جالية سنة 1609 رغم أن الأقلام اتجهت إلى الثانية أكثر من الأولى، دور تمتزج فيه السلبيات بالإيجابيات إلى حد كبير، وإن كان الوجود الأندلسي بتونس واضحا فإن السلبيات تثير الكثير من نقط الاستفهام : كيف سمح الأندلسيون لأنفسهم أن ينقلوا معهم إلى بلاط الحفصيين دسائس وسعايات بلاطاتهم بالأندلس، خاصة وأنهم ذاقوا مرارتها وعرفوا كيف آلت بهم إلى السقوط ؟ لماذا لم يحترموا قواعد التركيبة السياسية الحفصية بكل مكوناتها ؟

إن الواقع يبين أن الأندلسيين بتونس ـ كما حاولوا ذلك في المغرب ـ حاولوا أن يفرضوا نوعا من الوصاية الحضارية على تونس. فقد كان أهل الأندلس يحتقرون أهل تونس ويزدرون ببلاطهم خاصة إذا ما قاسوه ببلاطات الأندلس وما كان يسودها من أناقة ورشاقة وترف وظرف، فإذا ما اعتبرنا هذا أدركنا أنه ليس من الغريب أن يخط ابن الآبار :

طغى بتونس جلف سموه ظلما خليفة [34]

وقد أظهر ابن الآبار هفوات كشف بها لأعدائه عن مقاتله، فأمر المستنصر «بامتحانه، ثم بقلته قعصا بالرماح» [35] (وسط محرم 658 / آخر دجنبر 1259)، وبحرق شلوه كما احرقت كتبه، ذلك أن ابن الآبار كان يتهم فيما اتهم به بأنه كان يريد الكيد للأسرة الحفصية في شخص الواثق بن المستنصر عن طريق السحر والتنجيم [36].

هكذا كثرت الدسائس والسعايات بين الأندلسيين والحفصيين من جهة وبين الأندلسيين أنفسهم من جهة أخرى إلى درجة أصبح معها الاحتراز هو العملة السائدة. وقد حاول الأستاذ محمد الطالبي أن يلخص سلبيات هذا الوجود الأندلسي بتونس في الفقرة التالية : « . . . إن فيما تقدم دلالة كافية على مدى انهيار سلم القيم وفقدان كل شعور بالمسؤولية. فإذا ما استثنينا أبا عبد الله محمد بن أبي الحسين، فإنه لم يرتفع أي أندلسي ممن خدم الحفصيين إلى مستوى رجل دولة بأتم معنى الكلمة. فإننا مهما أطلنا مطالعة المصادر والححنا في استنطاقها، فإننا لا نلمس أدنى وعي بالمسؤولية نحو الأمة والدولة. وكذلك مفهوم الاخلاص، فإننا لم نكد نعثر له على أثر يذكر فالإخلاص، إذا ما توفر، فإنما يكون إخلاصا لشخص أو لعائلة، وهو عندها، مهما يكن الأمر، لا يحول دون الاختلاس، وإيداع دفائن الذهب في بطن الأرض احتياطا للطوارىء، ولا يثبت بحال أمام الدسائس والسعايات، ولا يمنع من قلب ظهر المجن عند الحاجة [37].

وقد تحدث الأستاذ الطالبي بعد ذلك على تأثير ذلك على الأمن بالمنطقة قائلا : «كل هذا يكشف عن شعور قوي بعدم الأمن، تولدت عنه عقلية انتهازية قصيرة الرواية، كناقد لاحظناها بالأندلس. ولقد كان الأمن حقا مفقودا في كل المستويات، في مستوى الأرياف - حيث انتشار الظعن جعل من يزرع لا يأمن أبدا على حصاد ما زرع - وفي مستوى البلاط، حيث سوء الظن، والخيانة، والسعاية، والتعذيب، والقتل، وحرق الاشلاء، فتكونت عقلية نسجتها العنكبوت بخيوط التنجيم والطلسمات» (38). ثم انتقل بعد ذلك الأستاذ الطالبي إلى فقدان الوعي السياسي لدى هذه الجالية وكيف أنهم لم يستفيدوا من تجربتهم بوطنهم الأصلي مقارنا كل ذلك بالوضعية التي كانت تسير نحوها أوروبا آنذاك : «لقد قدم الأندلسيون لاجئين بعدما أضاعوا بلادهم وخرجوا منكوبين من وطنهم ولقد شاهدوا كيف انتصر عليهم المسيحيون بفضل سياسة واعية متواصلة حافزها ومحورها استرجاع الوطن السليب كل هذا كان من شأنه - مبدئيا - أن يوقض فيهم الضمائر، ويدعوهم إلى التفكير، وإلى حفز الهمم، والأعراض عن الخساثس والسفاسف، ويجعل منهم حرب يقظة وإصلاح، بل - لم لا ؟ حزب اعداد العدة لاستعادة ما اغتصب منهم بالقوة ونحن لا يسعنا إلا أن نسجل أنه لم يكن شيء من هذا لقد كان فقدان الوعي كاملا.

وكل ما فكرت فيه نخبة القوم وأصحاب الأقلام منهم هو أن يعوضوا ثديا - بثدي - وإن كان أقل نعومة - وأن يحتلبوا من بلاطي تونس وبجاية ما تعودوا احتلابه من بلاطات الأندلس احتلابا قضى على الحسناء. لقد حمل الأندلسيون في حقائبهم المرض الذي منه ماتت الأندلس، فزادوا إفريقية - في المستوى السياسي - مرضا على مرضها. كان ذلك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا انفجارا ديمغرافيا عظيما، ومدا اقتصاديا عارما، وانطلاقة نهضة عمت جميع الميادين، وفي الوقت الذي كان فيه ملوك إسبانيا يضعون الخطط لإعادة المغرب العربي أيضا إلى حضيرة النصرانية.... وأقل ما يمكن أن يقال في شأن الجالية الأندلسية في هذا الصدد هو أنها لم تكن عاملا إيجابيا» (39).

- **في الميدان الفكري** : لا نبالغ إذا قلنا إن التأثير الأندلسي كان أبلغ في الميدان الفكري منه في الميدان السياسي، بحيث أن المد الحضاري الأندلسي كان من القوة بحيث أدخل الكثير من التغيير على الساحة الفكرية بتونس.

التعليم الأولي : نلاحظ أن الأندلسيين احتكروه وأدخلوا إليه أساليب تربوية أندلسية، وهذا ما يوضحه ابن خلدون قائلا : «وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم، وتلقين بعض مسائلها. إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته، أكثر مما سواه. وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة، فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك» [40]، وقد أدى ذلك إلى اضمحلال الخط الإفريقي وتعويضه بالخط الأندلسي، إذ يذكر ابن خلدون في هذا الصدد : «. . . ونسي خطة القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما، وصارت خطوط أهل إفريقيا كلها على الرسم الأندلسي بتونس، وما إليها، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس.

وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم وإنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس، فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس» [41]. إذن فقد عم هذا التأثير مختلف أرجاء البلاد التونسية باستثناء المناطق النائية كبلاد الجريد التي أشار إليها ابن خلدون، وهي بلاد لم تكن تستهوي أندلسي سواحل بلنسية ومرسية وضعاف الوادي الكبير.

التعليم العالي : كان التعليم العالي يشهد منافسة بين الأندلسيين وأهل البلاد، نظرا لأن التعليم في هذا المستوى يؤدي في كثير من الأحيان إلى الجاه والنفوذ والثراء. غير أن الحفصيين كانوا يميلون على العموم إلى المدرسين الأندلسيين لشهرتهم وكفاءتهم ولاستغلالهم أيضا في الدعاية لهم، هذا ما وقع ـ مثلا ـ لأبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس الذي كان ظاهري المذهب وعلما من أعلام الحديث، إذ انه لما قدم تونس في جالية اشبيلية، بعدما مكث زمنا ببجاية، استقبله المستنصر أحسن استقبال «وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة، عند جامع الهواء، التي أسستها أم الخلائف» [42]، وليس من شك في أن ابن سيد الناس هذا لم يكن، من بين علماء الأندلس الوحيد الذي نال هذه الحظوة وارتقى إلى هذه الوظيفة فإننا نعلم مثلا أنه قد انتظم في سلك المدرسين أندلسي آخر، هو «الفقيه الحافظ المتقن التاريخي المدرس المحدث أبو العباس أحمد بن محمد القريشي

الغـرنـاطي»، الـذي بعدما نزل بجاية، و«انفصل إلى المغرب»، «رجع إلى حاضرة أفريقية ولم يزل عاكفا على التدريس والتذكير، مشتغلا بعلم الرواية والتفسير إلى أن مات ـ رحمه الله» (43).

لكن المـلاحـظة الأسـاسية هنا أيضا أنه مهما قيل عن المدارس التي أنشأها الحفصيون فإن شأوها لم يبلغ ما بلغ عند المرينيين، وقد فسر الأستاذ الطالبي (44) هذا الفـرق بكون إقبال الطلبة عليها كان محدودا بالرغم مما كان يبذل إليهم من منح أحيانا لجلبهم إليها (45). لكن لم يوضح لماذا كان إقبال الطلبة محدودا ؟ إلا يمكن أن يكون السبب هو النفوذ الذي كان يتمتع به الأندلسيون ونظرتهم الخاصة إلى أبناء البلد، في حين أنه بالمغرب كانت المدارس المرينية مسيرة من طرف أبناء البلد وبالتالي لم تكن أية عقدة تفصل الطلبة عن أساتذتهم.

ومهما يكن فإن عدد علماء الأندلس بتونس كان مرتفعا واشعاعهم كان قويا، فلقد أحصى محمد الحبيب بن الخوجة، اعتمادا بالخصوص على رحلة ابن رشيد، ما لا يقل عن 35 عالما أندلسيا (46) كلهم دخلوا إفريقية في القرن 13/7، وأحصى الأستاذ الطالبي (47) في **عنوان الدراية** للغبريني (توفي 1304/704) في نفس الفترة الزمنية، 33 من مشايخ الأندلس ممن مر ببجاية أو استقر بها نهائيا.

ميادين التأثير :

النحو : احتل فيه الأندلسيون مكان الصدارة، وقد بزغ فيه على الخصوص :

*) أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي، المعروف بابن عصفور وهو اشبيلي (ولد سنة 1201/597 وتوفي بتونس سنة 1270/669)، ومن تآليفه : **المغرب والممتع في الاشتقاق**، **والمغرب في النحو** (48).

*) أبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلي (613 ـ 1216/691 ـ 1282)، أخذ عن السلوبين والأعلم البطليوسي وابن لب، وترك تآليف كثيرة من بينها وشي الحلل الذي تعقبه حازم (49).

*) ومنهم الإمام الناقد واللغوي الشاعر أبو الحسن حازم القرطاجني المولود سنة 1211/608 والمتوفى سنة 1285/684، صاحب **المقصورة والميمية النحوية** وكتاب **القوافي ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء** (50).

الأدب : انتقل إلى تونس في هذه الفترة جمع من مشاهير الأدباء والشعراء نذكر من بينهم على الخصوص :

*) أبو الحسن عيسى بن أبي محمد بن الحسين ابن دسيم البلنسي المولود سنة 1218/615 والمتوفى بتونس سنة 1283/692 (51) .

*) وأبو الحسن علي بن أبي القاسم بن رزين المولد بمرسية ، انتقل أولا إلى سبتة ثم إجلي بجاية ومنها إلى تونس وأخذ عن ابن نبيل وابن أبي السداد .

*) ومنهم أبو العباس أحمد بن القاسم بن القصير الاشبيلي ، وهو المعروف بصلاته مع رجال البلاط الحفصي وبالخصوص مع الوزير ابن أبي الحسين العنسي . له في المستنصر ورجال دولته المدائح الكثيرة (52) .

*) ومنهم الشيخ الكاتب الأديب أبو إسحاق بن حبي (54) .

*) ومنهم أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (610/685 ـ 1213/1286) ، صاحب **القدح ، والمغرب في حلي المغرب ، والغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة** (55) .

*) وأبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي (توفي بتونس سنةلله 653 هـ / 1255 م) ، صنف بتونس 646/1248 كتاب الحماسة (56) .

*) كما نبع بتونس في القرن 9/15 ، شاعران أندلسيان ، وهما محمد الخير، الذي قدم من مالقة سنة 864/1459 ـ 1460 ، ومنافسه أحمد بن محمد الخلوف (توفي 899/1494) (57) .

غير أن للأستاذ الطالبي رأي في الموضوع إذ يقول : «غير أنه ينبغي أن نؤكد أن هؤلاء الأدباء والشعراء ، على نبوغهم في زمانهم وحذقهم في محسنات البديع ، لم يقدموا في الحقيقة بجديد ، ولم يحدثوا في البلاد نهضة أدبية . ذلك أن الحضارة الإسلامية ـ العربية قد انزلقت في منحدر الانحطاط في كامل الاصقاع ، وفقدت روح الابتكار، وغادرها الالهام ، وسلبت القوة ، فأصبح القوم يتبارون في تأليف باقات لطيفة من أزهار يقطفونها من حدائق الأقدمين ، ويصوغون تحفا أنيقة رشيقة من مختار الألفاظ غير أنها تحف ترن بالفراغ ، وزاهية بالأملاق ، لالب وراءها ولا طائل ، كان الأدب في الرسائل المنمقة ، وما يتخللها من أشعار تذوب رقة ولطفا ، أدب انحطاط بأتم معنى الكلمة ، فيه عذوبة الأحلام ، وتعاريج الأوهام ، وجنة المخدرات . أدب خاصة ترفل في دمقس الألفاظ وحريرها ، أو برجوازية أنيقة

بأسلوب حياتها هزيلة بنشاطها، تعيش في جميع الميادين ـ الاقتصادية منها والفكرية ـ على رصيد الماضي، فلا تخلق، ولا تبتكر، ولا تغامر، ولا تغزو أسواقا جديدة لبضاعة تلبي الرغبات الحيوية، وتغذي النشاط، وتفرض نفسها كما وكيفا. كان الأدب مرآة صادقة يعكس عقلية برجوازية انزوت في دفاء تراثها فلا تنشط إلا بمقدار» [58] .

العلوم البحتة والتجريبية :

الطب : سبق أن رأينا أن ميدان الطب احتكره الأندلسيون بالمغرب، والأمر لا يختلف هنا بالنسبة لتونس، فقد تولى زمام قيادة هذا العلم جملة من أطباء الأندلس، ويكفي أن نلقي مثلا نظرة على **عنوان الدراية** لنتأكد من ذلك، ومن بين هؤلاء نذكر :

*) أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن اندراس (ت 674/1372 ـ 1373)، يقول عنه الغبريني : «. . . من أهل مرسيه ورد على بجاية في عشر الستين وستمائة مستوطنا، وتبسط للطب طبيبا باحثا جيدا. . . وكان ـ رحمه الله ـ متوليا لطب الولاة ببجاية هو وبعض خواص الأطباء بها، ورحل إلى حاضرة إفريقية باستدعاء أمير المؤمنين المستنصر له بعد أن سمع به وعرف خبره. فحضر مجلسه وسئل فأجاب ووافق طريق الصواب، وانتظم في سلك أطبائه، وكان من جملة جلسائه. . . » [59] . وانجب ابن اندراس ابنا، هو أبو يعقوب يوسف (ت بتونس 739/1329)، فبرع أيضا في الطب.

*) أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة [60] .

*) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن عبد الله الخزرجي الشاطبي (ت 631/1252)، تولى غير مرة القضاء إذ يقول الغبريني في هذا الصدد : «. . . تخطط بخطة القضاء في غير ما بلد، وكان أبوه قاضيا وبيتهم بيت علم وقضاء وتوارث سؤدد، ثم قضى ببجاية فكان في قضائه على سنن الفضلاء وطريق الأولياء والعقلاء. . . ثم انصرف عن بجاية فولي قضاء حاضرة إفريقية، فكان له فيها الظهور في أحكامه. . . » [61] . ويمكن أن نذكر أيضا محمد بن عيشون، طبيب ابن اللحياني، وأبا الحجاج يوسف، وكلاهما أندلسيان.

علم النبات :

نذكر أبا العباس أحمد بن مفرج المعروف بابن الرومية المولود سنة 567/1171، والذي أقام بعد إقامته مدة بتونس عاد إلى اشبيلية ومات بها سنة 637/1239 [63].

وابن البيطار الذي ورد على تونس من مالقة، له مؤلفات عديدة، وتابع طريقه نحو الشرق فتوفي بدمشق سنة 646/1248 [64].

الرياضيات :

أهم رياضي أندلسي انتقل إلى تونس في هذه الفترة هو القلصادي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي (توفي بناحية إفريقية سنة 891/1486) [65] بلغت مؤلفاته في الحساب 13 كتابا [66]، ألف البعض منها في تونس مثل : «**كشف الجلباب عن علم الحساب**» [67]، و**القانون في الحساب**» (كراسة) وشرحه وكتابه «**الكليات في الفرائض**» وشرحه في نحو أربعة كراريس [68]. وقد كان آخر من تقدم بهذا العلم بالغرب [69] الإسلامي في العصر الوسيط.

العلوم الشرعية :

برع الأندلسيون كما هو معلوم أيضا في العلوم الشرعية، وقد كانت ضرورية بالنسبة لهم نظرا للفزع الدائم الذي كان يلازمهم خوفا من ضياع هذا العلوم نتيجة التكالب المسيحي على الأراضي الإسلامية. لقد كان العجز المادي واضحا فكان على علماء الشريعة إذن أن يحثوا الناس على الاهتمام بأمور دينهم، خاصة وأنهم كانوا يربطون جدليا بين ضياع العلوم الشرعية وضياع الأندلس، أي أن المسلمين فقدوا الأندلس حيثما أصبحوا يجهلون تطبيق هذه العلوم، فلا غرابة إذن أن تأتي هذه الفئة من الجالية الأندلسية وهي تحمل معها أفكار محددة لئلا تتكرر مأساة الأندلس بتونس.

وثمة ملاحظة أهم وهي أن أفراد هذه الفئة من الجالية الأندلسية سوف تحاول دائما أن تظهر بمظهر الورع والصلاح، وذلك حتى تلغي الصورة التي ألفها سكان

دائما أن تظهر بمظهر الورع والصلاح، وذلك حتى تلغي الصورة التي ألفها سكان إفريقية عن شعراء وأدباء الأندلس وأنهم السبب في ضياعها، أي أنهم يريدون أن يثبتوا أن هناك أصواتا كانت تنادي بضرورة الاتحاد والجهاد لاسترجاع الثغور، فلا غرابة إذن أن نجد عددا ممن تولوا منصب القضاء ـ مثلا ـ ذهبوا إلى حد التطبيق الصارم لقواعد الشريعة الاسلامية، مما جعل العامة تتعلق بهم وتضرب بهم المثل في إخلاصهم.

هناك ملاحظة أخرى نعزز بها ما أوردنا سابقا وهي أن المصادر المعاصرة كثيرا ما تحلي أفراد هذه الفئة بكلمة «الصوفي الصالح» مما يدعونا للتساؤل عن سبب تكرار هذه الصورة بالنسبة لهذه الفئة؟ يرجع ذلك في نظرنا إلى المركبات التي حملوها معهم من الأندلس والتي أثبت ـ بالنسبة لهم ـ ألا جدوى في المغامرة في الحياة العملية وأن من الأفضل العزوف عن كل ما من شأنه يجعلها وجها لوجه مع واقع هذه الحياة خوفا من تكرار التجربة. وهكذا كما قلنا ذلك سابقا عكس الفئة الأولى تماما، فقد كانت تتكون من كتاب وأدباء وشعراء ممن سخروا كل إمكانياتهم لتكرار التجربة بتونس بحماس كبير مما أدى بها إلى الدخول في صراع مرير مع الأهالي انتهى في أحيان كثيرة بنكبات ومآسي على الصعيدين السياسي والاجتماعي. وعلى كل فسنعرض لجملة من هؤلاء دون الدخول في التفاصيل، إذ المقصود فقط هو إعطاء نماذج لأفراد هذه الفئة.

فمن القراء نذكر:

*) أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عقاب الجذامي، وهو من أهل شاطبة، ولد بها سنة 613/1216. وقد أخذ عن جماعة من العلماء قبل وفادته على تونس لقيهم على التوالي بشاطبة وغرناطة ومراكش [70].

*) أبو العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي الفتح الانصاري البطرني: كان مقرئا للقرآن واسع الرواية [71].

*) أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن لب الانصاري المرسي [72].

*) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان الانصاري الأوسي الشاطبي، ولد سنة 635/1237 أخذ عن كثير من شيوخ الأندلس والمغرب.

ومن الرواة المحدثين:

*) أبو الكرم محمد بن إبراهيم بن محمد الحميري، ولد سنة 618 هـ ببلنسية، أخذ عن ابن محرز وعن الحافظ الناقد ابن عسكر المالقي [73].

*) أبو التقى صالح بن محمد بن سليمان البلنسي عرف بابن شوشن وأصله من طرطوشة [74].

*) أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسي، قال عنه الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة: «الشيخ الصوفي الزاهد... أحد الصلحاء الفضلاء الأوليا الاتقياء شاع بين الناس فضله وعرفوا قدره بالرغم عن خموله وتواضعه» [75] وهو من أهل بلنسة كان مولده بها عام 1213/610، أخذ عن الكلاعي وغيره من علماء المشرق والمغرب.

*) أبو عبد الحق ابن بربطلة الأزدي المولود بمرسية حوالي 1184/580 والمتوفى بتونس سنة 1262/661. أخذ عن ابن المرأة وابن عات والكلاعي وهو الذي ترأس الوفد الملكي الذي قدم إلى تونس سنة 657ـ1258 مبايعا المستنصر أمير المؤمنين إذ يقول ابن القنفذ في هذا الصدد: «وفي هذه السنة (657) وصلت بيعة أهل مكة للمستنصر على يدي الشيخ أبي محمد عبد الحق بن سبعين، وكان الواصل بها المحدث الراوية أبو محمد بن برطلة الأزدي الاشبيلي، وكان في ذلك هنالك كبير» [76].

ومن الحفاظ الفقهاء نذكر.

*) أبو عبد الله ابن الآبار المار الذكر

*) أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن جيش اللخمي، المولود بمرسية سنة 1218/615 والمتوفى بتونس 1268/685 أخذ عن ابن الولي والرف وابن محرز والوزير سهل بن مالك وابن السفاد وغيرهم ولي قضاء مرسية، وتنقل بين كثير من مدن الأندلس والمغرب هاجر أولا إلى بجاية ومنها انتقل إلى تونس، وولي بها القضاء [77].

*) أبو البركات موسى بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد القمجي ولد بمرسية سنة 1213/610، وتوفي بتونس سنة 1285/684 [78].

*) أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن ابن الغماز البلنسي الخزرجي، ولد ببلنسية سنة 1212/609 وتوفي بتونس سنة 1294/693، أخذ عن ابن محرز وابن عميرة والكلاعي وابن السراج وغيرهم. وقد اتخذ لنفسه في بيته مجلسا للتحديث والاقراء فأخذ عنه الكثير منهم: أبو الحسن التيجاني والغبريني وابن جابر الوادي

آشي، وكان مقربا من السلطان إذ قال تعنه ابن القنفذ في هذا الصدد : « . . وكان ابن الغماز من سعداء الفقهاء، على أنه لم يقتصر به المستنصر على القضاء بل ناط به أشغالا سلطانية، وكان ينظر له في كثير من الأمور» [79].

ومن الفقهاء المحدثين نذكر :

*) أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الاشبيلي المعروف بابن سيد الناس المتوفى بتونس سنة 657/659 ـ 1258/1261 . أخذ عنه ابن خروف وابن جبير وغيرهما من العلماء وعنه ابن الزبير وابن بكر، وكان أيضا من جلساء المستنصر، إذ يقول ابن القنفذ في هذا الصدد : «وفي هذه السنة توفي الفقيه المحدث أبو بكر بن سيد الناس، وكان المستنصر رتب لمجالسته أعلاما من الفقهاء والأدباء كالمحدث الحافظ أبو بكر بن سيد الناس المذكور ـ رحمه الله . . . » [80] .

* * *

هذه بصفة عامة أهم التأثيرات التي أحدثها الأندلسيون في الميدان الفكري والعلمي، وهي تأثيرات كانت تزداد قوة أو ضعفا حسب الظرفية السائدة آنذاك، تأثيرات حاول بعض الدارسين أن يوازن بين سلبياتها وإيجابياتها، فغلب بعضهم الأولى على الثانية، وغلب البعض الآخر الثانية على الأولى. فالذين قالوا بالأولى اعتمدوا بالخصوص على المكونات النفسية والعقلية التي أقر بها الأندلسيون (الانهزامية والانتهازية)، والذين قالوا بالثانية أخذوا بالجانب الامع من الوجود الأندلسي بالمغرب العربي ألا وهو ميدان الفنون بمعناه الواسع، إذ يعتمدون على استمرارية التأثر بالنسبة لهذا الميدان سواء في البناء أو اللباس أو الموسيقى.

فبالنسبة للموسيقى ـ مثلا ـ نلاحظ أن التأثير كان أعمق وأخلد مما يدعو للبحث عن مراحل هذا التأثير.

فممن لهم اليد الطولى في إدخال الموسيقى الأندلسية إلى تونس أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاشبيلي (460 ـ 529/1067 ـ 1134)، ذلك أنه هاجر اشبيلية حوالي سنة 489/1096 ، أي بعد سقوط طليطلة، واتجه أولا نحو الاسكندرية قبل أن يستقر بالمهدية، حيث لقي في البلاط الزيري أحسن قبول، وبث الألحان

الأنـدلسية ويروى لنا ذلك المقري فيكتب : «وكان أمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين. وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته. وكان يكنى بالأديب الحكيم وهو الذي لحن الأغاني الافريقية قال ابن سعيد وإليه نسب إلى الآن» (81). وقد لعب أبو الصلت بإفريقية دورا شبيها بذاك الذي لعبه من قبل زرياب بالأندلس (82).

وعندما قدمت أفواج اللاجئين هيأت للألحان الأندلسية قاعدة أوسع، فخرجت بها من البلاط إلى بيوتات الخواص وإلى الفئات البورجوازية عامة، ذلك أن هذه الفئات البورجوازية الافريقية كانت شديدة الاعجاب بالحضارة الأندلسية فكانت تقلدها في الأدب والشعر، فزادت إلى ذلك الموسيقى لما تهيأت لها الفرص على أوسع نطاق (83).

وشاع الفن الموسيقي الأندلسي خاصة في المدن التي استقر بها الأندلسيون استقرارا كثيفا، وجل تلك المدن على السواحل. ومن جملة هذه المدن بجاية التي كانت المرحلة الأولى التي نزل بها الأندلسيون اللاجئون إلى إفريقية، وكثير منهم ألقى بها عصا الترحال واستوطنها نهائيا كما يتضح ذلك بصفة جلية من خلال تصفح عنوان الدراية للغبريني. ونحن لا نشك في أن استيطان الأندلسيين الكثيف ببجاية هو الذي جعل منها مدينة تشبه اشبيلية في شغفها بالموسيقى وانصرافها الى الطرب، فإن الحسن الوزان الذي زار إفريقية في الربع الأول من القرن السادس عشر يصف أهلها هكذا : «والبجائيون أناس طيبون ميالون إلى المرح والموسيقى والرقص، لا سيما منهم الأمراء الذين لم يشهروا الحرب قط على أحد» (84)، ويقول في أهل دلس : «وهؤلاء السكان ذوو بشاشة ومرح، يحسنون تقريبا كلهم العزف على العود والقيثار» (85). فكل هذه الصفات تناسب تماما الأندلسيين ومن تأثر بعاداتهم وأذواقهم من أهل المغرب.

إن هذه الموسيقى التي طرقت باب إفريقية على يد أبي الصلت (توفي 529/1134)، وذاعت في أيام ابن سعيد (610 ـ 685/1213 ـ 1286)، وعمت شيئا فشيئا المدن لما وفر لها اللاجئون الأندلسيون من أسباب الانتشار هي ما نسميه اليوم بالمالوف.

في الميدان الاجتماعي :

إن الجالية الأندلسية بتونس ـ كمثيلتها بالمغرب ـ كانت تشعر بوجود خصائص معينة حضارية واجتماعية تفصلها عن بقية السكان مما حال دون انصهارها في مجتمع الافريقي . لقد كانوا يشعرون أنهم في بلد انتقلوا إليه اضطرارا لا اختيارا ، وأنهم في مجتمع أقل منهم تحضرا ، وأنهم يجب أن يحصلوا فيه على الرتب العليا في سلمه ، وهذا ما يفسر لنا تهافتهم على المناصب وبقاءهم أقلية متميزة لها سماتها الخاصة ، لقد عرفت تونس ـ كباقي البلدان الاسلامية ـ أقليات ، لكن الأقلية الأندلسية كان لتصرفها طابع خاص يميزها كلية عن الأقليات الأخرى ، وذلك بفعل المركبات النفيسة والحضارية التي حملها معهم الأندلسيون لقد احتفظ هؤلاء بذاتيتهم بعد مرور عشرات السنين من هجرتهم ، فبقوا أندلسيين في كل شيء ، وليس فقط في أسمائهم التي استمر تداولها إلى يومنا هذا شعوريا ولا شعوريا .

ونستنتج كل ذلك بسهولة مما أورده المؤرخون المعاصرون ، فنذكر ـ مثلا ـ أن عبد الباسط بن خليل أورد في كتابه **الباسم في حوادث العمر والتراجم** إشارات عديدة إلى ذلك ، فلقد نزل هذا الرحالة المصري بتونس في 22 ذو القعدة 866 / 18 غشت 1462 ، أي بعد قرنين من قدوم جالية شرق الأندلس ثم غربيها ، وقبل هجرة جالية غرناطة التي لم تسقط بعد . وبالرغم من مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن ، التي تعاقبت خلالها ثمانية أجيال ، فإنه قد أتيحت لعبد الباسط الفرصة كي يلاحظ أن العنصر الأندلسي قد احتفظ بذاتيته وكل مميزاته بإفريقيية وسجل لنا تلك الملاحظات في الروض الباسم . أتيحت له هذه الفرصة بمناسبة حفل أقامه يوم الأحد 27 ربيع الأول 867 / 20 دجنبر 1462 التاجر المعظم ، الخواجا المكرم ، الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي ، نزيل تونس وكبير التجار بها» [86] . ولا شك ـ كما يفهم من السياق وتاريخ الحفل ـ أن هذا التاجر أقام «الضيافة» بمناسبة رجوع الحجيج من مكة ، وأنه كان له بينهم عدد كبير من الأصدقاء ، ولا شك أيضا أنه كان ذا ثروة طائلة ، ومنزلة اجتماعية رفيعة ، إذ قد أقام حفله بحدائق «رأس الطابية من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرحهم» [87] . ولا حاجة إلى التأكيد على أن مثل هذا لا يتأتى إلا لاخص الخواص ، مما فيه دلالة أخرى على المكانة التي استطاعة أن تحرز عليها الجالية الأندلسية في المجتمع الافريقي . ولقد استدعى الحاج أبو القاسم البنيولي إلى حفله الذي أقامه بمنتزه الحفصيين ـ بينما كان السلطان

المتوكل على الله عثمان (839 ـ 893/1435 ـ 1488) قد أشرف على العودة إلى تونس قادما من حرب تلمسان ـ «جماعة من أعيان التجار من أصحابه، والحجاج منهم، من أهل الأندلس وغيرهم» [88]. كان إذن هناك «أهل الأندلس»، معروفون بسماهم، وهناك غيرهم. ولقد أعجب عبد الباسط خاصة بأهل الأندلس، أعجب بظرفهم وذكائهم، مما دعاه أن يعد اليوم الذي قضاه معهم «يوما معدودا من الأعمار، سالما من الأغيار، اجتمع فيه عدة من ظرفاء أهل الأندلس وأعيانها، من طلبة علم وتجار، كلهم أهل ذكاء» [89]. ويفهم من عبارة عبد الباسط هذه أن أهل الأندلس كانوا يمثلون أغلبية المدعوين إلى الحفل، مما يؤكد ما قدمناه من أن الجالية الأندلسية بقيت، بعد تعاقب ثمانية أجيال، عائلة كبرى لم تعرف صلات الرحم التي تربط بين أفرادها الفتور. ويظهر هذا (الاعتزاز الأندلسي) أيضا في أسلوب الحفل الذي أقامه الحاج أبو القاسم البنيولي لأصدقائه. ذلك أن هذا الحفل كان «أندلسيا». كان أندلسيا في اختيار حديقة «يجول فيها الماء جولانا غريبا»، ونحن نعلم مدى شغف أهل الأندلس بالطبيعة، وبالمياه الجارية، وبموسيقى النسيم. وكان الحفلل أيضا أندلسيا في المآكل التي قدمت للمدعوين. فعبد الباسط يروي أنهم «هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له المجبنة من مآكل الأندلس. وصفته جبن طرى يدعك بالأيدي حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد أو اغلظ قواما منه بيسير، ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة وشباقة، ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لها، ثم يبسط قليلا، ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن، فيقلى، ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعما ومعه اليسير من الكمون، وعمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولى عمله بعض الجماعة من ظرفائهم وحيث كان القوم (ظرفاء أذكياء) لم يخل حفلهم من أستاذ للشعر، لاسيما وقد حضره شاعران أندلسيان، وهما محمد الخير المالقي وأحمد الخلوف.

في الميدان الاقتصادي:

تعمدنا أن نترك الميدان الاقتصادي إلى الأخير، لا لأن التأثير الأندلسي كان فيه ضعيفا، ولكن فقط لأن الوثائق تعوزنا كثيرا في هذا الميدان، فالمصادر لا تثير إلا لماما لهذا التأثير، وكما قال الأستاذ الطالبي: «فنحن نتوجس هذا التأثر من دون أن تستطيع أن نلمس لمسا حسيا ومفصلا مقداره ووزنه، أو تحدد بدقة مواطنه» [90]. وسنحاول أن نبدي بعض الملاحظات علنا نستطيع أن نأخذ صورة تقريبية عن هذا التأثير الاقتصادي.

الملاحظة الأولى : كانت تونس في هذه الفترة تعرف فراغا ديمغرافيا، ولاشك أن قدوم أيدي عاملة جديدة ساهم في إعادة التوازن إلى اقتصاد المنطقة، نعم لا نعرف حجم هذا الفراغ الديمغرافي ولا الميادين التي تأثر بها، كما أننا لا نعرف حجم الهجرة الأندلسية ولا نوعية الأيدي العاملة التي أتت مع المهاجرين، ولا الامكانات التي أتوا بها معهم، لكننا مع ذلك تمشيا مع منطق الأشياء نفترض مساهمة هؤلاء في إعادة التوازن خاصة وأن التجربة الموالية والتي ستدرس بغزارة من طرف الباحثين تؤيد وجهة نظرنا.

الملاحظة الثانية : رأينا أن فئة من هؤلاء المهاجرين كانت تبحث عن سبل الارتزاق اما بالانخراط في صفوف الجيش أو في خدمة البلاط أو الاشتغال بالتعليم فأين ذهبت باقي الفئات، خاصة وأننا نعلم مدى براعة الأندلسيين في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة، وبعد أن أثبتت الدراسات التي أنجزت حول الموضوع ما ألمحنا إليه.

لقد ثبت أن عددا من الأندلسيين استقروا بالمناطق الشمالية الساحلية الآمنة حيث تعدد المجاري المائية، الا نفترض أن هؤلاء استقروا أساسا قرب المناطق الزراعية لأجل استغلال خبرتهم في الزراعة، واستقرارهم مدة طويلة بالمنطقة يدل على تقبل السكان لهم. كما ثبت أن عددا مهما استقر منهم بالمدن الكبرى، ببجاية وتونس على الخصوص ـ ألا نفترض أيضا أن هؤلاء اشتغلوا بعدد من الصناعات وطوروها خاصة وأن الأفارقة كانت تستهويهم منتجات الحضارة الأندلسية.

الملاحظة الثالثة : نصل أخيرا إلى الميدان الذي بدأت تسعفنا فيه ـ إلى حد ما ـ المصادر، ألا وهو ميدان التجارة، وربما برع فيه الأندلسيون أكثر من غيرهم، خاصة التجارة الخارجية إذ ان خبرتهم بالبلاد المسيحية كانت تؤهلهم لأن يلعبوا الدور الحاسم فيها، وقد أوردنا ـ سابقا ـ نصا لعبد الباسط بن خليل يشير فيه إلى الثروة الطائلة التي حصل عليها الحاج أبو القاسم، البنيولي وإلى وصوله إلى رتبة كرتبة «كبير التجار» مما يدل على أن ميدان التجارة هيمن، عليه الأندلسيون. وخاصة وأن هؤلاء كانوا «منظمين» في إطار (جماعات)، ففي إشارة للغبريني يوضح فيها أن أبا بكر محمد بن محرز ((ت 655/1257)) :

«كان على رأس الجماعة الأندلسية ببجاية» (91)، ولا شك أن نجاحها يرجع إلى تنظيماتها، وهي تنظيمات سبق أن تعودوا عليها وهم بالأندلس.



هذه بصفة عامة أهم الميادين التي برز فيها التأثير الأندلسي، وهي ميادين تنوع فيها حجم هذا التأثير، فقد بدا واضحا في بعضها وغامضا في آخرها. لكن على العموم نستطيع أن تسجل في النهاية - نهاية هذا البحث عن الجالية الأندلسية بتونس - أن تأثيرها كان قويا، وأنه لا يقل عن تأثير الهجرة الثانية التي سوف تأتي بعد الطرد النهائي سنة 1609 - أي الهجرة الموريسكية - بل يتجاوزه في ميداني السياسة والثقافة. فالدور الذي لعبه أندلسيو هذه الفترة يفوق بكثير الدور الذي سيلعبه موريسكيو القرن السابع عشر، لسبب وحيد وأساسي وهو أن هؤلاء كانوا يجهلون العربية - لغة التخاطب الثقافي والسياسي - وهو جهل يتجاوز الحدود اللغوية، إلى جهل بالحضارة العربية الاسلامية ككل، وذلك بفعل الممارسات الطويلة والعنيفة التي مورست عليهم وهم بإسبانيا، والتي كانت ترمي أساسا إلى إدماجهم في المجتمع الاسباهي بسيماته الأوروبية المسيحية

هذا ما يتعلق إذن بالتجربة الأندلسية بتونس، وقد آثرنا أن نقدمها على التجربة الأندلسية بالجزائر نظرا لأهمية الأولى وغموض الثانية فالتجربة الأندلسية بالجزائر في العصر الوسيط تبدو بسيطة إذا ما قورنت بمثيلاتها في كل من المغرب وتونس، ولكن مع ذلك سنحاول أن نعطي حولها بعض الايضاحات حتى نستطيع أن نصل إلى الأسباب التي جعلت التجربة الأندلسية بالجزائر بهذا الشكل.

الجالية الأندلسية بالجزائر:

إن الوجود الأندلسي بالجزائر في العصر الوسيط يبدو ضعيفا إذاما قورن بمثيله في كل من المغرب وتونس، فالتعقيدات التي صاحبت الوجود الأندلسي في القطرين الأخيرين تكاد تختفي هنا تماما، إذ ان الجزائر في الحقيقة في هذه الفترة لم تكن إلا ملجأ لمن فشل في إحدا القطرين، أو كمحطة انتقال من قطر لآخر (92). ولعل ذلك يرجع أساسا إلى أن الامارة الزيانية نفسها لم تستطع أن توفر لنفسها المجال الجغرافي

الضروري لحمايتها، إذ أن جزءا كبيرا من الشرق الجزائري (قسطنطينة، وعنابة، وبجاية، وبسكرة، وتقرت) كان تحت نفوذ الحفصيين، واكتفت هي بالجزء بالغربي من الجزائر متخذة كقاعدة لها تلمسان، في حين الوسط الجزائري منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين، مما أهله لأن يكون منطقة صراع دائم بين القوتين، خاصة بعد ظهور إمارات محلية صغيرة [93]. ولم يكن التنافس مقتصرا على الزيانيين والحفصيين، بل تدخل المرينيون في اللعبة أيضا، تارة ضد الزيانيين المجاورين، وتارة ضد الحفصيين فقد وصلت جيوش المرينيين - كما هو معلوم - إلى تونس والزاب وقسنطينة، كما وصلت جيوش الحفصيين إلى المدية ومليانة وتلمسان [94]. وقد لخص الحسن الوزان هذه الوضعية قائلا: «وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، - أي بني مرين - الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ اما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المغارات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس (يعني الحفصيين. . .» [95].

وقد كانه لكل ذلك نتائج خطيرة على جميع الأصعدة، فعلى الصعيد السياسي حرمت هذه الوضعية الامارة الزيانية من البروز كإمارة مستقرة تتمتع بالاحترام اللازم من طرف جيرانها (بفعل القضاء على عدد من أطر الدولة)، وعلى الصعيد البشري حرمت الامارة من قاعدتها البشرية الأساسية (بفعل هجرة السكان إلى القطرين المجاورين)، وعلى الصعيد اللاقتصادي أدت إلى الضعف المستمر للقاعدة الا قتصادية الهزيلة أصلا (بفعل الاعتماد على التجارة مع السودان، وعلى التجارة مع الخارج انطلاقا من وهران التي كانت تتمتع بشبه استقلال ذاتي)، فأمام هذه الصورة، إذن، كان الأندلسيون يفضلون الاستقرار بمكان يستطيعون فيه تحقيق طموحاتهم العلمية والسياسية والاقتصادية وسنحاول من خلال استعراضنا لفصول هذه الصورة أن نلقي بعض الضوء على هذا الوجود الأندلسي بالجزائر، آملين أن نلمس من خلال استعراضنا لبعض مراحل تطورها بعض الضوابط التي كانت تتحكم في سلوك الأندلسيين بهذه المنطقة.

أولا: الصورة إلى غاية القرن السابع الهجري:

تبدأ الصورة في الجزائر بنفس الصورة - تقريبا - التي ابتدأت بها في المغرب.

ذلك أن الخلافة الأموية بقرطبة كانت تبحث لها عن قاعدة (أندلسية) تقف بها في وجه المخططات الفاطمية، فكان أن وجدت وهران.

تجديد عمران مدينة وهران :

بإيعاز من قرطبة [96] جدد تعمير المدينة سنة 290 هـ/903 م [97] من طرف أندلسيين، هما : محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون، وجماعة من بحارة الأندلس الذين كانوا يترددون على مرسى وهران، وذلك بمساعدة العشائر المحلية القريبة منها كنفزة ومسفن من ازداجة [98].

وهناك ثلاثة عوامل - على الأقل - دفعت هذه الجالية الاندلسية لتجديد تعمير المدينة.

1 - **عامل طبيعي** : توفر المدينة على مرفأ طبيعي هام يجعل السفن بمنأى عن العواصف، ويساعد على رسوها، ويقول ابن حوقل في هذا الصدد :

«. . . ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثلا في جميع نواحي البربر - سوى مرسى موسى - فقد اكتنفته الجبال وله مدخل أمن . . . » [99].

- توفر المدينة على سهول واسعة خصبة مع توفر المياه العذبة بها، وذلك ما أكده الادريسي قائلا : «. . . وشرب أهلها من واد يجري إليها من البر، وعليه بساتين وجنات، وبها فواكه ممكنة، وأهلها في خصب، والعسل بها موجود. . . » [100].

2 - **عامل تجاري** : كانت الجالية الأندلسية ترمي بهذا العمل إلى ضمان منفذ تجاري للبضائع الأندلسية داخل القطر الجزائري والسودان، وكذلك تصدير البضائع الجزائرية والسودانية إلى الأندلس، يقول ابن حوقل في هذا الصدد : «. . . وهي (وهران) فرضة (محط السفن) الأندلس، إليها ترد السلع، وهنها يحملون الغلال. . . » [101]، ويقول الادريسي أيضا في هذا الصدد : «. . . وبها (وهران) أسواق مقدرة وصنائع كثيرة، وتجارة نافقة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس، وسعة البحر بينهما مجريان. . . ومراكب الأندلس إليها مختلفة . » [102].

3 ـ عامل سياسي : كانت الخلافة الأموية بالأندلس ترمي من وراء ذلك إلى جعلها قاعدة (أندلسية) ضد الفاطميين، وضد الثائرين عليها من أدارسة المغرب، وذلك عن طريق بث دعاتها من قبائل مغراوة القاطنة بالمنطقة. بعد هذا يحق لنا أن نتساءل : كيف كان سلوك الأندلسيين بالمنطقة ؟ نورد في البداية نصا للحسن الوزان، وهو يحمل أكثر من جواب على هذا التساؤل، إذ يقول : «. . . وكان الوهرانيون دائما أعداء لملك تلمسان، لم يقبلوا قط أي وال من ولاته، ماعدا أمينا للمال وقابضا يستلم مداخيل الميناء. وكانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المدنية والجنائية، كما كان التجار فيها مضى يجهزون على الدوام سفنا شراعية وأخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة، ويجتاحون سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة، حتى أصبحت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين» [103] .

نلاحظ أولا أن المؤلف لم ينص صراحة على أنهم أندلسيون، ولكن كل القرائن تدل بالفعل على أنهم أندلسيين، نذكر ـ مثلا ـ أن الجالية الأندلسية ظلت تتقاطر باستمرار على المنطقة ـ كما تؤكد ذلك المصادر التاريخية المعاصرة. ثم أن هذا التصرف من قبل الوهرانيين هو في الحقيقة موقف جديد، وهو يشبه إلى حد بعيد تصرف أندلسي المغرب، عندما استقروا بالرباط والقصبة، مما يجعلنا نميل إلى التأكيد بأنهم أندلسيين، أو على الأقل كانوا مسيرين من طرف أندلسيين، فهم في الحقيقة كونوا شبه جمهورية صغيرة مستقلة بالمنطقة تمارس جزءا كبيرا من سيادتها، فإذا كان الأمر كذلك فماذا يعني هذا ؟

يعني بوضوح أن الجالية الأندلسية هنا أيضا ـ كما رأينا ذلك بالنسبة للمغرب وتونس ـ كانت تشعر بشخصيتها المتميزة، وبالتالي فإن تصرفها كان ينبثق من واقعها بكل مكوناته النفسية والخلقية.

غير أن وهران لم تكن المدينة الوحيدة التي جدد تعميرها من طرف الأندلسيين، فقد شيدوا أيضا تنس سنة 262 هـ (875 ـ 876)، وأصبحت بذلك موطنا للأندلسيين من أهالي البيرة وتدمر [104] ، كما أعادوا الحياة إلى مرسى الدجاج [105] وبنى جدليداس القريبة من تنس [106] ، وإلى المسيلة في أوائل القرن الرابع الهجري [107] ، وإلى أرزيو التي اشتهرت بتجارها الأندلسيين الذين كانوا يصدرون ملح سباخها إلى الأندلس [108] .

هذا، إذن، ما يتعلق بالوجه الأول للصورة (الناحية السياسية والاقتصادية)، فكيف يبدو الوجه الثاني للصورة (الناحية الاجتماعية والعلمية) ؟ اجتماعيا : إذ ما حاولنا أن ننطلق من الصورة التي يرسمها لنا الوزان عن الحياة الاجتماعية في تلمسان ـ مثلا ـ وكيف يقارنها بمثيلتها بفاس فإننا لنا نجد عناء كبيرا في استجلاء معالمها إذ نجد بصفة عامة أن تلمسان ظلت محافظة على طابعها المغربي الأصيل، فهو يذكر ـ مثلا ـ في مجال العمران : «إن دور تلمسان أقل قمة بكثير من دور فاس» (109)، كما يذكر في مجال التصرفات المعاشية للسكان أن سكان تلمسان أكثر سخاء من سكان فاس (110). وواضح أن الفرق بين المدينتين يرجع بالأساس إلى الأساليب العمرانية والمعاشية الجديدة التي دخلت مع الأندلسيين إلى فاس (111).

علميا : لا تختلف الصورة هنا عن سابقتها أيضا، فقد ظلت الجزائر في هذه الفترة بمنأى عن المؤثرات الأندلسية التي رأيناها بالنسبة للمغرب وتونس، وظلت تتراجع باستمرار بفعل الأوضاع التي أوضحناها سابقا، ويكفي أن نلقي نظرة على ما كتبه العبدري ـ وقد زار المنطقة ـ لنتأكد من ذلك، فقد كتب عن تلمسان عند زيارته لها ما يأتي : «. . . وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره فازدحم على الثماد. . . وأما الفقه عندهم فطويل الاغتراب. . .» (112)، ويقول عن مليانة : «. . . وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية. . . (113)، ويذكر عن الجزائر : «. . . فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب. وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة. وأديب يؤنس غربة فكأني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض الأنوق» (114).

قد يتساءل البعض لماذا هذا الربط الجدلي بين انعدام المؤثرات الأندلسية وخمول النشاط العلمي بالمنطقة ؟

إن الباحث لا يزعم أبدا أن أي ازدهار علمي بالمنطقة كان رهينا بقدوم (العلم الأندلسي) إليها، لكن حاولنا أن نبين فقط أنه كان بالامكان أن تكون الصورة مغايرة تماما لما رأيناه في حالة ما إذا لو استقرت شخصيات علمية أندلسية بالمنطقة، فقد رأينا الدور العلمي الذي لعبه الأندلسيون في كل من المغرب وتونس.

* * *

كيف تتجلى الصورة في القرن الثامن الهجري :

الملاحظة الأساسية هنا أن صورة التأثير الأندلسي ستبدو واضحة أكثر نتيجة استقبال الإمارة الزيانية لجاليات أكثر من المرحلة السابقة بفعل سقوط عدد من الثغور الأندلسية واكتظاظ الساحتين المغربية والتونسية بالأندلسيين، فجدوا في البحث عن (أماكن شاغرة) لاشتثار مواهبهم السياسية والعلمية والاقتصادية في القطر المجاور.

وقد ذهب جورج مارسي G. Marçais [115] وراشيل أريي R. Arié [116] ـ وهما بصدد الحديث عنه التأثيرات الأندلسية المتسربة إلى مملكة بني عبد الواد ـ إلى أن بلاط تلمسان فقد ـ في بداية القرن الثالث عشر الميلادي تحت حكم أبي حمو موسى الأول ـ طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي.

وتطرقت الأستاذة راشيل أريي بعد ذلك إلى التأثير في المجال السياسي فأوضحت أن أربعة من وزراء الأمير الزياني كانوا من عائلة أندلسية (تقصد عائلة ابن الملاح من قرطبة)، وأن أكبر أمير زياني (أبو حمو موسى الثاني) كان ذا ثقافة أندلسية، وأنه كان يختار مساعديه الرئيسيين من بين أفراد حاشيته الأندلسية، وذكرت في هذا المجال يحي بن خلدون (من أصل اشبيلي)، ومحمد بن يوسف القيسي الأندلسي الذي خلد الأحداث الكبرى التي شهدها عصر الأمير الزياني. [117]

كما أن وليام مارسي W. Marçais لاحظ أن الاشعار المتداولة إلى بداية القرن العشرين من طرف فتيات تلمسان تذكرنا في نسقها بالزجل الأندلسي [118].

وقد تعمد الباحث إيراد أقوال الباحثين الفرنسيين حتى نتمكن من إبداء ملاحظاتنا حول ما أورداه.

الملاحظة الأولى : ذهبت الأستاذة آريي ـ ومعها مارسي ـ إلى أن بلاط تلمسان فقد طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي، ولكنها لم تذكر مجالات هذا التأثير، فهل يكفي أن يحيط الأمير الزياني نفسه بأربعة وزراء أندلسيين وبشاعر أندلسي لتنسب

إلى الجالية الأندلسية بالجزائر ما سمته (بالعمل التحضيري) L'action civilisatrice [119] ، معرضة عن الدور المغربي بتلمسان وما قام به ملوك بني مرين هناك.

الملاحظة الثانية : لقد حاول جورج مارسي أن يستخلص ـ من خلال اشعار معينة قال عنها أنها ذات نسق أندلسي ـ نتائج بعيدة قد تؤدي إلى عكس ما هدف إليه الباحث الفرنسي.

نعم ان الرواية الشفوية في هذا المجال أسلوب من الأساليب التي لا غنى للباحث عنها، لأنها تمكننا من تفسير بعض القضايا التي نعثر عليها في الوثائق المكتوبة. لكن يجب الحذر في مثل هذه الحالة قبل الأقدام على أي استنتاج من شأنه تشويه الحقائق، فالاشعار ـ مثلا ـ التي لاحظ الأستاذ مارسي أن فتيات تلمسان ينشدونها، اشعار مر عليها وقت طويل ولاشك أن هناك تغييرات قد دخلت عليها بفعل الاحتكاك بالمؤثرات الداخلية والخارجية والأمر يتطلب هنا تسجيل هذه الاشعار ومقارنتها بنصوص زجلية أندلسية مكتوبة حتى نتمكن من تحديد درجة التأثير. وحتى ان تأكدنا من حصول هذا التأثير، فإن هذا ـ في نظرنا ـ لا يعدو أن يكون جزئية صغيرة لا تسمح لنا بإصدار أي حكم عام من مظاهر حضارية أندلسية في كل من المغرب وتونس.

الملاحظة الثالثة : ان الأستاذة أربي لم تستطع أن تثبت وجود أقلية أندلسية متماسكة، لها تأثيرها السياسي والاقتصادي المعين. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن المصادر المعاصرة نفسها لم تشر إلى وجود مثل هذه الأقلية، ذلك أن أفراد هذه الجالية يتعاملون فرادى مع السلطة. ان التجربة الأندلسية بالجزائر لم تستطع أن تنفذ إلى الأعماق ـ كما وقع بالنسبة للمغرب وتونس ـ لأن أفراد هذه الأقلية لم يجدوا قاعدة أندلسية قوية يرتكزون عليها، فكان بذلك دورهم محدودا.

الجزائر من خلال الكتابات الأندلسية :

لعل الصورة تبدو جلية أكثر إذا ما حولنا تتبع ما كتبه الأندلسيون الذين زاروا المنطقة، وهم اما أوضحوا رأيهم في كتاباتهم أو أعرضوا عن ذلك. والتفسير في مثل

هذه الحالة الأخيرة يحتمل أكثر من معنى وسنختار ـ لإبراز نوعية هذه الكتابات ـ ثلاث شخصيات لا تخفى أهميتها.

أولا : إبراهيم بن الحاج النميري.

قام برحلة سنة 745 هـ / 1344 ـ 1355 وزار خلالها تلمسان ومليانة، [120] ولكنه لم يذكر أي شيء مهم عنهما فلم يذكر ـ مثلا ـ أنه التقى بشخصيات أندلسية معينة أو سمع بها، مما يدل أن المنطقة لم تكن ـ في رأيه ـ المكان الملائم له، في حين أفاض في الحديث عن أندلسي التقى به في منطقة صغيرة بالمغرب (أنفا)، إذ يقول: «الشيخ الفقيه الجليل الأستاذ المقرىء الناقد المتفنن النحوي العارف العدل الشهير أبو الحسن علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي الأموي المعروف بالرقاص.

أصل سلفه من لورقة وخرج منها جده إبراهيم بن علي لما استغلب عليها وكان سلفه يعرفون بها ببني الرامي واستقر جده إبراهيم المذكور بغرناطة وأقرأ بها القرآن وبها توفي، وانتقل ولده علي إلى فاس وبها توفي واستقر ولده إبراهيم بمالقة وبها ولد صاحبنا أبو الحسن بين عام خمسة وسبعمائة وعام عشرة...» [121]، إلى أن يقول: «كان لقائي بهذا الفاضل بمالقة وبها استفدت منه وعرفت معارفه وكان له اعتقاد في جانبي وذلك في عام ستة وثلاثين وسبعمائة ثم لقيته بسبتة عند قدوم مولانا عليها ثم لقيته بأنفا وهو اليوم يقرىء بمدرستها التي بناها مولانا ـ أيده الله ـ بالجامع الأعظم منها، ويقرى اليوم تفسير الكتاب العزيز والموطأ وابن الحاجب الفقهي والرسالة وتسهيل الفوائد والجمل والكراس الجزولي.

وقرأت عليه بأنفا الحديث...» [122].

وقد أتيحت له الفرصة ـ مرة ثانية ـ في إطار مهمة دبلوماسية لزيارة تلمسان سنة 763 هـ، وقد كان القصد من هذه المهمة طلب مديد المساعدة لمملكة غرناطة اثر اشتداد الضغط المسيحي عليها [123]. غير أن التشاؤم واليأس في الحقيقة كانا يسيطران عليه، إذ أنه كان ينوي فعلا الخروج من الأندلس، لكن ليس إلى تلمسان ولكن الى المغرب لخدمة بني مرين، فلا عجب أن يردد في آخر رحلته قول صاحبه إلى الحسن الرقاص وهو بأنفا :

إذا كنت في شبر من الأرض مكرما ونلت به عزا وكنت به صدرا
فعد عن المثوى وإن كان مسقطا فما أضيق المثوى وما أوسع الشبرا [124]

ثانيا : خالد بن عيسى البلوي

خرج البلوي من بلده قتورية بالأندلس سنة 736 هـ، وأول مدينة صادفته من مدن الجزائر هنين، ثم انتقل منها إلى تلمسان [125]، ولم يذكر من الأندلسيين إلا قبر أبي مدين الذي ذكر أنه زاره مرتين [126]، ووصل بعد ذلك إلى الجزائر التي مدح أهلها وطبيعتها. لكن البلوي يصل إلى ما كان يتخوف منه الأندلسيون بالجزائر فيذكر في هذا الصدد : «. . . فدخلنا في أمر عظيم، وطريق غير مستقيم، وعذاب يوم عظيم، نصعد على التهائم ونغور في النجود ونسلك كل مخدع لم يكن بالمألوف ولا بالمعهود. ولا كان مسلكا إلا للذئاب واللصوص والأسود، إلى شعراء بالخوف مشعرة، وأرض خالية مقفرة، وجبال منخرقة في الجو وعرة، تقطع الأسباب، وتخلع الألباب، وتذكر الصراط والميزان والحساب. . . فبقينا نكابد عظيم ذلك الأمر، ونسير ولا نفارق ساحل البحر. . .» [127]. وبطبيعة الحال لن يروق هذا الوصف للأندلسيين الذين كانوا يبحثون عن أماكن استقرار، مما يجعلنا نميل إلى أن الكتابات الأندلسية ـ في هذه الفترة الحاسمة ـ ساهمت في تهيئة الأندلسيين نفسيا لعدم الاستقرار المكثف بالمنطقة.

ثالثا : يحيى بن خلدون

تختلف شخصية يحيى بن خلدون عن سابقيه في شيئين :

أولا : تختلف عنهما في أن عائلة ابن خلدون استقرت بالمغرب العربي منذ وقت غير قصير، إذن فقد خبر أفرادها سلوك المغاربة تجاههم وبالتالي فإن الفروق بينهم وبين المغاربة لم تكن بنفس الحدة بالنسبة للأندلسيين الطارئين.

ثانيا : دخل يحيى بن خلدون ميدان التجربة العلمية فمارس مهام سياسة بالفعل، وكان له فيها تصرفات معينة، في حين أنه لم يدخل سابقاه في أي تجربة في هذا الميدان من شأنها أن تبرز لهم سلوكا معينا.

وسنحاول من خلال استعراضنا لمراحل هذه التجربة أن نبين ملامح الصورة التي رسمتها هذه الشخصية ومقارنتها بالصورة التي سبق أن رسمت من طرف أندلسيين سابقين في هذا الميدان كأخيه عبد الرحمان وابن الخطيب.

التجربة :

لقد شغل يحيى بن خلدون مناصب سياسية وإدارية في خدمة الأمير أبي عبد الله الحفصي، وفي خدمة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، ثم في بلاط الأمير عبد العزيز المريني، ثم عاد أخيرا إلى خدمة أبي حمو الثاني بتلمسان، حيث قتل في رمضان سنة 780 هـ وهو لا يزال في مقتبل عمره، وفي بداية مرحلة الانتاج الفكري.

وكانت السنوات السبع التي قضاها بتلمسان أزهى أيام هذه الفترة الهامة من حياته، فكان التأليف الوحيد الذي انتجه يتناول تاريخ الدولة العبد الوادية.

نشاطه قبل دخوله في خدمة أبي حمو موسى الثاني :

نجده أولا يقوم بخدمة الأمير أبي عبد الحفصي لمساعدته على امتلاك إمارة بجاية. ولاشك أن السلطان أبا سالم المريني عينه في هذا المنصب لما يعلم فيه من الدهاء لاتصالاته بعرب المنطقة [128]. وقد قرر الأمير الحفصي مساعدة السلطان أبي حمو الثاني، فأرسل يحيى بن خلدون إلى تلمسان ليقوم بهذه المهمة، وفعلا أنجز هذه المهمة بمهارة [129].

وقد أعاد الأمير الحفصي الكرة مرة ثانية فذهب بنفسه صحبة يحيى بن خلدون إلى بلاط أبي حمو الثاني، لكن الأمير إسحاق الحفصي فطن لذلك فأخفق هذه المساعي [130]. وعندما خاب أمل يحيى بن خلدون والأمير أبي عبد الله في نجدة أبي حمو، اتجهت انظارهما مرة أخرى إلى قبائل الدواودة، وفعلا فقد تمكن من استرجاع إمارة بجاية سنة 765 هـ [131].

لكن لم تلق إمارة أبي عبد الله النجاح المرجو، وترجع أسباب ذلك إلى سوء معاملة الرعية وحتى لا حلافه من العرب، وإلى أصراره على مناهضة ابن عمه أبي العباس، أمير قسنطينة، اقتحمت جيوش هذا الأخير إمارة بجاية سنة 767 واستولت عليها وقتلت الأمير عبد الله الحفصي، وألقي القبض بعد ذلك على يحي بن خلدون وحجزت أمواله، لكنه تمكن من الفرار والالتحاق ببلاط أبي حمو الثاني [132].

تلك كانت المرحلة الأولى من تجربة يحيى بن خلدون وهي تجربة قاسية، لكن طموحه الأندلسي دلل له كل الصعاب وكرر التجربة مع إمارة الزيانية.

في بلاط الأمير أبي حمو الثاني

من أهم العوامل التي دعت الأمير الزياني إلى استدعاء يحي المشاكل السياسية الخطيرة التي كان يواجهها من جراء الفتن التي أحدثتها، في المنطقة الشرقية، ثورة ابن عمه أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الثاني، فكان القضاء على منافسه هذا يتطلب الحصول على مساعدة عرب رياح وخاصة قبيلة الدواودة السالفة الذكر. [133] وفعلا فقد أرسل الأمير الزياني خديمه يحي إليهم ونجح في مهمته [134]. فكان لذلك أحسن الوقع في نفس الأمير الزياني وعينه كاتبا له، وقربه إليه وجعله من مستشاريه، وعندئذ طاب المقام ليحي بتلمسان واستقر هناك [135]. وقد مكنت هذه الإقامة يحيى من الاتصال بالشعراء والأدباء والعلماء الذين كان يزخر بهم بلاط أبي حمو الثاني مما أفاده في تكوينه العلمي [136]. غير أن الأمر لم يستقر للأمير الزياني مما جعل إمارته تشتعل مرة أخرى بالفتن والاضطرابات إلى أن استولى عبد العزيز المريني على تلمسان في سنة 772 هـ، فقرر يحيى الالتحاق بالبلاط المريني [137].

في البلاط المريني :

التحق في هذه الآونة لسان الدين ابن الخطيب بالبلاط المريني بتلمسان فكانت فرصة ليحيى للاستفادة منه مما كان له أكبر الأثر في تكوينه العلمي. وقد سارت الأمور على أطيب حال بتلمسان تحت ظل السلطان عبد العزيز المريني إلى أن توفي أخيرا سنة 774 هـ [138]، وعندئذ انتقل البلاط المريني إلى فاس فاتجه على أثر

ذلك يحيى وابن الخطيب إلى العاصمة المرينية، والظاهر أن يحيى لم يجد أية صعوبة في الحفاظ على مكانته بالبلاط المريني.

لكن الفتن والاضطرابات والدسائس التي كانت تحاك في البلاط المريني حالت دون بقاء يحيى بفاس خاصة بعد قتل ابن الخطيب في سجنه، بعد أن اتهم بالزندقة وحوكم وعذّب. وهكذا التحق مرة ثانية ببلاط أبي حمو الثاني بتلمسان [139].

عودته

بعد فراق دام أربع سنوات، لم يجد يحيى بن خلدون بدا من الرجوع إلى بلاط أبي حمو الثاني، معترفا بزلته، طالبا العفو والصفح، ومما ساعد على ذلك أن الأمير الزياني كان في حاجة إلى مستشار مخلص يساعده على حل المشاكل الخطيرة التي كانت تواجه إمارته. لكن الأمور لم تدم على هذا الشكل طويلا، إذا أصبح البلاط الزياني منذ أوائل سنة 779 هـ مسرحا للمناورات، وقد كان يحيى نفسه ضحية لهذه المناورات إذ أودت بقتله في سنة 780 هـ [140].

هكذا نلاحظ، إذن، أن نفس الصورة التي رسمت من طرف ابن الخطيب وابن خلدون تتكرر بالنسبة ليحيى، وهي صورة لا يمكن فهم ملامحها الا من خلال الإطار الأندلسي الذي سبق أن أوضحناه.

شخصيات أندلسية بالمنطقة :

تنوعت اهتمامات الشخصيات الأندلسية التي استقرت بالمنطقة، فهناك شخصيات آثرت الميدان العلمي، مفضلة الابتعاد عن كل (مشاغل الدنيا) لأن (أمور الآخرة أهم وأنجح)، وهو اهتمام تطور من مجرد اهتمام بالعلم إلى زهد وتصوف، في حين آثرت شخصيات أخرى المغامرة في الميادين السياسية والعسكرية، وكان لبعضها سلوك معين وسنتعرض لبعض الشخصيات التي من شأنها أن تزيد من توضيح صورة هذا الوجود الأندلسي بالمنطقة.

* **أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي :**

اشبيلي الاصل، ذكر يحيى بن خلدون أنه : «كان أديبا بارع الكتابة، شاعرا مجيدا، رائق الخط، ذا مشاركات في فنون العلم، مؤلفا متقنا، فسر الكتاب العزيز وشرح الأسماء الحسنى، وصنف عقائد أصولية في الدين، وكتبا في أصول الفقه، وله في التصوف نظم حسن كثير في الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزله الباري سبحانه وتعالى» (141) .

* **عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي :**

ولدا السابق، قال عنه يحيى بن خلدون : «عالم متفنن، دو علم بالوثائق، وخط بارع، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وأمامه رحمة الله عليه» (142) . كما ذكر أنه : «هو جد الفقيه أبي زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الرحيم هدا، صاحب الأشغال العلية الآن بباب مولانا أمير المسلمين أبي حمو أيده الله، رجل خير، فاضل، دو معرفة بالفرائض، وبصر الحساب والهندسة حج وخطب نائبا بجامع فاس الجديد، فاستجيدت خطبته» (143) .

* **أبو الحسن ابن الصيقل :**

هو يحي بن عيسى بن علي بن محمد بن أحمد المرسي، دكر يحي بن خلدون عنه أنه «كان راوية للحديث عدلاً صالحا» (144) .

* **أبو مدين شعيب :**

هو شخصية صوفية مشهورة توسعت في ذكر مناقبه كتب التراجم، لكننا سنقتصر على ترجمة يحي بن خلدون له لأنها تمثل رؤيا أندلسية لشخصية أندلسية كما سيتأكد ذلك فيما بعد، وهكذا فقد قال عنه : «الشيخ الصالح قطب العارفين وشيخ المشائخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري، منشؤه قطنيانة من قرى اشبيلية، واجاز البحر إلى المغرب . . . واستوطن بجاية فاشتهر بها خبره وعلا في مقام الولاية صيته . . . فلما بلغ تلمسان أعجبته خارجها قرية، فسأل عن اسمها فقيل : العباد، فقال أي موضع هو للرقاد، فمرض يومئذ ومات، ودفن هنالك» (145) .

***أبو عبد الله الحلوي :**

قال يحيى بن خلدون عنه : «الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان، من كبار العباد العارفين» (146) . واسترسل بعد ذلك في ذكر بعض مناقبه .

*** أبو بكر ابن خطاب الغافقي :**

هو محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي، نزيل تلمسان من أهل مرسية، ذكر عنه يحيى بن خلدون أنه «كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا، ومعرفة بأصول الفقه، كتب بغرناطة عن ملوكها، وقفل إلى مرسية، وقد اختلت أمورها، فارتحل إلى تلمسان، وكتب بها عن أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان، وتوفي بها يوم عاشوراء سنة ست وثلاثين وستمائة» (147) .

*** أبو بكر بن سعادة الاشبيلي :**

ذكر عنه يحيى بن خلدون أنه : «كان مجودا للقرآن، ضابطا، محدثا، نقادا، عالي الرواية، نزل تلمسان وعمر بها، وتوفي في رجب سنة ستمائة» (148) .

*** أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي :**

شيخ عبد الرحمان بن خلدون، وقد أكد أصله الأندلسي قائلا : «أصله من جالية الأندلسية، من أهل آبلة، من بلاد الجوف منها، أجاز أبوه وعمه أحمد، فاستخدمهم يغمراسن بن زيان، وولده في جندهم» (149) . وقد كان أبوه إبراهيم قائدا بهنين من قبل الزيانيين، فلما ملكها المرينيون اعتقل، وتحول ابنه اثر ذلك إلى بني مرين حيث صار قائدا لجند الأندلسيين بتاوريرت. لكن ذلك لم يرق له واتجه إلى الحج (150) . وقد رجع إلى تلمسان بعد أن صادق ذلك مهلك السلطان المريني يوسف بن يعقوب وخلاص أهلها من الحصار. وذكر تلميذه عبد الرحمان بن خلدون أن «همته انبعثت إلى تعلم العلم. وكان مائلا إلى العقليات» (151) . وقد أورد أبو حمو صاحب تلمسان - بعد أن استقرت له الأمور - أن يستخدم الابلي في «ضبط

أمواله ومشارفة عماله» [152] لكن الشيخ الابلي تفادى ذلك، ففر إلى المغرب واستقر مدة بتونس، ورجع إلى تلمسان بطلب من أبي عنان المريني ـ كان قد ملك تلمسان من بني عبد الواد ـ الذي «نظمه في طبقة أشياخه من العلماء» [153].

* أبو القاسم محمد بن يحي البرجي :

ذكر صاحبه عبد الرحمان بن خلدون أنه أقام مدة بتلمسان، لكنه لم يذكر نشاطه هناك [154].

* عائلة ابن الملاح :

ذكر يحيى بن خلدون أن الأمير الزياني أبا حمو بن أبي سعيد «ألقى تقاليد الوزارة والحجابة إلى محمد بن ميمون بن الملاح، ثم ولده محمد الأشقر، ثم ولده إبراهيم وعمه علي بن عبد الله» [155]. وذكر أنهم من «بيت سراوة من أهل قرطبة، احترافهم السكاكة، أولوا مانة فيها ودين» [156].

استخلاص :

لاحظنا أن جل الشخصيات الأندلسية التي تعرضنا لها ذكرها يحيى ابن خلدون في كتابه بغية الرواد، مما يدعونا إلى البحث عن الأسباب التي قد تكون دفعته إلى أن يخصص لها هذا الحجم من الكتاب.

نلاحظ أنه فاتح القسم الأول من كتابه بقصيدة لفقيه أندلسي ـ وقد نص على ذلك صراحة ـ هو أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري الأندلسي، يمدح فيها تلمسان [157]، ثم انتقل بعد ذلك مباشرة إلى الفصل الثاني حيث استعرض مجموعة من الشخصيات الأندلسية المستقرة بالجزائر [158]. إن كل القرائن تفيد ـ بالإضافة إلى كونه كان يرمي إلى الحصول على رضى الأمير الزياني أبي حمو الثاني ـ كان يريد تقديم (أوراق اعتماده الأندلسية) لمخدومه، إذ من شأن ذلك أن يؤدي إلى التعرف على إمكانات الجالية الأندلسية السياسية والعلمية بالخصوص، وبالفعل فقد استخدم عدد من الأندلسيين كوسطاء بين الأمير الزياني وعرب المغرب الأوسط

الثائرين. ولاشك، من جهة ثانية أن الأمير الزياني كانت لديه صورة خاصة عن اندلسي المغرب الذين كانوا يتهالكون على البلاط المريني ودورهم في الصراع الدائم بينه وبين هذا الأخير فأراد إذن يحيى بن خلدون أن يمحو هذه الصورة بذكر عدد من الصلحاء والزهاد والمتصوفة وهو يرمي بذلك إلى شيئين :

أولا : أن هنالك فئة من الأندلسيين زهدت في الدنيا وأعرضت عن السياسة والمال وبالتالي فهي لا ترغب إلا في الاستقرار فيي اطمئنان بالمنطقة، وبالتالي فهي لن تتدخل لتأييد هذا التأثر أو ذاك سواء كان من داخل المنطقة أو خارجها بل سوف تلتزم الحياد الكلي إزاء جميع الأطراف.

ثانيا : إن الحصول على تأييد هؤلاء الزهاد والمتصوفة معناه الحصول على تأييد العامة، لما تكنه لهم هذه الأخيرة من تقدير واحترام.

* * *

وبعد، هذه جوانب من أهم التطورات التي عرفتها الساحة الأندلسية بالمغرب العربي، ركزنا فيها جهدنا على المغرب الأقصى باعتباره المنطلق والهدف، وقارناه بعد ذلك بالتجربة الأندلسية في كل من تونس والجزائر. وقد لاحظنا من خلال كل ذلك مدى حجم وتعقد التجربة في كل من المغرب وتونس وبساطتها بالنسبة للجزائر لعوامل سبق أن أوضحناها.

وعلى كل فإننا نلاحظ ثلاثة أنماط من السلوك الأندلسي بالمغرب العربي :

سلوك فئة العلماء :

حاولت هذه الفئة إبراز (العلم الأندلسي) ومدى إشعاعه على الساحة الفكرية بالمغرب العربي. وقد تفرع سلوك هذه الفئة إلى قسمين : فئة حاولت الارتزاق منه، وذلك عن طريق الدخول الى بلاطات المغرب العربي أو عن طريق التعليم في المساجد والزوايا. وفئة أخرى عزفت عن ذلك، واتجهت كلية الى التفرغ للتعليم وقد تطور ذلك - كما قلنا - إلى زهد وتصوف، وذلك نتيجة التجربة المريرة التي اجتازوها في الأندلس والتي خلقت في أنفسهم اليأس والتشاؤم كما خلقت في أنفسهم كذلك قناعة مطلقة بألا جدوى من المقاومة، ناسين أن الأندلس قد سقطت وهي تغص بالعلماء والأدباء والشعراء.

سلوك فئة الصناع والحرفيين :

هؤلاء، لكونهم كانوا يكونون فئة وضيعة في الأندلس نفسها، فإنهم لم يطمحوا في المغرب العربي إلى مناصب سامية أو قيادية، بل كان كل همهم ضمان موارد عيشهم. لكن هذه الفئة ـ كما أوضحنا ذلك سابقا ـ وجدت نفسها وجها لوجه مع صناع وحرفيين تقليديين منافسين مما أدى إلى وجود نوع من الصراع الاقتصادي، غير أن حدته كانت تتضاءل باستمرار مع مرور الزمن.

سلوك فئة العسكريين والسياسيين :

هذه الفئة هي التي ستدخل في صراع حاد بالفعل مع المغاربة، إذ أتى أفراد هذه الفئة وهم يحملون (أوراق اعتماد أندلسية) تبرز ماضيهم العريق في السياسة والقضاء والحسبة، فكانوا بذلك دائما يطمحون إلى الوصول إلى مناصب قيادية. وإذا ما حاولنا استعراض المراحل التي كان يخطوها هؤلاء للوصول إلى البلاط، فإننا نجد أنها كانت تجري على الشكل الآتي :

المرحلة الأولى : الدخول في اتصالات مع بلاطات المغرب العربي عن طريق وسطاء أو بصفة مباشرة، وهي مرحلة غالبا لم تكن فيها مشاكل، لأن أمراء المغرب العربي كانوا في حاجة إلى الاسترشاد بذوي الرأي، نظرا لمشاكلهم الداخلية والخارجية.

المرحلة الثانية : الممارسات السياسية بالفعل، اما كوزراء أو مستشارين أو حجاب، وقد حقق بعضهم نجاحات باهرة وعبروا بذلك عن كفاءتهم ومقدرتهم، لكن طابع الاستحواذ على السلطة هو الذي كان يسود سلوكهم.

المرحلة الثالثة : بدأت النخبة المغربية التقليدية داخل البلاط تشعر أنها همشت وأن مقاليد الأمور أصبحت تفلت من يديها من هنا بدأت المؤامرات والدسائس تحاك ضد هذا أو ذاك، أو هذه الفئة أو تلك، فكان الصراع عنيفا بينهما، وغالبا ما كان ينتهي هذا الصراع بفشل الفئة الطارئة، فكان مصير أفرادها إما القتل أو الإبعاد.

ويرجع هذا الفشل ـ أساسا ـ إلى أن الأندلسيين كانوا يحققون نتائج إيجابية بالنسبة لهم ـ في إطار بنية سياسية تقليدية منظمة لها قواعدها وأعرافها وتقاليدها،

إذ كانوا يقومون بدراسة لهذه البنية ويركزون فيها على مواطن الضعف لاستغلالها. لكن عندما تتعرض هذه البنية ـ الهشة أصلا ـ لاختلال في هيكلها (نتيجة الفوضى التي كانت تعم أقطار المغرب العربي بفعل تدخل القبائل) فإن المبادرة إذ ذاك تخرج من يد الأندلسيين لتصبح في يدي الأقوى.



وفي الختام لا يسعنا إلا أن نؤكد أن هذه التجربة الأندلسية بالمغرب العربي كانت قائمة في ظل معطيات خاصة تتميز بالخصوص بكون المنطقة كانت تشكل مجالا جغرافيا موحدا، فالجالية الأندلسية كان بإمكانها أن تنتقل بين أقطار المغرب العربي بدون حواجز تذكر، وذكريات الأندلس وأمجادها كانت ماتزال حية في الأذهان، إذ كان الأندلسيون باستمرار يندبون حظهم رغم كل ما بذله المغاربة لتسهيل ظروف إقامتهم، ولمعان (العلم الأندلسي) كان يبدو وفي كل الواجهات. لكن الوضعية ستختلف تماما في المرحلة الموالية (المرحلة الحديثة)، إذ ستصبح هناك حدود بين أقطار المغرب العربي، بفعل الاحتلال التركي لكل من تونس والجزائر، والأمل فقد نهائيا باسترجاع الأندلس فكل الثغور الأندلسية الآن قد سقطت، وإسبانيا أصبحت امبراطورية قوية على الساحة العالمية لها وزنها السياسي والاقتصادي الكبير الذي تحسب له ألف حساب.

هوامش

(*) نشر هذا البحث بمجلة المناهل (المغرب) العدد 34، يوليوز 1986، وقد اعيد نشره بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 42 ـ 43 1987.

(*) هناك ملاحظات :

أولا : سبق للباحث أن قام بدراسة حول موضوع استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأقصى، وقد نشرت ضمن أعمال المؤتمر الثاني حول الموريسكيين، المنعقد بتونس في شهر شتنبر من سنة 1983 :

«Evolution de l'Etablissement des minorités andalouses au Maroc» in Actes du 2e symposium international du CIE M sur :

Religion, Identité et Sources Documentaires sur les morisques Andalous, 2 .139 - 154 - Tunis, 1984.

ثانيا : سنقتصر في هذا المقال على الفترة ما قبل السادس عشر.

(1) **La berbérie orientale sous Hafsides**, 2 . 370 371 et 383-389

(2) «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية في القرن 7/13» مقال بمجلة :

Les cahiers de Tunisie, 1er et 2e trim. 1970, PP 129-136

(3) «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين»، مقال بمجلة الأصالة الجزائرية، عدد 26، سنة 1975، ص. 46 ـ 90.

المقري، نفس المصدر والصفحة.

(4) انظر الأبيات عند أ ـ المقري، 4 : 352

(5) م الطالبي المصدر السابق، ص ص 48 ـ 49.

(6) انظر البيت عند أ. المقري، نفس المصدر والصفحة

(7) انظر الأبيات عند أ. المقري، المصدر السابق، 4 464.

(8) م. الطالبي، المصدر السابق، ص ص 49 ـ 51.

(9) المصدر السابق، ص 51.

(10) ابن خلدون، العبر، 6 : 579، 580، 581، 595 و611ـ614، 615ـ616.

(11) المصدر السابق، ص 601 ـ 604.

ملاحظة :

لم يستطع الأسطول الذي أرسل به أبو زكرياء مشحونا بالطعام والأسلحة فك الحصار على بلنسية، فاستمرع المدد بدانية، وسقطت عاصمة ابن مردنيش. ذلك أن المملكة الحفصية كانت أضعف من أن تستطيع نجدة الأندلس، لقد كانت مجبورة على مسالمة نصارى إسبانيا وصقيلية وشراء صداقتهم بالمال وبأنواع التنازلات، فبينما كان النصارى يسترجعون عواصم الأندلس الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، كان ملوك بني حفص يهادنونهم، ويفسحون المجال لفنادق تجارهم وقناصلهم، ويسمحون لرهبانهم بفتح مدارس (studium arabium) يريدون أن يجعلوا منها مراكز تبشير بالمسيحية، وربما لجأ بعضهم، كابن اللحياني (711 ـ 717/1311 ـ 1317)، إلى الايهام بأنه يرغب في التنصر

(ch.E.Dufourcq, l'Espagne et le maghrib aux XIIe siècle, p. 106 - 110, 488 - 494)

وكانوا يعترفون لملوك نصارى إسبانيا، في رسائل تطفح بالود بسيادتهم على ما تقبلوا عليه من ديار الإسلام، وعلى العموم فإن المملكة كانت «تشكو في كل المستويات انخفاضا خطيرا في الوعي السياسي». م. الطالبي، المصدر السابق، ص 53.

(12) المقال السابق الذكر، ص ص 129 ـ 130

(13) رسائل ابن عميرة، مخطوط م. ع. بالرباط، عدد ك 232 ص 3.

(14) يقصد بها سبتة.

(15) يقصد سجلماسة .
(16) ابن عميرة ، نفس المصدر والصفحة .
(17) انظر م . الطالبي المصدر السابق ، ص . 54
(18) انظر العبر ، 6 : 711 ، 787 .
(19) انظر ابن خلدون ، المصدر السابق ، 683 .
(20) المصدر السابق ، 711
(21) المصدر السابق ، 683 ـ 684 .
(22) انظر م . الطالبي ، المصدر السابق ، 56
(23) انظر ابن خلدون المصدر السابق ، 56
(24) انظر م . الطالبي ، المصدر السابق ، ص 57
(25) ابن خلدون ، المصدر السابق ، 627 .
(26) المصدر السابق ، 627 ـ 628
(27) المصدر السابق ، 704 .
(28) المصدر السابق ، 667
(29) المصدر السابق ، 683 ـ 684 .
(30) المصدر السابق ، 704 ـ 705 .
(31) المصدر السابق ، 705 ، 719 ـ 724
(32) المصدر السابق ، 758 ، 770 ، 780 ـ 782 .
(33) المصدر السابق ، 756 .
(34) المصدر السابق ، 655 .
(35) نفس المصدر والصفحة
(36) م . الطالبي المصدر السابق ، 61 .
(37) المصدر السابق ، 63
(38) المصدر السابق ، 64 .
(39) نفس المصدر والصفحة
(40) المقدمة ، 1039 ـ 1040
(41) المصدر السابق ، 751 .
(42) ابن خلدون ، العبر 6 684 ، الغبريني ، **عنوان الدراية** ، ص 294 .
(43) أحمد الغبريني ، **عنوان الدراية** ، ص 347 ـ 348 .
(44) المصدر السابق ، ص . 67
(45) هذا ما فعله ـ مثلا ـ الأمير أبو زكرياء بن السلطان أبي إسحاق (1273 ـ 1279) عندما أسس بتونس في ولاية أبيه المدرسة المغرضية انظر الزركشي ، **تاريخ الدولتين** ، ص 40 ـ 41 .
(46) المصدر السابق
(47) المصدر السابق .
(48) أ . الغبريني ، المصدر السابق ، 317 ، وم . الحبيب بن الخوجة ، المقال السابق ، ص 134
(49) أ . الغبريني ، المصدر السابق ، 345 ، والعبدري ، رحلة ، 43 ـ 44 ، وم الحبيب بن الخوجة ، المقال السالف الذكر ، 134 .
(50) م الحبيب بن الخوجة ، نفس المقال والصفحة .
(51) نفس المصدر والصفحة
(52) نفس المصدر والصفحة .

(53) نفس المصدر والصفحة
(54) نفس المصدر والصفحة .
(55) نفس المصدر والصفحة .
(56) م . الطالبي ، المصدر السابق 69 .
(57) عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر ص. 20 ـ 22 .
(58) المقال السابق، ص. 70 .
(59) عنوان الدراية ، 76 .
(60) م . الطالبي ، المقال السابق، 70 .
(61) عنوان الدراية ، 116 .
(62) المقال السابق، 72
(63) محمد الحبيب بن الخوجة ، المقال السابق، 135 .
(64) نفس المصدر والصفحة .
(65) خصص الأستاذ محمد أبو الأجفان له ترجمة مطولة أثناء تقديمه لرحلة القلصادي انظر ـ مثلا ـ ص 30 ـ 56 .
(66) انظر م . السوسي، عالم رياضي أندلسي، مقال بمجلة حوليات الجامعة التونسية، عدد 9، 1972 ص 43 وبعدها .
(67) انظر م أبو الأجفان ، المصدر السابق ، 35 .
(68) نفس المصدر والصفحة .
(69) محمد الطالبي ، المقال السابق، 71 .
(70) م . الحبيب بن الخوجة، المقال السابق، 131 .
(71) نفس المصدر والصفحة .
(72) نفس المصدر والصفحة
(73) المصدر السابق ، 132 .
(74) نفس المصدر والصفحة .
(75) نفس المصدر والصفحة .
(76) الفارسية ، 120 .
(77) محمد الحبيب بن الخوجة ، 132 .
(78) المصدر السابق ، 132 .
(79) الفارسية ، 151 .
(80) المصدر السابق، 123 .
(81) نفح الطيب ، 2 : 105 ـ 106 . وابن سعد الذي يذكر لنا استار الألحان الأندلسية التي أدخلها أبو الصلت إلى إفريقيا ولد سنة 1213/610 وتوفي سنة 1286/685
وانظر أيضا حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، 2 : 227 ـ 231 .
(82) م الطالبي ، المقال السابق ، 72
(83) المصدر السابق ، 73 .
(84) وصف إفريقيا ، 2 : 51 .
(85) المصدر السابق ، 2 : 42 .
(86) الروض الباسم ، 20

(87) نفس المصدر والصفحة
فيما يخص حدائق رأس الطابية ـ المكان مازال يعرف إلى اليوم بهذا الاسم بضاحية باردو، انظر ابن خلدون، **العبر**، 6 : 629، والزركشي، **تاريخ الدولتين**، 33، والعبدري **رحلة**، 40 والذي أنشأ قصر رأس الطابية وحدائقه، وجلب إليه مياه زغوان هو المستنصر (647 ـ 675/1249) ولقد ربط المستنصر قصبة تونس بحدائق رأس الطابية عن طريق ممر بين جدارين واستأثر بكامل مياه زغوان، إلا القليل منها الذي حول نحو جامع الزيتونة. وفي ذلك يكتب العبدري «وأما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد لستأثر بها قصر السلطان وجنانه إلا رشحا يسيرا سرب إلى ساقيه جامع الزيتونة يرتشق منها في أنابيب من رصاص ويستقي منها الغرباء ومن ليس في داره ماء ويكثر عليها الازدحام». **الرحلة**، 40
(88) **الروض الباسم**، 20
(89) المصدر السابق، 21
(90) المقال السالف الذكر، 82.
(91) **عنوان الدراية**، 287.
(92) نستثني ـ بطبيعة الحال ـ بعض الشخصيات العلمية والسياسية التي أتت للاستقرار بالمنطقة، لكن تأثيرها هي الأخرى مع ذلك كان ضعيفا إذا ما قورن بتأثير الشخصيات العلمية والسياسية الأندلسية التي استقرت في كل من المغرب وتونس
(93) كانت هذه الامارات تحتفظ بحيادها أحيانا، ولكنها كانت في أغلب الأحيان تتبع الأقوى.
(94) انظر عبد الباسط بن خليل، **الثغر الباسم**، مواضع متفرقة وأبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، 1 . 28 ـ 29
(95) **وصف إفريقيا**2 ـ 8
(96) أسست وهران في عهد الخليفة الأموي أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل الأموي
انظر محمد بن عبد الكريم، الملحق الثاني الذي وضعه لكتاب **التحفة المرضية**، ص. 314.
(97) انظر محمد بن عبد الكريم، المصدر السابق، 313.
(98) أبو عبيد الله البكري، **المغرب**، 70
(99) **المسالك والممالك**، 1 : 77.
(100) **نزهة المشتاق**، 57.
(101) المصدر السابق، نفس الصفحة
(102) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(103) **وصف إفريقيا** 2 : 3

التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي (*)
- تأصيل تاريخي -

يعتبر التواصل الثقافي أهم مظهر من مظاهر وحدة المغرب العربي، فإن عرفت التجارب الوحدوية سياسيا تقلبات عديدة تبعا للظروف السائدة آنذاك، إلى أن انتهت إلى ما انتهت إليه، فإن التواصل الثقافي ظل قائما، ليعزز الشعور بالانتماء إلى حقل ثقافي واحد.

وقبل الانتقال إلى صلب الموضوع نبدي بعض الملاحظات حول الشخصية الثقافية المغربية:

- كان للشخصية الثقافية المغربية من الوجود الذاتي ما جعلها تتمكن طوال العهد القديم من التمييز ورفض أي شكل من أشكال الاندماج.

- لم تستطع مع ذلك تجاوز مستوى المقاومة والرفض والدفاع عن الهوية الذاتية، ولم تبلغ من القوة ما يجعلها ترتفع إلى مستوى الانتاج والابداع خلال العهد القديم.

- استطاع المغرب أن يكون له شخصية ثقافية طامحة إلى الابداع والانتاج مع مجيء الاسلام الذي زاد بصفة عامة من تأكيد الاتجاهات الوحدوية سواء في ميدان السياسة أو الاقتصاد أو الفكر أو الثقافة، ذلك أن الاسلام أوجد في عين المكان الادوات الكفيلة باغناء الشخصية الثقافية وتوحيدها على نطاق المغرب العربي، ومن بين هذه الأدوات نذكر:

1 - الدولة: أحل الاسلام مفهوم الدولة في المغرب كفكرة وبنية شمولية جديدة تناويء كل البنيات التجزيئية القديمة.

2 - الأمة: كونت الأمة بحكم طبيعتها ووظيفتها اطارا توحيديا ضم سائر المسلمين، ونظرة إجمالية إلى التاريخ تبين كيف أن فكرة الأمة لعبت دورها القوي المتواصل في توحيد أقطار المغرب العربي.

3 ـ المسجد : قام المسجد بمختلف أشكاله وأحجامه بدور كبير كأداة تعليم وتربية ونشر للثقافة، وهي أداة لا تتجه لطبقة خاصة من المجتمع، بل إنها مؤسسة شعبية تتصل بعامة الناس على الدوام، وتبلغ التعاليم نفسها في كل مكان، مما يؤدي إلى بروز إطار فكري واحد.

4 ـ الاقتصاد : كان من نتائج وصول الاسلام إلى المغرب تنشيط الحركة الاقتصادية وتحريك تيارات جديدة ربطته بالمشرق وأوروبا وافريقيا، وكانت هذه الوحدة الاقتصادية أساسا لوحدة ثقافية، كما تجلى ذلك في حركة المرابطين.

5 ـ دور التراث الأندلسي في توحيد المجتمع الثقافي المغربي : رغم التأثير القوي الذي أحدثه التراث الأندلسي في توحيد أقطار المغرب العربي، فإنه مع ذلك لم يحظ بعد بدراسة كافية [1]، لقد كان عدد من علماء الأندلس يتنقلون باستمرار بين أقطار المغرب العربي ناشرين معارفهم، مما أدى إلى تكوين تراث أندلسي واحد في الأقطار الثلاثة وكان هذا التراث بالفعل عامل تقريب بين أقطار المغرب العربي في توحيد تصوراتها وأذواقها واهتماماتها في ميادين الفكر والثقافة ومن أبرز الآثار التي يمكن ايرادها في هذا الصدد إلى جانب الفكر والعلم والأدب : الهندسة المعمارية الأندلسية، والموسيقى الأندلسية التي كان لها انتشار كبير في سائر أقطار المغرب العربي.

6 ـ هناك أدوات أخرى مهمة في مجال النمو الثقافي كان لها دورها أيضا في مجال التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، نذكر من بينها : المدينة، والرباط، والزاوية.

أولا : التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي خلال الفترة الوسيطية

من أولى المحاولات التي يمكن تسجيلها في هذا الصدد محاولة المولى ادريس الأول الذي طرح مشروعا ضخما لتوحيد «دار الاسلام»، واستطاع أن يكون وحدة سياسية تضم المغرب الأقصى والأوسط ولولا معارضة بني العباس لامكن أن يوحد الغرب الاسلامي برمته. غير أن التجربة لم تعمر طويلا لكنها ستبرز بقوة مع المرابطين.

I

كان المشروع الوحدوي المرابطي حاضرا على المستوى الرسمي والشعبي على السواء.
فعلى الصعيد الرسمي جعلت الدولة المرابطية مشروع الوحدة على رأس برنامجها السياسي، ووظفت كل الوسائل الممكنة لتحقيق وحدة المغرب العربي، بل دافعت عن هذه الوحدة عندما تصدت للخطر المسيحي المنبعث من صقلية.

أما على الصعيد الشعبي فإن هاجس الوحدة كان حاضرا شعورا وممارسة فعلى الرغم من العداء السياسي الذي كان يظهر من حين لآخر بين أقطار الغرب الاسلامي، فإن الزخم الشعبي كان يتجاوز الاطارات الضيقة، إضافة إلى أن المؤرخين والجغرافيين المعاصرين أو الذين أتوا بعدهم لا يعترفون بالحدود الفاصلة بين دول المغرب [2].

ونذكر في هذا الصدد تبادل الرحلات، ومنح الاجازات، وخير مثال نسوقه في هذا الصدد تجسده شخصية أبي عمران الفاسي الذي يمثل معلمة من معالم الوحدة المغاربية، فهو مغربي أصله من فاس، ومع ذلك فضل الاستيطان في القيروان، وعنه أخذ الناس في أقطار المغرب العربي كما توضح ذلك المصادر التاريخية.

وهناك مثال آخر: فقد قدم عالم تونسي من توزر هو أبو الفضل ابن يوسف النحوي، واستقر في سجلماسة للتدريس بها، غير أنه تعرض للمضايقة والطرد من طرف فقهاء المرابطين، لانه أقدم على تدريس مادة محظورة هي مادة الأصول، ومع ذلك لم يرجع إلى بلده، بل فضل الاقامة في فاس والاستقرار في مغربه الكبير [3]، ويترجم ابن القاضي لمحمد بن داود بن عطية (ت 525 هـ) فيذكر أن أصله من افريقية (تونس) غير أن هذا الأصل لم يحل دون توليه القضاء بتلمسان، ثم اشبيلية، ففاس [4].
وتبرز قيمة التصوف كمعطى ثابت من ثوابت الوحدة المغاربية، يتجلى ذلك بالخصوص في تبادل الزيارات بين المتصوفة، بل منهم من فضل الاقامة في البلد الذي رحل إليه [5].

من ذلك يتضح أن قاعدة التعامل على الصعيد الشعبي كانت مهيأة لذلك، إذ لم تؤثر فيها الصراعات بين الحكام، ويتجلى ذلك بالخصوص أثناء مجابهة الخطر المسيحي، ففي سنة 521 هـ ـ مثلا ـ شكل أهل المهدية وفدا لمقابلة حاكم بجاية من آل حماد وهو يحي بن عبد العزيز، لطلب المساعدة للتصدي للغارات المسيحية.

ومن الملاحظات التي يمكن أن نبديها حول المشروع المرابطي هو أنه كان يتسلح بايديولوجية إصلاحية تمثلت في المذهب المالكي الذي أصبح في نظر المغاربة مذهبا وعقيدة وطنية، وبذلك أصبح خطا أيدلوجيا وحدويا.

لقد ظلت فكرة الوحدة حاضرة في نفوس المغاربة، ويكفي الوقوف على إنتاجات المغاربة لنتأكد من ذلك، ولنأخذ على سبيل المثال النوازل الفقهية، فقد كان القاضي المشهور ابن رشد الجد (ت 520 هـ) يقيم في الأندلس. ورغم ذلك فقد كان يمطر بوابل من طلبات الافتاء في شأن نوازل كان مجالها القيروان وسبتة ومراكش وبجاية وغيرها من مدن الغرب الاسلامي.

ونختم كلامنا حول التجربة الوحدية المرابطية بأنها مثلت التجربة الام، وبذلك ساهمت في تعبيد الطريق أمام التجربة الموحدية التي استفادت من هذه التراكمات الأولية.

II

بدل القادة الموحدون جهودا سياسية كبيرة لتوحيد أقطار المغرب العربي، وقد كان صدى هذه الجهود الوحدوية في البداية كبيرا، إذ تجمع المصادر التاريخية على أن شعوب المغرب العربي تجاوبت معها إلى حد بعيد، فعندما وصل عبد المومن بن علي إلى تونس: «خاطبه أهل مدينة قابس بالتوحيد... فبعث بعسكر ضخم... فلما وصلوا على ثمانية أميال من قابس بادر أهلها مع قاضيهم بالخروج إلى الموحدين وتلقيهم بالطاعة والتزام أمر الدين والجماعة...» [6]، كما أن «عرب افريقية والزاب والقيروان... أجابوا إلى الطاعة على حكم الاستطاعة...» [7]، لكن السؤال الذي يبقى مطروحا: كيف ابتدأت هذه التجربة بهذا النجاح الباهر، وانتهت في الأخير بإخفاق يؤكد المؤرخون على أنه كان فاسيا لأنه كان بمثابة سقوط من أعلى إلى أسفل.

لمعرفة أسباب نجاح هذه التجربة يجب أن نتعرض إلى حوافزها :

ـ رغبة الموحدين في نشر مذهبهم، فقد كان المهدي بن تومرت يعتبر المغرب العربي كمجال واحد لدعوته، وحافظ على هذا الارث خلفه عبد المومن بن علي.

ـ عزم الموحدين على الوقوف في وجه كل أعدائهم ومناوئيهم من بني غانية، وقبائل عربية أخرى، حتى تقوم الدولة على أسس متينة، وبذلك لم يتركوا أي فرصة لدعاة التفكيك.

ـ إنقاذ افريقية والمغرب الأوسط من محاولة التوسع النورماندي أكسب الموحدين في نظر شعوب أقطار المغرب العربي شرعية وهيبة لا تنكر.

تلك بصفة عامة أهم الأسباب التي جعلت التجربة الموحدية تجربه رائدة منذ البداية وتحقق ما عجزت عن تحقيقه دول سابقة.

لكن كانت هذه التجربة تحمل معها في نفس الوقت عوامل ضعفها، فبدل أن يسلك الموحدون بسياسة فيها ترضية لسائر الأطراف المغاربية فقد أخذوا بسياسة مبنية على السلطة والاستبداد والاستئثار بوظائف الولاية، وبذلك أحدثوا أسبابا للقلق والتوتر أدت في النهاية إلى حدوث انشقاق كبير داخل (الامبراطورية الموحدية) بظهور دويلات صغيرة في أقطار المغرب العربي غير أننا نجد في الحقيقة أن هذا الفشل لا يهم إلا الجانب السياسي من التجربة، أما الجانب العلمي فلم يمس، بل ظل التواصل الثقافي مستمرا، كما يتجلى ذلك من خلال التنقلات العلمية التي عرفتها هذه الفترة، والتي تبرز بوضوح الطابع الفكري الوحدوي لدى أقطار المغرب العربي.

III

عرف المغرب في عهد بني مرين انحسارا في الرقعة الجغرافية، وذلك نتيجة تدخله المستمر في الأندلس، ونتيجة أوضاعه الداخلية من جهة أخرى، فبرزت بذلك إمارة بني عبد الواد بتلمسان، وإمارة الحفصيين بتونس، ولكن ظل التواصل الثقافي مع ذلك مستمرا، وهكذا نجد العلماء يجسدون من خلال رحلاتهم وأسانيدهم ومروياتهم ومناظراتهم العلمية تلك الصلات القوية التي كانت قائمة بالفعل بين علماء المغرب العربي.

وقد شجع بنو مرين كثيرا من بيوتات المغربين الأوسط والأدنى على الهجرة إلى المغرب الأقصى، وجعلوهم كتابا وحجابا، وأدرك أبناء هذه البيوتات جاها عظيما، ومن بين هذه البيوتات بيت بني التميمي وقد اشتغل أبناؤه لدى الحفصيين والمرينيين، ومن أفراده أبو الحسن علي بن إبراهيم التميمي التونسي، ومن أفراد هذا البيت أيضا أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الله التميمي، ولي الحجابة للدولة المرينية.

ومن هذه البيوتات أيضا بيت الكناني ومن أفراده الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى يوسف بن الفقيه الكاتب أبي الطيب الكناني، كانت له علامة المتوكل عبد الله بن منصور المريني.

هكذا فتح سلاطين بني مرين أبواب المناصب العليا في وجه القادمين من المغربين الأوسط والأدنى، لكن كانت عناية ملوك بني مرين بعلماء المغرب العربي أكبر، فقد أم علماء تلمسان والقيروان وبجاية وغيرها من الحواضر بلاط أبي الحسن ثم بلاط أبي عنان.

ويتجلى هذا التواصل الثقافي أيضا من خلال التواصل الاسنادي الذي تؤكده فهارس العصر، ففي **فهرسة السراج** ـ مثلا ـ نجد أسانيد التلمسانيين والقيروانيين والسبتيين والفاسيين وغيرهم، ونفس الشيء نقوله بالنسبة **لفهرسة المنتوري، وفهرسة ابن غازي**

ويتجلى هذا التواصل الثقافي كذلك في الرحلات، فنذكر في هذا الصدد **ملء العيبة** لابن رشيد، **ومستفاد الرحلة** لابي القاسم التجيبي **ورحلة العبدري، ورحلة ابن بطوطة** ورحلة أبي عبد الله المقري **نظم اللئالي**، حيث يستعرض المقري الجد رحلته عبر مراكز المغرب الثقافية فيذكر الاعلام الذين أخذ عنهم أو تذاكر معهم انطلاقا من تلمسان، فبجاية فتونس، ثم المغرب حيث دخل فاسا ولقي بها عددا من الشيوخ.
كما نشطت المراجعات والمناظرات في هذا العصر نشاطا كبيرا، وكان يشارك فيها علماء من فاس وتلمسان وتونس.

ونشير في الأخير بمناسبة الحديث عن هذا التواصل الثقافي إلى «الحملات الثقافية الرسمية» التي كان يقوم بها بعض سلاطين بني مرين، فقد استصحب السلطان أبي الحسن المريني معه إلى تونس علماء من تلمسان وفاس، ونفس الشيء فعله السلطان أبي عنان المريني [8] .

ثانيا : التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي خلال العصر الحديث

عرف المغرب العربي خلال القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر تدهورا سياسيا واقتصاديا وفكريا خطيرا، تجلى بالخصوص في عدة مظاهر :

- سقوط آخر معقل اسلامي بالأندلس (غرناطة) سنة 1492، بل وتتبع المسلمين بشمال افريقيا، مما أدى إلى احتلال عدد من الثغور بأقطار المغرب العربي.
- التدهور السياسي الخطير نتيجة الصراع حول السلطة.
- التدهور الاقتصادي نتيجة لانعدام الامن والاستقرار.

- وقد كان المغرب أحسن حظا من جاريه، فقد واجه المسيحيين، وواجه الأتراك، ولذلك أصبح ملاذا للمضطهدين سواء من طرف المسيحيين أو الأتراك، ودخل المغرب في هذه الفترة أقوام كثيرون أفرادا وجماعات وقد كان السعديون يعون جيدا الدور الوحدوي المنتظر منهم كما يتجلى ذلك في الأحداث الآتية :
- محاولة السعديين الوصول إلى وهران بعد توحيد المغرب الأقصى وتحرير عدد من ثغوره، وذلك لتخليص هذا الثغر من يد الاسبان.
- مشاركة عبد الملك السعدي في الجيش العثماني التونسي الذي تمكن من هزم الاسبان سنة 1574 بحلق الوادي.
- تطلعت شعوب أقطار المغرب العربي إلى المغرب الأقصى باعتباره القوة المستقلة الوحيدة بالمنطقة، كما يتجلى ذلك في كتاب **النفحة المسكية** لابي الحسن علي التمجروتي.
- التنسيق في عمليات الجهاد البحري بين مدن سلا، والعرائش، وبجاية وحلق الوادي، وغير ذلك.

لقد سعى السعديون إلى توحيد الغرب الاسلامي، انطلاقا من كونهم أحق بالخلافة من غيرهم لشرف نسبهم، كما يبرز ذلك مؤرخوهم.
أما من حيث التواصل الثقافي فنذكر هجرة عدد من العلماء الجزائريين أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) من بينهم :

- عبد الله العنابي : فقيه، أديب، مشارك في مختلف العلوم، استقر بوادي درعة، وقد آزر السعديين في المراحل الأولى لاقامة دولتهم، كما عمل على مساعدة الأندلسيين بالجزيرة، فجمع أموالا طائلة حملها في البحر لاغاثتهم، لكن السفينة غرقت.

- أحمد بن يحي الونشريسي، الفقيه المالكي الكبير، انتقل من تلمسان إلى فاس، فأعطي كراسي الفقه في القرويين وغيرها، وفتحت له خزائن الكتب العامة والخاصة، ولاسيما خزائن آل الغرديس التي استمد منها أصول كتابه المعيار المعرب.
وقد خلفه بعد موته في كراسي التدريس بالقرويين ابنه عبد الواحد الونشريسي الذي أصبح شيخ الجماعة بفاس، ولعب الأدوار السياسية الشهيرة بين الوطاسيين والسعديين.

- أحمد شقرون بن أبي جمعة الوهراني، فقيه مشارك، اندمج كالونشريسي في صفوف علماء فاس، وكان له تلاميذ كثيرون.
وفي القرن الهجري العاشر نذكر :

- علي بن عيسى الراشدي، اتم دراسته بالقرويين، ثم أسند إليه كرسي القراءات والسيرة النبوية بمسجد الشرفاء.

- أحمد بن محمد بن جيدة الوهراني، تلميذ الشيخ السنوسي، تولى كرسي الأمام ابن غازي.

ومن تونس نذكر محمد بن أبي الفضل ابن خروف، وهو عالم متخصص في العقليات، أسره الاسبان في الحملة الكبرى التي شنوها على تونس وطال أسره إلى أن افتداه ملك فاس أحمد الوطاسي، وعاش ابن خروف مدرسا في القرويين.
ونشير إلى أنه في هذه الفترة أيضا وقعت هجرات معاكسة من المغرب إلى الجزائر وتونس قام بها علماء وصلحاء من مختلف مدن المغرب.

خلاصـــة :

تلك كانت نظرة تأصيلية تاريخية للتواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي خلال فتر ات معينة من تاريخ المغرب، ورأينا فيها دور الثقافة في تحدى عراقيل الوحدة، فما أجدر بنا اليوم أن نعطي لهذا العامل ما يستحقه من الاهتمام، لكننا من جهة أخرى لا نزعم أن الثقافة وحدها تكفي لتحويل الشتات إلى وحدة والتئام، فلابد من إرادة سياسية، ولابد من دعائم مادية تتمثل في تنمية العلاقات الاقتصادية وإيجاد البنيات التحتية التي تنمي الربط والاتصال.

هوامش

(*) أعد برسم الجامعة الشتوية بمراكش، 1990، وقد نشر بالمجلة التاريخية المغربية، تونس العددان 57-58، 1990

(1) انظر محمد رزوق : «الجالية الاندلسية بأقطار المغرب العربي»، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 42 - 43، 1987 .

(2) انظر في هذا الصدد ما يقوله - مثلا - صاحب الحلل الموشية، وما يقوله البكري في كتابه المغرب

(3) ابن الزيات، التشوف، ص : 98

(4) جذوة الاقتباس، 1 : 255

(5) انظر - مثلا - ابن قنفذ، انس الفقير، ص : 94

(6) ابن صاحب الصلاة، التعريف، ص : 19 - 55 .

(7) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، 417 .

(8) ابن خلدون، التعريف، ص : 19 - 55 .

من جذور الدولة العصرية بالمغرب
محاولة بناء الدولة الحديثة خلال القرن التاسع عشر نموذجا (*)

تشكل المحاولة التي قام بها المغرب خلال القرن 19 لبناء دولته الحديثة نموذجا متميزا يطرح معه الكثير من التساؤل حول الأسباب التي أدت الى وقوع هذه الاصلاحات في هذه الفترة بالضبط، وحول نوعية الاصلاحات المقترحة والتحول الحاسم الذي طرأ على بعض العقليات آنذاك وكذا إدراك قيمة الآخر الغالب بدل البحث عن إصلاح ذاتي محض، أي أن النموذج الأوروبي أصبح الآن هو المستهدف.

وقبل الانتقال للتعرف على المبادرة المغربية سنحاول أن نتعرف على أصول الدولة الحديثة في أوروبا من خلال ثلاثة معايير تساعدنا على المقارنة (1) :

ـ المعيار الأول : استمرارية في الزمان والمكان لجماعة بشرية ما لكي تتحول إلى دولة. فالعيش والعمل معا في مكان معين وطوال أجيال عديدة تستطيع جماعة بشرية ما أن تنتج النماذج التنظيمية الأساسية لتشييد دولة ما. فهذه الأخيرة ترتكز على مؤسسات دائمة ومن الصعب إقامة مثل هذه المؤسسات إذا كانت الأرض التي تقوم عليها تتغير باستمرار، أو إذا كان تلاحم الجماعة يتغير باستمرار كذلك ولذلك فإن البدو الحقيقيين لا ينشئون دولا، فمن الضروري أن تصبح نسبة معينة من السكان حضرية لكي تتمكن من الوصول إلى مستوى معين من التنظيم السياسي.

ـ المعيار الثاني : يجب أن تقوم مؤسسات سياسية غير شخصية تعزز الشعور بالهوية السياسية للجماعة. وتتميز هذه المؤسسات بمكانتها وسلطتها داخل المجتمع، فهي التي تجسد فكرة سيادة الدولة على الجميع.

- **المعيار الثالث** : وهذا المعيار الأخير هو الأكثر أهمية، فمشاعر الولاء التي كان يحس بها الناس في الماضي نحو العائلة، أو الجماعة المحلية، أو المنظمة الدينية، قد انتقلت الآن لصالح الدولة. وفي نهاية هذا التحول يعطي المواطنون الصدارة لمصالح الدولة. ويعتبرون صيانتها بأنها الخير الجماعي الأعلى. وبقراءتنا لهذه المعايير يتبين لنا بوضوح لماذا تأخر بناء الدولة الحديثة بالمغرب، فكل معيار من هذه المعايير نجد نقيضا له في الجانب الآخر، فقد ظلت البداوة طاغية على المغرب لفترات طويلة من تاريخه - كما لاحظ ذلك ابن خلدون -، والقبائل تتنقل باستمرار مما كان يعوق قيام كيان حضري يفكر سكانه في تنظيم ما، والمؤسسة السياسية كانت شخصية، مرتبطة بشخص معين، سرعان ما تسقط بسقوط الشخص المذكور، ومشاعر الولاء تجاه الدولة كانت ضعيفة نسبيا وغير قادرة، في حين كانت قوية تجاه مؤسسات دينية (الزوايا) أو فئات معينة (العلماء، أو المتصوفة)...

وهكذا حينما حاولت الدولة أن تقوم باصلاحات معينة وجدت معارضة قوية تجسد فترات تاريخ طويل من الجمود الفكري.

ظروف التفكير في بناء الدولة الحديثة :

ظهرت فكرة تحديث الدولة بمختلف مرافقها كضرورة ملحة إثر انهزام المغرب في معركة اسلي ضد فرنسا (1844) وفي حرب تطوان ضد الاسبان (1860)، فانكشف بذلك ضعفه وتخلفه وعجزه عن حماية نفسه [2]. وهكذا فالتفكير في هذه العملية كانت نتيجة ضغط خارجي وظروف إجتماعية واقتصادية صعبة، وليس نتيجة لتطور داخلي فكري أو اجتماعي أو اقتصادي، ولهذا الأمر خطورته، إذ أن الاصلاح سيتجه بنظره الى الجانب الآخر القوي للاقتباس منه، وهذا شيء جديد وقع خلال القرن 19 لماذا ؟

سيتضح لنا ذلك من خلال استعراضنا لاحداث معينة مماثلة، فقد غزت العالم الاسلامي قوات أوروبية خلال العصر الوسيط، واعقب ذلك ردود فعل إصلاحية ظلت دائرة داخل المنطق المعهود للاصلاح الاسلامي الذاتي، دون التفات إلى ما عسى أن يقتبس من الآخر المتفوق من أشياء تفسر تفوقه وتصلح لان تؤخذ ضمن مشروع إصلاح مقترح. وهكذا فقد وضع الغزالي مشروعا للاصلاح ضمن كتابه احياء علوم الدين، وقد وضعه أثناء الحملة الصليبية الأولى التي انتهت باحتلال

أراضي إسلامية بما فيها القدس، ومع ذلك فقد بقي الغزالي يعمل على القوى الاسلامية الداخلية (الشيعة خاصة والاسماعلية بالأخص) ولا يقول شيئا عن القوى الاجنبية الغالبة، فالاصلاح دائما يكون حسب المنطق المعهود : أي إرجاع الحافز إليه إلى خلل داخلي حل بالأمة وتفسير هذا الخلل بالخلاف، أي إفتراق المسلمين فرقا متصارعة، والتماس الحل في توحيد الذهن والسياسة، وطريق هذا كله العودة إلى الاسلام الأصل.

ونفس الرأي نجده بالمغرب خلال القرن السادس عشر، عند محمد ابن يجبش التازي (توفي سنة 920 هـ/15 ـ 1514) ـ مثلا ـ في العهد الوطاسي ـ وقد عاصر سقوط غرناطة سنة 1482، وسقوط عدد من الثغور المغربية بأيدي البرتغال ـ، إذ يقول في مشروعه : «. . . واجتهدوا في جمع كلمتكم ينجح رأيكم وتظفروا ـ إن شاء الله ـ بطلبتكم. أما سمعتم قول مولانا «جل وعلا وهو أصدق القائلين» : فاتقوا الله، وأصلحوا ذات البين بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين»، وقال عز وجل» : «ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم»، «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم. . . » [3]. في هذا الخطاب كما نرى الحاح على الوحدة باعتبارها الحل الوحيد لمواجهة الغزو الأجنبي دون الالتفات الى الغير الغالب رغم أن أوروبا كانت تعيش آنذاك نهضتها في مختلف الميادين، أي أن مشروعه يبقى في إطار الاصلاح الذاتي دونما حاجة الى الغير.

غير أنه في القرن 19 صار الاقتناع بأن الخطاب الاصلاحي التقليدي لم يعد كافيا لمواجهة الطوارىء، وبالتالي لابد من الالتجاء الى التحديث، لكن هذا الأخير كان يطرح ضرورة تجاوز التنظيمات السلفية التقليدية واللجوء الى الابتكار والخلق، وبالتالي قد يثير المعارضة لدى العلماء، فالتجأ السلطان الى هؤلاء للحصول على رخصة شرعية تمنحه حرية العمل في هذا التحديث، غير أن ما يثير الانتباه هو طبيعة الأجوبة التي قدمها العلماء حول تحديث الجيش خلال القرن 19، فقد استفسر كل من السلطان عبد الرحمان وخلفه محمد الرابع وخلفه الحسن الأول العلماء عن حكم هذا التحديث وصورته ولكنهم بدل أن يركزوا في أجوبتهم على الجيش وتحديثه وطبيعة هذا التحديث ركزوا فيها على تقديم مخطط واضح ومفصل لتحديث الدولة بمختلف مرافقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بحيث جعلوا قضية تحديث الجيش جزئية أدخلوها ضمن القضية الكلية الأساسية وهي ضرورة الاصلاح الكلي

للبلاد وإنقاذها من الانهيار. وهكذا جاءت الأجوبة التي قدموها حول تحديث الجيش عبارة عن كتب ورسائل وبحوث تمثل عروضا مفصلة هامة جدا حول طبيعة هذا الاصلاح والتحديث.

وقد شملت هذه الأجوبة المحاور الآتية :

ـ **الجيش** : قدم مجموعة من العلماء مشاريعهم لتحديث الجيش كعنصر هام من عناصر بناء الدولة الحديثة لمواجهة التدخل الأوروبي بالمغرب. ومن بين الرسائل رسالة سماها صاحبها : **رسالة العبد الضعيف الى السلطان الشريف** [4]، ومما يدل على وعيه الكبير بالمخطط الفرنسي قوله : «بان النصارى ملكوا الجزائر ووصلوا إلى وهران وتلمسان . . . . وإلى تافنا . . . وطمعوا في الوصول الى مدينة فاس التي هي دار ملكك ومحل حكمك. . .» [5]، ويحثه على الجهاد (بمفهومه الواسع أي التحديث) والا فان مصير المغرب سينتهي لى ما انتهت اليه الجزائر حتما.

هناك كتاب آخر في موضوع تحديث الجيش وضعه محمد بن عبد القادر الكردودي (ت. 1268/1852) اسمه **كشف الغمة في بيان ان حرب النظام حق على هذه الأمة**. [6] ابدى إعجابه الشديد بالتنظيم العسكري الأوروبي : «واعتنى الروم لوقتنا هذا بأمر الصفوف وبالغوا في ترتيبها وتسويتها بما لا مزيد عليه» [7]. وكذلك **الجواب البسيط** [8]، وهو جواب عن أسئلة للأمير عبد القادر الجزائري متعلقة بالجهاد والمشاكل المالية كالضرائب والاعانات المفروضة على القبائل **وموقف القبائل من الفرنسيين**، وهي للامام على بن عبد السلام التسولي وهو من الكتب السياسية الهامة التي تعرضت لضرورة الاصلاح الكلي، وهو يؤكد على ضرورة تحديث الجيش ويقدم تصورا لطبيعة هذا التحديث، وأكد على ضرورة إصلاح وضبط القبائل وتوجيهها على المستوى الداخلي في حين حدد علاقة الدولة بالتدخل الأجنبي حيث أفتى بجواز عقد الهدنة والصلح مع الدولة المسيحية رغم تدخلها في البلاد اذا عجزت الدولة عن صدها بالقوة ورأت في المهادنة مصلحة للأمة.

وهناك كتب ورسائل اخرى لاداعي لاستعراضها لانها تسير في نفس الاتجاه.

ـ الشورى : طبيعة المؤسسة السياسية القائمة

ارتأى العلماء أيضا أن تحديث الدولة يتركز أساسا، على قيام نظام يعتمد الشورى أساسا، لأنهم يعتبرون أن تقدم أوروبا راجع أساسا الى تنظيم الجهاز السياسي

المعتمد على النظام النيابي، وهكذا سجل الصفار محمد بن عبد الله [9] أثناء زيارته لفرنسا زيارته للبرلمان، وبحث في نظامه واختصاصات أعضائه، وتشريع القوانين، وكذلك نظام الصحافة.

أظهر محمد الكردودي السالف الذكر ـ إعجابه الشديد بالنظام النيابي الأوروبي: «قلت والروم (الأوروبيون) لعهدنا... فيما بلغت قصروا الشورى على أربعين رجلا، فلا يبرم أمر عندهم إلا تأن صدر تعن رأيهم واستشارتهم، وتسمى هذه الجماعة بالكرطي...» [10].

كما دعى الغالي بن محمد الحسني الادريسي العمراني اللجائي (ت 1289/1872) السلطان محمد الرابع في كتابه **مقمع الكفرة بالسنان والحسام في بيان ايجاب الاستعداد وحرب النظام** [11] إلى ممارسة حق الشورى مبينا باللآيات القرآنية والأحاديث النبوية ضرورة ضبط المصالح السياسية للأمة بواسطة «نظام الشورى» النظام النيابي

ـ السلطـة :

يسجل العربي المشرفي أن أغلب الذين بعتهم السلطان محمد الرابع الى أوروبا عادوا يستعظمون وينوهون بضبط الأحكام ونفوذ الكلمة [12].

وهكذا فقد توجه العلماء الى السلطة التنفيذية انطلاقا من السلطان الى الوزراء والقواد والعمال، اذ أكدوا على التربية السياسية للسلطان نفسه، وهاجموا بعض الوزراء والولاة للتسلط الذي كانوا يفرضونه على الشعب، مثل الغالي اللجائي ـ السالف الذكر ـ في كتابه **مقمع الكفرة**... الذي ألح على ضرورة التربية السياسية للسلطان وما يجب أن يكون عليه من عدل واستقامة وصبر وثقة بالنفس وعفو وسخاء.

ونفس الشيء نجده عند محمد الفلاق السفياني (ت 1312 / 1875) في كتابه **تاج الملك المبتكر ومداده من خراج وعسكر** [13] ألفه بطلب من السلطان محمد الرابع، اذ ركز بالخصوص على العدل والاستقامة والشورى وعلى السياسة التي يجب

أن يتوفر عليها الملك من دهاء وحكمة وصبر منددا بالاستبداد والظلم والطغيان، كما تعرض لضرورة استقامة الوزراء وإصلاح العمال.

- **العلـــوم التقنية :**

أصبح هنـاك اقتنـاع جازم بالنسبة لفئة معينة من العلماء بضرورة الاستفادة من المخترعات العلمية الحديثة، فينوه العربي المشرفي بالمبتكرات في المواصلات البرية والبحرية وبالمطبعة والادوات المنزلية ويخصص لذلك الباب السادس من كتابه **نزهة الابصـار** [14] وهـو يذيل عرضـه للمخـترعات بهذه الفقرة» : . . . . وكلما فعلوه واخترعوه فيه مصلحة للمسلمين، وقد عم نفعه . . . ».
ويعد المشرفي نشير الى الشيخ إبراهيم التادلي الرباطي، وكان لا يرى حرجا في تعلم مباديء بعض اللغات الأجنبية الحية [15].

ويعرف أحمد الناصري قراء كتابه بما صارت إليه أوروبا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع آلالات الحربية ويثير إنتباه شعبه الى مدى تقدم الغرب : « إن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا علوا منكرا، وظهر ظهورا لاكفاء له واسرعت أحـوالـه في التقـدم والـزيادة إسراعا متضاعفا كتضاعف حبات القمح في بيوت الشطرنج . . . » [16].

وفعلا توجهت عدة بعثات علمية إلى أوربا، فقد بعث الحسن الأول - مثلا - عدة بعثـات منها : بعثة مكونة من 15 طالبا الى انجلترا وايطاليا واسبانيا وفرنسا وبـروسـيا وذلـك سنـة 1291 / 1874) وبـعـثـات أخـرى في سنـوات 1876/1879 . . .

كانت هذه الجهود في مجموعها ذات أهمية كبرى ولكن ولم تسند الى عدد كبير من الخـريجين مسؤوليات عامـة في نطاق تخصصهم اذ ظل التخـطيط والتـوجيه والـرواتب المغربية وفقا على العسكريين والأوربيين، أضف الى ذلك ان الوظيفة العمومية لم تكن منظمة ولا الرواتب قارة أو كافية، ولم تكن هناك تنظيمات توحد شمل المهندسين والتقنيين الوطنيين، فحالما يعودون الى أرض الوطن يتوزعون بين المـدن ويتركون لشأنهم، ومع الأيام يذب اليأس الى نفوسهم وينتهي بهم الأمر الى

ممارسة حرفة بعيدة عن تخصصهم. ويرجع سبب فشل هذه المحاولة الى ان المجتمع نفسه لم يكن منظما لذلك، لذلك لم يستطع استيعابهم خاصة ان الامر يعصف باستقلال البلاد؛ ويستند أنصار هذا الرأي الى اعتبار ما صارت اليه الدول الاخرى التي قادتها عمليات الاصلاح الى الوقوع في شرك الحكم الأجنبي. وهذا رأي توافق عليه وتستغله الدول الاستعمارية نفسها التي كان همها اضعاف الدولة المغربية في حين كان الاصلاح الا ساسي والاول يكمن في تقويتها حتى تكونه قادرة على مجابهة التوغل الاستعماري ودفع خطره عن البلاد.

وعلى كل فتلك محاولة عرفها المغرب خلال فترة معينة لبناء دولته الحديثة، لكن حالت ظروف داخلية وخارجية دون هذه المحاولة وجعلته يرضخ تحت نير الاصلاحات الشكلية ابان فترة الحماية. وقد كان رد فعل المغاربة قويا واستطاعوا في كثير من الأحيان الانتباه الى النوايا الحقيقية من وراء «حركة الاصلاح» هاته ووعوا في نفس الوقت جيدا قيمة التنظيم السياسي والاداري والاقتصادي للمجتمع وأنه السبيل الوحيد والأساسي لبناءء دولتهم الحديثة.

هوامش

(*) أعد برسم الندوة التي انعقدت بالجزائر في موضوع : «تكوين الدول المعاصرة بالمغرب العربي». وقد نشر بالمجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، عدد 7ـ8 / 1988

(1) انظر جوزيف شترايرر، الأصول الوسيطة للدولة الحديثة، ص 9 ـ 14

(2) بدا واضحا أنه متخلف ليس فقط عن أوروبا ولكن حتى عن بعض الاقطار العربية كمصر أو الاسلامية كتركيا، فبدأ يرسل بعثاته إلى هنالك لاجل التكوين.

(3) كتاب الجهاد ص. 139.

(4) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1623 د

(5) المصدر السابق، ص. 11 ـ 12

(6) طبع على الحجر بفاس سنة 1303 / 1886.

(7) المصدر السابق، ص. 6.

(8) طبع على الحجر بفاس في نحو 80 صفحة.

(9) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 113

(10) كشف الغمة . . . ، ص 46.

ملاحظة : الكرطي : يقصد به الكورطيس Cortes وهو مجلس البرلمان الاسباني كما هو معروف

(11) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 1030.

(12) الحسام المشرفي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم : 2276 ك ص. 321.

(13) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم : 2502

(14) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 579 د، ص. 527 ـ 528

(15) انظر محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب في العصر الحديث، 1 : 252 ـ 253

(16) الاستقصا، 9 : 208.

العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن السادس عشر
العهد السعدي الأول نموذجا (*)

ان أهم شيء يمكن ملاحظته ونحن بصدد الحديث عن العلاقات المغربية الاسبانية خلال القرن السادس عشر هو التقارب الذي كان يقع باستمرار بين المغرب والاسبان نتيجة الضغط التركي مما سيؤثر عمليا على قضيتين أساسيتين ظلتا محور الأحداث طيلة هذه الفترة وهما قضية الثغور المحتلة، وقضية الموركسيين.

- 1 -

بمجرد وصول محمد الشيخ السعدي الى فاس بدأت تبدو في الأفق ملامح السياسة الاسبانية تجاه المغرب، فقد كان الاسبان يترقبون التعاون التام بين محمد الشيخ السعدي والأتراك [1] ويهيئون انفسهم لهذا الظرف الجديد، خاصة انهم يعلمون ان هذا التقارب سيكون له تأثير كبير على القضيتين الاساسيتين : الثغور المغربية المحتلة والقضية الموركسية.

ففيما يتعلق بالثغور المحتلة تشير الوثائق الاسبانية إلى ان السلطان السعدي ساع في بناء أسطول بحري لتحرير جميع السواحل المغربية، خاصة أنه يملك موانيء مهمة على المحيط مثل العرائش والمعمورة وسلا وأسفي، وبإمكانه بناء السفن في مدينة فاس وحملها الى المعمورة عن طريق وادي سبو، ولن يجد صعوبة في ذلك لان التجار الاجانب والفرنسيين خاصة يمكنهم ان يزودوه بمختلف المواد اللازمة لذلك [2]

القضية الموركسية : كان موركسيو غرناطة يتقاطرون باستمرار على فاس للانضمام الى محمد الشيخ، وكانوا يحثونه على توجيه ضربة للاسبان في الصميم، وذلك بالهجوم عليهم في معاقلهم الرئيسية بالمغرب [3] خاصة أن صدى انتصارات محمد الشيخ قد تعدى الحدود ليصل إلى موركسيي إسبانيا نفسها، إذ كان لهم أمل

قوي في أن يأتي الشريف السعدي لخلاصهم على أساس أن يقوموا بثورة في الداخل متى شعروا باقترابه من اسبانيا [4] .

وقد كان رد فعل الاسبان على مستويين :

ـ مستوى تدعيم الثغور سواء منها الاسبانية أو البرتغالية، وذلك نتيجة تخوف الاسبان من الخطر المغربي، واعتبار الثغور البرتغالية حزام أمن متقدم للدفاع عن شبه الجزيرة الايبرية، وتمكن من مراقبة الملاحة في المضيق، وعرقلة الاتصال بين المغاربة وموريسكي غرناطة، والحد من نشاط مجاهدي تطوان وسلا والعرائش [5] .

ـ على المستوى التجاري : صدر في 29 مارس 1549 أمر ملكي من شارل الخامس يمنع كل العلاقات التجارية بين موانيء الأندلس وموانيء سلا والعرائش وغيرها من الموانيء الخاضعة للحكم السعدي [6] وقد برر هذا القرار بعدة أسباب، منها :

1 ـ الاتجار في القمح يؤدي إلى نقصه بإسبانيا وغلائه.
2 ـ تصدير الأثواب والأغطية الى المغرب يؤدي الى وفرتها بكثرة وانخفاض ثمنها، مما يؤدي الى صعوبة افتكاك الاسرى، لانه يتم على أساس هذه السلع، وقد سبق في الماضي ان اغرقت أسواق بادس بالأثواب الاسبانية فرخص ثمنها وتأثرت عملية الافتكاك بذلك، بحيث وصل ثمن الاسير الذي كان يفتك سابقا بعشر دوكات الى مائة وخمسين دوكا.
3 ـ ستسمح التجارة مع المغرب بتهريب الاسلحة
4 ـ حرية التجارة تمكن المغاربة من الاطلاع على تحركات الأسطول الاسباني وعلى الأوضاع داخل اسبانيا.
5 ـ الموريسكيون الذي يتعاطون التجارة مع المغرب «يعودون» إلى ديانتهم الأولى بمجرد التحاقهم بالمغرب [7] .

لكن الأطماع التركية في المغرب افشلت جميع الجهود، واضطرت محمد الشيخ الى التقرب من الاسبان، بل وطلب المساعدة منهم لمواجهة الاتراك . [8]

وقد أرسل حاكم وهران فعلا الى فاس وفدا يتكون من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع محمد الشيخ حول تهيىء حملة مشتركة اسبانية مغربية ضد الأتراك [9] .

وقـام العثمانيون بأول رد فعـل على التقارب السعدي الاسباني، إذ شددوا الحصـار على وهـران باعتبـار أن حاكمهـا الاسبـاني كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد، الا أن جميع الجهود فشلت نتيجة للنجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا للمدينة المحاصرة.

وقد أرسل الاتراك اثر هذا سفيرا الى الشيخ يعدونه بالمساعدة لمحاربة المسيحيين شريطة ان يعترف بالسيادة العثمانية [10] وهذا ما يوضحه المؤرخ المجهول قائلا : «. . . وفد عليه رسول السلطان سليم صاحب اصطنبول وهو لسعده بملكه ويهنيه به ويعلمه بما كان عليه بنو مرين من الهدايا والوداد والخدمة والميل اليه والرغبة فيه وانه في نصرتهم. وقد كان ظهر ذلك مع آخر ملوك دولتهم أبي حسون الذي أعطاه أربعة آلاف من جيش الجزائر ودخل بها فاس فسكت عنه ولم يجبه بشيء وبقي عنده الى أن طال جلوس الرسول فطلب منه ان يسرحه فقال له مولاي محمد الشيخ : سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان الغرب لابد أن ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه : إن شاء الله ويأتيك الى مصر . . .» [11].

وإثر هذا الرد أرسل السلطان التركي قوات الى الجزائر ليستعين بها الحاكم العام على احتلال المغرب، لكنهم عدلوا عن ذلك نتيجة التقارب السعدي الاسباني [12]

ونتيجة لهذه الظروف : ظروف التقارب المغربي الاسباني، وتحت ضغط التجار الاسبان، وخاصة تجار المدن التي تعتمد اعتمادا أكبر على التجارة مع المغرب مثل : قادس، ومالقة، واشبيلية، فقد صدر مرسوم يسمح بالتجارة مع المغرب لكن في حدود معينة [13] :

1 ـ ألا يسمح بالتجارة مع بادس أو الجزائر إلا بواسطة تصريح خاص.
2 ـ يجب أن يتم التبادل بالنسبة لاسبانيا انطلاقا من موانيء الأندلس ومممالك غرناطة ومرسيه.
3 ـ لا يسمح بتصدير أو الاستيراد إلا البضائع المرخص بها.
4 ـ يمنع ادخال البضائع التالية الى افريقيا : الذهب والفضة والأسلحة أو أية بضائع أخرى ممنوعة حسب القانون.
5 ـ يشترط على من يذهب الى المغرب أو الاتجار به ما يلي :
ـ أن يكون مسيحيا قديما.

- ألا يكون من اصل مغربي أو يهودي.
- ألا يكون غير مشكوك في تعامله مع المغاربة.
- ألا يكون من الفئات التالية : الضباط، الصناع في مجال الخشب، والحديد، والسفن، والبارود. . .

6 - لا يمكث التجار في المغرب أكثر من سنة، ولا بد أن يقضوا بعدها شهرين على الأقل بإسبانيا

7 - تسجل البضائع في الموانيء عند التصدير والاستيراد، وتؤخذ حقوق الجمارك مسبقا قبل الذهاب، كما تؤخذ أجرة المراقبين.

8 - عند اتمام المراقبة والتفتيش يركب المعنيون بالأمر في السفن ولا يغادروها أبدا قبل الاقلاع.

والواقع أن تعدد هذه الشروط تدل على تخوف الاسبان من أن يكون لهذه العلاقات التجارية مع المغرب نتائج في المجال السياسي غير النتائج التي كانوا يهدفون إليها، لانهم دائما كانوا يفرقون بين مصلحة التجار ومصلحة الدولة، لأن مصلحة التجار الاسبان كانت لا تسير دائما مع مصالح الدولة

وفعلا إذا حاولنا أن نقوم هذه العلاقة فإننا سوف نلاحظ أن هناك جوانب إيجابية وسلبية بالنسبة للاسبان :

- فيما يتعلق بالجوانب الايجابية نذكر ما يلي :

- اسدى التجار الاسبان خدمات عديدة لدولتهم، فبواسطة هؤلاء كانت تحصل على ما تريده من معلومات عن أحوال المغرب، كما أن التجارة اتخذت كغطاء لتحركات الجواسيس والمبعوثين السريين الاسبان [14].

- كما كان بعض التجار يعملون على افتكاك الاسرى [15]

أما الجوانب السلبية بالنسبة للاسبان فهي متعددة، نذكر من بينها .

- استغلال عدد من التجار الاسبان لهذا القرار لبيع الأسلحة، والمواد الممنوعة للمغرب [16].

- استغل عدد من المورسكيين هذا القرار للفرار إلى المغرب، بل ومحاربة الاسبان أنفسهم في عقر دارهم [17].

ـ 2 ـ

ازداد تقارب المغرب من الاسبان، بل من دول أوروبية أخرى [18] إثر التجاء الاتراك الى اغتيال محمد الشيخ [19] فقد انتهج ابنه عبد الله الغالب نفس سياسة والده، ويتجلى هذا بالخصوص في نقطتين :

ـ احتلال بادس : إذ اطلق يد الاسبان في احتلالها خاصة انها كانت بيد العثمانيين منذ أن تنازل لهم عنها أبو حسون الوطاسي مقابل مساعدته له ضد محمد الشيخ، ولانها كانت مثار رعب وخوف بالنسبة له، يقول المؤرخ المجهول في هذا الصدد «. . . وكانت عمارة أهل الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسى بادس ومسافري أهل الجزائر لا يركبون إلى المشرق أو المغرب إلا من بادس ولا تنقطع معها عمارة الترك في كل أوان فاهتم مولاي عبد الله منذ ذلك وقنط منه وخاف أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد إلى المغرب فكتب الى سلطان النصارى واتفق معه أن يخطي له الادالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنقطع مادة الترك من تلك الناحية . . .» [20] .

بالاضافة الى هذا فإن الاسبان كانوا يدركون فعلا الأهمية الاستراتيجية لهذه الجزيرة، فهي أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق ومالقة، وكانت مصدر قلق بالنسبة لهم إذ كانت مقر المجاهدين البحريين الذين كانوا يلحقون خسائر فادحة حتى بالسفن التجارية الاسبانية. [21]

ـ موقف عبد الله الغالب من ثورة المورسكيين بغرناطة (1568) [22] :

يقول المؤرخ المجهول وهو بصدد الحديث عن ثورة المورسكيين بغرناطة : «. . . فصاروا يكتبون الى ملوك المسلمين شرقا وغربا وهم يناشدونهم الله في الاغاثة وأكثر كتبهم الى مولاي عبد الله لانه هو القريب الى أرضهم . . . فأمرهم غشا منه بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم بظهور فعلهم، فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة وكذب عليهم غشا منه لهم ولذئين الله عز وجل ومصلحة لملكه الزائل . . .» . [23]

وعن السبب الذي جعل عبد الله الغالب لا يقدم المساعدة للموركسيين في ثورتهم يذكر نفس المصدر : « . . . وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات . . . » [24] .

وهكذا فقد التجأ السلطان السعدي الى التقارب في سياسته مع الاسبان تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب، إذ كانت علاقته مع الاسبان تشكل عامل توازن بالمنطقة يستخدمه في مواجهة الاطماع التركية أي أنه كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة : اما التنازل عن نقط معينة للاسبان وغيرهم أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الاتراك.

ـ 3 ـ

سوف تتكرر الأحداث بنفس النسق تقريبا في عمل أحمد المنصور الذهبي فقد واجه الأتراك بعنف وهو في أوائل حكمه . [25] بل وأعطيت الأوامر الى علوج علي قائد الأسطول العثماني لغزو المغرب، وقد وصل القائد بالفعل إلى الجزائر في يونيو 1581 بينما كان المنصور يرابط بقوات جرارة عند نهر تانسيفت . [26]، وهذا ما جعله يتقرب أكثر من الاسبان، بل ويعدهم بالتنازل عن العرائش [27] .

وسيكون لهذا التقارب أيضا تأثير على القضيتين الاساسيتين :
الثغور المحتلة : ألح العلماء على ضرورة استغلال نصر معركة وادي المخازن في سبيل تحرير الثغور المحتلة، فهذا الشيخ، رضوان الجنوي ـ مثلا ـ يذكر في رسالة موجهة للمنصور : « . . . وإلى هذا فالله، الله في الحزم وامضاء العزم وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز الفرصة الممكنة في هذا الوقت من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلا وسبتة فإنهم في هذه الساعة في دهش وخزي وذلان بها أمكن الله منهم، ولا أظن ـ نصركم الله ـ مثل هذا يخفي عليكم حتى تحتاج أن نذكركم به . . . . » [28] .

لكن المنصور لم يستطع أن يفعل أي شيء يؤدي به الى الارتماء بين أحضان الأتراك، لهذا فضل التريث والمناورة.
ـ أما فيما يتعلق بالقضية الموركسية فمن الطبيعي أن يكون أيضا تأثير لهذا

التقـــارب على المـــورسكيين بإسبـانيا، ففي صيف عام 1580 اكتشفت مؤامـرة موركسية واسعة النطاق، وقد يكون سفراء المنصور أنفسهم هم الذين افشوا سرها للاسبان [29] فتحالف المورسكيين مع الاتراك، كان يجعله دائما حذرا منهم.

وخلاصة القول : لا يمكن فهم العلاقات المغربية الاسبانية خلال هذه الفترة إلا من خلال العلاقات المغربية التركية كعنصر مؤثر فيها بدليل أن هذه العلاقات ستعرف وجهة أخرى حين اختفاء التهديد التركي للمغرب، وحين هزيمه الاسبان في معركة الارمادا ضد الانجليز في 10 غشت 1588.

إذ سيلتجيء المنصور الى التحالف مع هؤلاء ضد الاسبان، وسوف يسعى جادا لتحرير الثغور المغربية، وتقديم المساعدة للموركسيين داخل المغرب وخارجه. [30]

هوامش

(*) أعد برسم الندوة التكريمية للأستاذ محمد حجي (كلية الآداب بالرباط، 1990) وقد نشر بمجلة المناهل العدد 38، سنة 1989، ص 184 ـ 193.

(1) تكشف التقارير والرسائل التي بعثها حاكم وهران الاسباني الكونت الكوديت الى حكومته عن أن محمد الشيخ كتب إلى باشا الجزائر واقترح عليه القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير، وأنه بعث بهدايا الى درعوت باشا يقترح عليه كذلك الدخول في حرب ضد اسبانيا
انظر: المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسبانيا السلسلة الأولى، 246 . 1

(2) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسبانيا، السلسلة الأولى، 242 1

(3) انظر محمد رزوق، الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 164

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) R. Ricard, les places portugaises du Maroc et le commerce d'Andalousie in **Annales de l'Institut d'Etudes Orientales** 1983, Alger, T VI page 131.

(6) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسبانيا، السلسلة الأولى، 214 / 1

(7) المصدر السابق 57 1

(8) المصدر السابق 270 . 2

(9) المصدر السابق، 181 : 2

(10) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسبانيا، السلسلة الأولى ، 42 : 2

(13) لأن تخوف الاسبان ظل قائما رغم الظروف المستحدثة.

(14) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسبانيا، السلسلة الأولى، 307 . 1

(15) المصدر السابق، 46 : 4

(16) المصدر السابق 86 : 5

(17) محمد رزوق، المصدر السابق، 87 ـ 88

(18) تراجع عن تحرير الريجة (الجديدة) بعد أن اقترب المجاهدون من تخليصها من أيدي البرتغال، كما تنازل للفرنسيين عن القصر الصغير.

(19) أبو القاسم الزياني، الترجمان المعرب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 658 د، ص 347

(20) تاريخ الدولة السعدية، ص 36

(21) انظر الحسن الوزان، وصف افريقيا، 253 ـ 254
مارمول كاربخال، افريقيا، 2 : 230 ـ 243.

(22) عن تفاصيل هذه الثورة، انظر . محمد رزوق، المصدر السابق 92 ـ 103

(23) تاريخ الدولة السعدية، ص 37 ـ 38.

(24) المصدر السابق، 38

(25) انظر محمد رزوق، المصدر السابق، 178 ـ 187

(26) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 61.

(27) كان الاسبان يدركون جيدا الأهمية الاستراتيجية لهذا المرفأ الهام بالاضافة الى أنها كانت كمنطلق للعمليات الجهادية التي كان يقوم بها المجاهدون البحريون ضد السفن التجارية الاسبانية
انظر المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، الأراضي المنخفضة، السلسلة الأولى، 194 ـ 191 : 1.

(28) أحمد المرابي، تحفة الاخوان، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 154 ك، ص 423 ـ 424.

(29) محمد رزوق، المصدر السابق، 181

(30) المصدر السابق، 186 ـ 187

دور الكناشات في الكتابات التاريخية المغربية (*)

كثيرا ما ردد الباحثون انتقادهم للوثائق الرسمية من حيث أنها لاتفيد في معرفة ملامح الحياة العامة، وأنها تقتصر فقط على علاقات السكان بالدولة. وأثاروا الانتباه الى ضرورة البحث عن مصادر أخرى لاستجلاء تلك الملامح، واتجه نظرهم في هذا الشأن الى الوثائق الخاصة التي تحتفظ بها بعض الاسر، وهي تتكون من عقود الانكحة، والطلاق، والخلع، وملكية الأرض، ووالرهان، والبيوع وجرائد الشركات وضوابط عدد من المعاملات المتعددة الوجوه كشركات القراض، والسلم، والسلف وغيرها. وقد سبق أن أكد جاك بيرك ـ مثلا ـ على أهمية هذه الوثائق الخاصة ولاحظ مدى حرص ناس جبال الأطلس على كتابه معاملاتهم، كما سبق أن استغلها في أبحاثه في منطقة سكساوة. [1]

وبالاضافة الى ذلك فإننا نعثر فيها على إشارات تاريخية هامة تتعلق بالمواليد والوفيات والقحوط والمجاعات، والأوبئة وتواريخ تعيينات حكام القبائل أو صراعات الجماعات إلى غير ذلك من الأحداث المحلية وحتى العامة في بعض الأحيان وغالبا ما نجد هذه الوثائق عند ورثة القواد والشيوخ والطلبة والمرابطين والقضاء والعدول والكتاب المخزنيين وحفظة وثائق القبائل وأعرافها. وقد كان عدد من الزوايا والأضرحة في الماضي مستودعا أمينا للوثائق، ولولا التفريط في بعض ودائع هذه الزوايا لكانت بمثابة أرشيف محلي.

وسوف نحاول أن نتناول بالدرس نوعا واحدا من هذه الوثائق الخاصة، ألا وهو الكناشات، لنبين الدور الذي يلعبه هذا النوع من الوثائق في الكتابات التاريخية المغربية خاصة أن المغرب يتوفر على رصيد مهم منها موزع بين الخزائن الخاصة والعامة. [2] وقد أكد ذلك أيضا محمد المختار السوسي بقوله : «وما أكثر أمثال هذه الكنانيش عند العلماء» [3]، وذكر عبد السلام بن سودة أنه كان يتوفر على أزيد من أربعين كناشة في خزانته الخاصة. [4]، ووصف أزيد من 56 كناشة في كتابه. [5]

مفهوم الكناشة :

الكناشة مذكرة يسجل فيها الشخص ما وقع له من الأحداث، أو كان شاهد عيان على وقوعها، كما يدون فيها ما نظمه من الأشعار، أو ما راج بينه وبين أقرانه من مساجلات أدبية، أو مناظرات علمية إلى غير ذلك. . . وكثيرا ما توجد للفرد الواحد عدة كنانيش لسعة اطلاعه ووفرة مباحثه [6]، ومما يدل على اهتمام المغاربة بهذه الكنانيش أن كثيرا من العلماء لا نجد لهم تأليف في موضوع معين ولكن نجد لهم عدة كنانيش تضم خلاصة أبحاثهم.

وتنتشر هذه المذكرات بالشرق أيضا، غير أنهم يطلقون عليها في الغالب اسما آخر (التذكرة)، مثل تذكرة ابن خلدون، وتذكرة ابن مكتوم وتذكرة الصفدي. [7]

وهكذا فقد أصبح لفظ كناشة اسما مغربيا صميما، كما يشير الى ذلك شارح القاموس بقوله: «. . . ومنه الكناشة لاوراق تجعل كالدفتر، تقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط، هكذا استعمله المغاربة، واستعمله شيخنا محمد بن الطيب الشركي» [8].

كما أكد ذلك دوزي أيضا: « والكناشة عند المغاربة مجموعة تدرج فيها قواعد وفوائد» [9].

ولم يستعمل هذا اللفظ (كناشة) أيضا في الأندلس، وإنما يذكر لسان الدين ابن الخطيب اسم الكناش ـ بالتذكير ـ للدلالة على موضوعين من مؤلفاته. [10]

ظهور الكناشة بالمغرب :

لا يعرف ـ بالضبط ـ تاريخ ظهور هذه المذكرات بالمغرب، وأقدم كناشة مذكورة كانت لعبد الرحمان الجادري (ت. 818/1415 ـ 1416)، إذ وقف عليها أبو حامة محمد العربي الفاسي (ت. 1052/1642) وأفاد منها في بعض مؤلفاته. [11]

ومن المؤكد أن هذه التسمية بدأت تنتشر منذ الفترة الوطاسية، وهكذا استعمل اسم الكناش عنوانا للترجمة الذاتية التي كتبها لنفسه أبو العباس أحمد زروق (ت. 899 هـ/1493 ـ 1494) [12] ويأتي بعده عبد الواحد الونشريسي، إذ ورد على أنه خلف عدد من الكنانيش [13]، وكذلك الشأن بالنسبة لعبد الرحمان سقين (ت. 956 هـ/1549).

الكناشات في العهد السعدي :

يعتبر العصر السعدي فترة انتظام أكثر لهذه المذكرات، وهكذا فإن المنجور يشير في طالعة فهرسته [14] إلى مجموعة من كنانيشه، كما أن أحمد بابا التنبكتي يصنف الكناشات من بيين مصادرها مؤلفاته. [15] ونشير أيضا في هذا الصدد الى محمد بن قاسم القصار القيسي (ت. 1012/1604) الذي كان كثير التقييد في بطاقات ترك منها أعدادا وفيرة، وصارت بعد وفاته تباع بالأرطال. [16] ويحتذي حذو القصار نخبة من طلابه، منهم عبد الرحمان الفاسي [17]، وأبو حامد محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي، وكان له من الاعتناء بتقييد شوارد الفوائد ما لم يكن لغيره، حتى أنه يكون راكبا في السفر فيتذكر مسألة يبدو له فيها جديد، فيوقف فرسه حتى يسجل ما عن له في الوقت ثم يتابع السير [18]، ويقول عنه الحسن اليوسي أنه كان منذ دأبه متى لقي انسانا يسأله من أي بلد هو؟ ومن ببلده من أهل العلم والصلاح والأعيان، ويقيد ذلك كله [19].

وقد عر ف العصر العلوي نفس الاهتمام بهذه الكناشات [20].

بعض مميزات هذه الكناشات :

ـ تسجل فيها المقيدات بدون انتظام، إذ يدون فيها صاحبها ما يهمه حسبما اتفق له، ولهذا لم تكن مبوبة في الغالب، وقليل منهك يصدر بفهرس للكشف عن الموضوعات، وقد يتداول كتابتها أكثر من واحد.

ـ من حيث الخط : خطها على العموم من النوع السريع الدقيق المدمج، وفي غالب الأحيان تكون هذه الكناشات بخطوط أصحابها.

من حيث موضوعاتها : تعكس في الغالب اتجاه أصحابها، فيغلب ـ الفقه على مقيدات الفقيه، والأدب على مقيدات الاديب، والتصوف على مقيدات المتصوف، والتاريخ على مدونات المؤرخ وهكذا. . .

ـ غالبية هذه المدونات لا تحمل اسم صاحبها أو أصحابها بطريقة واضحة، وإنما يستخرج ذلك عرضا من ثنايا المقيدات، أو بواسطة مقارنة الخط.

ـ من مزايا هذه الكناشات انها قد تنفرد بإفادات تاريخية منوعه، وربما تكون غير معروفة بالمرة، فتكشف عن معلومات جديدة : في موضوع التراجم أو أحداث مجهولة يجليها شاهد عيان، أو اقتباسات من مؤلفات صارت ضائعه، وأحيانا يقع العثور على حقائق لم تكن إذاعتها ميسورة في حياة مدونها، هذا الى أن عديدا من هذه المقيدات يستفاد منها الترجمة الذاتية لصاحبها كلا أو بعض.

هل يعتمد المؤرخ كل ما ورد في هذه الكناشات ؟

إذا كان من وظيفة المؤرخ ألا يهمل أي مصدر يمكنه من الاستفادة في التاريخ لقضية من القضايا التاريخية، فإن هذا يجب ألا يجره الى الأخذ بكل ما وجد بين يديه ويعتمده في صياغة رأيه تجاه الموضوع المقترح بل لابد أن يضع أي شيء يتم بين يديه تحت ميزان النقد والتمحيص. كذلك الشأن بالنسبة للكناشات فيجب أن تخضعها لمعايير معينة تساعدنا على الخروج بتصور واضح حولها، [21]وهذا ما نلاحظه بالفعل عن مؤرخي المغرب القدامى، إذ لم يكونوا يعتمدون الا على الكناشات الموثوق بصحتها لاثبات حقيقة أود شبهة، فالافراني يصنف كناشه أبي زيد التمنارتي ضمن مصادر كتابه **صفوة من انتشر** (ص 228)، ومحمد بن الطيب القادري يسجل انه رجع الى كثير من الكنانيش الموثوق بها، [22]فهو ينقل ـ مثلا ـ عن كناشة أبي العباس أحمد بن أبي عسرية الفاسي، [23]، ويقول أبو الربيع الحوات عن كناش محمد العربي القادري : «طالته وقيدت منه في هذا الموضوع وغيره. . . »، [24]كما استفاد من هذه الكناشات أيضا عدد من مؤرخي القرن الحالي مثل ابن زيدان، ومحمد الكانوني، ومحمد بن علي الدكالي، والعباس بن ابراهيم، ومحمد المختار السوسي، ومحمد داود. . .

نماذج من موضوعاتها :

ـ كناشة محمد بن قاسم الزجالي الفاسي (ت 1072 / 1552) [25]وهي ملأى بالقصائد والمقطعات لادباء من العصر السعدي فضلا عن أشعار من الفترة الوطاسية، وبعض هذه الأدبيات لا يعرف إلا من خلال هذه المجموعة، وتبدو أهمية هذه المجموعة إذا لا حظنا أن ترجمة صاحبها في المصادر المعروفة لا يتعدى بضعة أسطر [26]في حين تسد هذه الكناشة بعض الفراغ في حياته فتذكر أساتذته وتشير إلى رحلته الدراسية الى القاهرة، وبعض من أخباره بصفة عامة.

تقع هذه الكناشة في 96 صفحة مكتوبة بخط صاحبها ـ على الأرجح ـ وهو خط مغربي دقيق منهج ، ليس في بدايتها مقدمة ولا في نهايتها خاتمة ، وليس فيه أيضا ما يدل على النقصان . وتشتمل هذه الكناشة على نحو ألف بيت من مختلف بحور الشعر المعروفة ، قصائد وموشحات في عصر أحمد المنصور الذهبي ، وهم على الشكل الآتي :

ملكـان ـ وفقيهـان ـ وأربعة عشر مشاركا في علوم مختلفة إلى جانب الأدب والشعر ـ وأربعة عشر أديبا صرفا ، من بينهم أدباء مغمورون أو مجهولون تماما [27]

ـ كناشة في شؤون بحارة العدوتين ، [28] إبتداء من شعبان 1183 / 1769 .

وهي تشتمل على لوائح بأسماء بحارة مدينتي الرباط وسلا وما يتقاضونه من الأجور ، وهو أمر بالغ الأهمية إذا علمنا أن المصادر التاريخية تغفل عن ذكر عموم البحارة وتكتفي بذكر قادتهم المشهورين فقط ، ولا يتعرض في الغالب لاجورهم [29]

ـ كناش «مرسى العرائش» ابتداء من تاريخ 3 رجب 1334 . [30]

ـ ثلاثة كنانيش لمرسى الصويرة تهم الفترة المتراوحة ما بين 1318 و1319 . [31]

ومن الكناشات المهمة كذلك كناشة الطيب بوعشرين يتراوح تاريخها بين أعوام 1276 إلى عام 1261 هـ .

وهي تشتمل على 114 ورقة متوسطة الحجم ، وتتضمن من جملة ما تتضمن :

ـ تقاييد لمخلفات بعض القواد

ـ أسماء قواد نواحي زعير ودرعة وزمور وغمارة والريف وبني زروال .

ـ عملية احصاء المزروعات بشرق مدينة فاس .

ـ تقاييد امكاس الموازين والأبواب .

ـ ما تدفعه قبائل الحوز من القمح إلى المراسي .

ـ رسالة في موضوع رفع الحظر عن تسويق الصوف والحبوب إلى الخارج . [32]

وبعد هذه نظرة سريعة عن الكناشات ودورها في كتابة تاريخ المغرب حاولنا إثـارة الانتبـاه الى أهميتها ، ونعتقد أنه من الضروري إحصاؤها وتجمعها وفهرسة الموجودة منها في المكتبات العامة ، ومحاولة جلب ما هو عند الخواص ليوضع هو الآخر رهن إشارة الباحثين ، وأرى من جهة أخرى أنه آن الأوان لتوجيه الباحثين الشباب إلى مثل هذه الوثائق الخاصة عوض توجيههم لدراسة مواضيع تقليدية قتلت بحثا ، بل وتكرر ما سبق أن درس .

هوامش

(*) اعد بر سم الندوة التي نظمت بالجزائر (نونبر 1988) في موضوع : «المصادر والوثائق الخاصة»
(1) Notes sur l'histoire des echanges dans le Haut-Atlas in A.E.S.C 1953 PP 289 - 314 -
(2) محمد المنوني، «الكناشات المغربية ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية»، مقال مجلة المناهل، الرباط، مارس 1975، ص 210.
(3) سوس العالمة، ص. 219.
(4) دليل مؤرخ المغرب الاقصى، 2 : 462
(5) المصدر السابق، 2 : 461 ـ 470
(6) وقف عبد السلام بن سودة على أزيد من عشرة كنانيش للحافظ أبي عيسى المهدي بن الطالب. انظر المصدر السابق، 2 : 462
(7) هناك لائحة مطولة لهذه التذاكرات عند حاجي خليفة في كشف الظنون، 1 : 383، 394
(8) مرتضى الزبيدي، تاج العروس، 4 : 347.
(9) ذيل المعاجم العربية، 2 : 294.
(10) هما : أرجوزته الالفية في أصول الفقه الحلل المرقومة، في اللمع المنظومة. ورسالة مثلى الطريقة في ذم الوثيقة.
انظر نفاضة الجراب، ص 187 ـ 188.
(11) شرحه على دلائل الخيرات للجزولي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 1532، ص 113
(12) قام بتحقيقه أخيرا الباحث الليبي الدكتور علي فهمي خشيم وقد صدر بليبيا في بداية الثمانينات.
(13) فهرس أحمد المنجور، ص 50.
(14) فهرس أحمد المنجور، ص 10.
(15) نيل الابتهاج، ص 361
(16) محمد الافراني، صفوة من انتشر، ص 18.
(17)
(18) محمد الافراني، المصدر السابق، ص 71.
(19) المحاضرات، 72.
(20) انظر محمد المنوني المصدر السابق، ص 200 ـ 201.
(21) للقدماء رأي خاص في موضوع النقل من الحواشي والطرر المدونة على هوامش الكتب. فالشهاب القرافي يمنع بالمرة اعتماد هذه التعليقات المكتوبة بهوامش المؤلفات، لكن ابن فرحون يحلل نظرية القرافي يقول : «مراده إذا كانت الحواشي غريبة النقل، واما إذا كان ما فيها موجودا فلا فرق بينها وبين سائر التصانيف» تبصرة الحكام، 1 : 59.
(22) نشر المثاني، 1 : 323
(23) نشر المثاني، 3 : 158
(24) السر الظاهر، الملزمة 18 ص 3. طبعة حجرية.
(25) يوجد الاصل في ملك الاستاذ محمد الفاسي، وتوجد منها مصورة بالخزانة العامة بالرباط عدد 67
(26) أنظر مثلا ـ نشر المثاني، 2 : 127
(27) انظر مزيدا من الايضاح عن هذه الكناشة، محمد حجي، كناشة أدبية مغربية ضمن أعمال ندوة حول جوانب من الادب في المغرب الاقصى، ص 281 ـ 295.
(28) الاصل بالمكتبة الناصرية بسلا، ومنه مصورة بالخزانة العامة بالرباط رقم 1409 في 160 لوحة
(29) استفادنا بدورنا من هذه الكناشة عند إعدادنا لاطروحتنا حول الاندلسيين وجهادهم البحري بالمغرب.
(30) الخزانة الصبيحية بمدينة سلا، دون رقم
(31) نفس الخزانة
(32) انظر مزيدا من الايضاح عند محمد المنوني، المصدر السابق، ص 209 ـ 210.

ملحق لبعض الكنانيش الموجودة بالخزانة العامة بالرباط

❊ ❊ ❊

اسم الكناشة	مؤلفها أو جامعها	رقمها
كناشة السودية	محمد بن محمد بن سودة (ت. 1122/1710)	163 د
كناشة البرنسي	إبراهيم بن محمد البرنسي (ت. 1130/1717-1718)	د 1056
كناشة الحافي	أحمد بن محمد بن عاشر عبد الرحمان السلوي (ت. 1163/1749 - 1750)	1044 ك
كناشة الفيلالي	محمد بن العربي بن أحمد	ك 911
كناشة بنيس	محمد بن أحمد الفاسي (ت 1213/1799)	ك 3303
كناشة المنجرة	أبو بكر بن محمد الحسني (ت. 1240/1824).	ك 464
كناشة الغرديس	عبد العزيز	ك 1081
كناشة السريفي	أحمد بن عبد السلام	ك 1182
كناشة السرغيني	محمد بن المعطي المراكشي (ت. 1296/1878)	ك 491
كناشة ابن حلون	محمد المدني بن علي (ت 1298/1880)	ك 29
كناشة الصقلي	محمد بن أحمد الحسيني الفاسي	ك 480
كناشة ابن الفقيرة	عبد الواحد بن محمد الانصاري	د 158
كناشة بنشقرون	علال بن أحمد	ك 469

العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر (*)
(الوجود المغربي بالسودان الغربي كنموذج)

إن العلاقات العربية الأفريقية ينظر إليها اليوم نظرة خاصة منبثقة من المكوّنات السياسية والاقتصادية والثقافية التي يعيشها كلا الطرفين. إننا اليوم حينما ننظر إلى هذه العلاقات ننظر اليها على أنها علاقات جديدة منبثقة أساسا من علاقات مصلحية بين الطرفين، فالعالم العربي يعرض مساعدته على أفريقيا مقابل مواقف معينة لهذه الأخيرة تجاه القضايا العربية، وهذا فعلا ما تشجع عليه الدوائر الاستعمارية لأنها هي نفسها يمكن أن تستغل هذا العامل لصالحها. فلم يلتفت بعدئذ، إلى الجوانب الأخرى غير الاقتصاد لبعث هذه العلاقات وخاصة دراسة التراث العربي بأفريقيا، فمازالت بصمات الوجود العربي بأفريقيا موجودة إلى يومنا هذا. ومازال الأفارقة ينظرون نظرة خاصة إلى العرب ملؤها التعاطف والتضامن.
إننا نقصد من كل هذا الرجوع إلى التاريخ لاستخلاص التجربة، ولدراسة الوسائل التي استخدمها العرب لتركيز وجودهم بأفريقيا. إن العرب القدامى استطاعوا بإمكانياتهم الضعيفة أن يركزوا وجودهم بأفريقيا وإلى يومنا هذا، في حين ظل الاستعمار هامشيا رغم ضخامة وسائله وطول فترته، لأن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء المنطقة، فهم يتاجرون وينشرون الاسلام واللغة العربية، ولم يطغ أي هدف على الآخر، في حين كان للاستعمار هدف واحد فقط هو الاستغلال الاقتصادي للمنطقة مما نفر منه الأفارقة. وحذار أن نقع في نفس الخطأ فنهمل تراثنا الفكري هناك لنركز في إقامة هذه العلاقات على الجانب الاقتصادي فينظر إلينا الأفارقة بنفس النظرة التي كانوا ينظرون بها الى المستعمر القديم.

وعلى كل فإننا سنتعرض لتجربة من التجارب التاريخية التي مرت بها العلاقات العربية الأفريقية ألا وهي تجربة الوجود المغربي بالسودان الغربي وهي تجربة تتميز بتداخل المكونات الاقتصادية والفكرية لتفرز نموذجا خاصا من نماذج العلاقات الانسانية بين الشعوب.

1 ـ دوافع فتح السودان : الجهاد كعامل أساسي لتركيز الاسلام هناك

تعددت العوامل التي أدت بالمغرب إلى فتح السودان، وهي تتراوح بين العوامل الاقتصادية والدينية والدولية، لكننا سوف نقتصر في هذا العصر على جانب الجهاد لأنه يبرز أهمية الدور المغربي في إنقاذ السودان، وذلك ما سنحاول أن نبرزه في النقاط الآتية :

ـ قامت الدولة السعدية على الجهاد ضد الاحتلال البرتغالي، ومن هذا المنطلق كانت عملية فتح السودان من ضمن المهام المنوطة بها دينياً ووطنياً.

ـ كانت هذه العملية كرد فعل مباشر ضد سقوط الأندلس، وما كان يعانيه من تبقى من المسلمين هناك، لذلك فلا غرابة أن نرى وقوف الأندلسيين المطرودين والمغاربة صفاً واحداً لفتح السودان، لتركيز الاسلام به.

ـ الوجود الأجنبي بالسواحل المغربية، وتطلع أوروبا المسيحية إلى جولة انتقامية فوق البرّ الأفريقي.

ـ المستعمرات البرتغالية تجاه ساحل السنغال، والتمركز الاسباني في جزر الكناري يحملان أخطار الاحتواء الأوروبي لأراضي واقعة في بلاد الاسلام وتستوجب حمايتها والجهاد من أجلها.

وبالاضافة إلى ذلك فقد كان أحمد المنصور الذهبي (1578 ـ 1603) يهدف من وراء ذلك أيضاً إلى استغلال خيرات السودان للجهاد في إسبانيا وإرجاعها إلى حظيرة العرب كما تدل على ذلك إشارة مؤرخه عبد العزيز الفشتالي في تبريره لاستغلال خيرات السودان : (. . . للاستكثار من الأسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله فيي عقر داره. . .) [1]. والجدير بالذكر أن فكرة فتح السودان لم تكن لتقبل بسهولة لدى مستشاري المنصور، وذلك لسببين :

1 ـ عامل طبيعي ويتمثل في الصحراء القاحلة التي سوف تعترض الجيوش كما صرح بذلك مؤرخه : (اعتراض المفاوز البيد، والمجاهل والقفاز، التي لا تشقها الرفاق القلائل، إلا بعد عصب الريق، والافلات من مخالب الهلكة. . .) [2].

2 ـ لم تفكر أية دولة من الدول السابقة في غزو السودان بالرغم مما اتصف به بعضها من : (وفور الأجناد وامتداد ظل السلطان. . . ولو كان ذلك في طوق إمكانهم لكان همّهم الذي يسرع إليه هو ابتدارهم. . .) [3].

لكن المنصور استطاع أن يقنع مستشاريه مركزا على نقط عدة منها :

ـ تفوقه العسكري وما يتوفر عليه الجيش المغربي من أسلحة فتاكة خلافا لما كانت عليه الحال بالنسبة للدول المغربية السابقة التي لم تخرج عن (عساكر الخيل والفرسان الرامحة وعصائب الرماة الناشبة . . .) [4] .

ـ توفر المغرب على قواعد الانطلاق نحو السودان في كل من توات وتيكورارين .

ـ توفر المنطقة على موارد اقتصادية ضخمة . وقد اتخذ المنصور من التجار الذين كانوا يتاجرون مع السودان، ويقطعون الفيافي والقفار للوصول إليه مثالا يمكن الاقتداء به، (ثم هؤلاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون إليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة، وأحمال المتاع الجمّة بين صدر وورد) [5] .

وفعلاً فقد تنبه الاسبان إلى السواحل الغربية لبلاد السودان لاستغلال خيراتها، خاصة وأن هذه الأخيرة اضطربت فيها الأحوال بانهزام البرتغال في وادي المخازن وزوال أمبراطوريتهم. وحسب الرسالة التي وجهها الاسباني Melchoir de Petoney إلى Moura Mignel فإن جزيرة Arguin القريبة من الرأس الأبيض، عند مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي والمناطق الأفريقية المجاورة لها بلاد غنية بالقمح والشعير والماشية والفواكه وبمعادن الذهب وأن أهالي المنطقة يجلبون ذهب بلادهم إلى المغرب أو تمبوكتو، فلو قام فيليب الثاني ملك اسبانيا وأرسل سفناً محمّلة بالمصنوعات الزجاجية والخناجر والأجراس والثياب والمرايا وغيرها لمبادلتها مع الأهالي بالذهب لعاد ذلك بالنفع العميم على اسبانيا بدلاً من ترك هذه الخيرات للمنصور. وقد استولى الاسبان فعلا على الجزيرة المذكورة وأخذوا يتاجرون منها مع المناطق المجاورة [6] ، **الأمر الذي يمكن اعتباره كمنافسة للمنصور في غربي أفريقيا** وبلاد السودان، ومن العوامل التي جعلته يعجّل بالتدخّل العسكري في السودان قطع الطريق على الاسبان : (وهو الآن ـ أيده الله ـ لهذا العهد من عام سبعة وتسعين وتسعمائة واقف على قدم الأهبة والاستعداد. . . من جهاد المشركين وإغراء أرضهم في الجنوب بعساكره الأمامية. . .) [7] .

ـ توحيد المسلمين بغربي أفريقيا :

كان المنصور يرمي بهذا الفتح الى تجمع كلمة المسلمين في غربي أفريقيا، وتوحيد قواهم للوقوف صفا واحدا أمام التهجمات الخارجية التي يمكن أن يقوم بها الاسبان بصفة خاصة أو غيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يتربصون الدوائر ببلاد السودان الغنية وذات السواحل الاستراتيجية التي تتحكم في طريق الهند البحرية :

(وقصدنا بها يحصل من ذلك صرفه إن شاء الله في سبيل الغزو والجهاد وفي أرزاق ما لنظرنا العلي من العساكر والأجناد التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد واعتدناها للذب عن كلمة الاسلام وحياطة البلاد والعباد . . .) [8] .

وفعلاً فقد أشرف المنصور بنفسه على الحملة ، إذ في مطلع شهر محرم لعام 999 هـ أخذت الحملة طريقها نحو السودان بقيادة جؤدر باشا [9] ، وقد جعل له مخدومه هيئة استشارية عليا من كبار القواد : (وشد مولانا الامام . . . أزر ملكه . . . بثقات من كفاته . أولي الدهاء والرأي وذوي النجدة في مضايق الحروب . . . يرجع إليهم في مخض زبده الآراء ومجال المفاوضة) [10] .

وقد كانت بلاد السودان خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العاشر للهجرة (900 هـ ـ 999 هـ/ 1581 ـ 1591) تعيش أوضاعاً داخلية سيئة كما أكد ذلك المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي . (ثم بدلوا نعمة الله كفرا ، وما تركوا شيئا من معاصي الله تعالى إلا وارتكبوها جهرا) [11] ومنذ أن وصلت الحملة المغربية إلى (كارابار) على نهر النيجر ، جددت نداءات الأمان للسودانيين :

(واعتقدوا مع ذلك كل من أمنتموه من عساكرنا الطالعة براياتها البيض على تلكم الأقطار السودانية . . فقد أمناه ، ومن أجرتموه فقد أجرناه) [12] . غير أن تساؤلات عديدة تطرح نفسها ونحن بصدد تقويم العمل المغربي بالسودان ، ويمكن تلخيصها فيما يأتي :

1 ـ مدى تجاوب السودانيين مع الفاتحين المغاربة .

2 ـ وما مدى عدالة حكمهم .

كان لنداءات الأمان وحسن المعاملة كبير الأثر في تعامل الفئات المختلفة من العامة في السودان مع الفاتحين : (وأخذوا في التمهيد ، وتسكين الشارد ، وتأمين الطريد ، وبسط الهدر ، وخفض الجناح ، حتى اطمأنت النفوس المستنة في مجال القلق ، واستقرت الأفئدة الجائشة بما خامرها من الرهب والذعر الذي ملأ أحشاءهم ، وأزاغ أبصارهم ، وأشكت لرجبه مسامعهم ، من أجل حدة الدولة ، وثقل الوطأة ، وجلال السلطان) [13] . وبتوالي الأيام ازدادت الصلات بين المغاربة والسودانيين ، وتعددت مجالات تعاونهم . (وانحشرت عوالم من دهمائهم لمشاهدتها ، وارتاع لها أقاصيهم وأدانيهم) [14] .

وإلى جانب الفئات الشعبية هناك العديد من حكام المناطق الذين رحبوا بالفاتحين وتعاونوا معهم : (وجاز هو على حاله إليهم ومعه جنكي عبد الله بجيشه وسلطان ماسته وسلطان سنقر بوب ول بجيشهم)[15] .

وأيد الفاتحين أيضا عدد من العلماء السودانيين وفي مقدمتهم قاضي تمبوكتو عمر ابن محمود بن عمر، وخطيب كاعو محمود رامي ، (وهو شيخ كبير يومئذ . . وتلقاهم الخطيب المذكور بالترحيب والاكرام وأضافهم ضيافة فاخرة كبيرة)[16] .

أما عن مدى عدالة الحكم المغربي في السودان ، فاعتمادا على ما أورده المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي في (تاريخ السودان) ، فإن سلوك أغلبية المسؤولين المغاربة كان محموداً : فعندما رفع عبد الله بن شين المحمودي شكواه إلى المنصور في شأن إبل له صادرها جودر (ووافقوا بإبل عبد الله بن شين المحمودي فأخذ منهم جودر مقدار حاجتهم فركب وغرب إلى الأمير مولاي أحمد في مراكش اشتكاء بما ناله منهم من الظلم . . وكتب له أن يعطوه ما أخذوا من إبله . .)[17] .

وسوف نتعرف على عدالتهم أكثر عندما نلقي نظرة على المجهودات التي بذلها المغاربة لتطوير المنطقة اقتصاديا .

2 ـ الآثار الاقتصادية للوجود المغربي في السودان :

ليس هنالك من سبيل إلى إنكار التطور الذي عرفته الحياة الاقتصادية في إقليم السودان منذ وصول المغاربة وإلى الوقت الذي حل فيه الجيش الفرنسي في تلك الربوع . لقد أثر الوجود المغربي في السودان على نحو لا يقبل التأويل أو الشك في الأسس البنيوية للاقتصاد السوداني مما أدى إلى أحداث تغيير جذري في كمية ونوعية الانتاج وفي التصنيع والتجارة وساهمت ظروف الأمن والتنظيم الاداري الجديد والقوانين التجارية في تطوير ونمو اقتصادي كبير.

كان الأثر الأول للوجود المغربي في السودان هو الوحدة الادارية بين أقاليم السودان ، ففي عهد الأساكي الخمسة السابقين للحكم المغربي كانت أمبراطورية السونغاي التي وحدها الاسكي الحاج محمد قد تمزقت إلى ممالك وإمارات وأقاليم

إقطاعية، وحتى في فترات السلم والامن التي كانت تسود تلك الأقاليم في بعض الأحيان، فإن القيود التعسفية التي كانت تفرض على التجارة جعلت انتقال السلع بين جهة وأخرى يكتنفه التعقيد. وتمثلت تلك القيود في فرض الضرائب عند أبواب المدن وأخذ الغرامات، والأتاوات الباهظة لخزائن الحكام. ويضاف إلى تحقيق الوحدة التي حققها المغاربة عودة الأمن والنظام واختفاء قطاع الطرق الذين كانوا في السابق يوالون السطو على القوافل البرية والسفن التجارية. والأثر الثاني للحكم المغربي كان تزايد إقبال التجار على نقل بضائعهم من وإلى المغرب، فالأوضاع خلقها النزاع المستمر على مناجم الملح انعكست بشكل سلبي على التواصل التجاري بين الجانبين ومع اختفاء ذلك النزاع وأسبابه والأوضاع التي نتجت عنه أخذت التجارة في الاتساع والنمو وبدأ الحديث عن القوافل التي تضم آلاف الجمال التي كانت تقطع الصحراء من الجهتين.

والأثر الثالث: تمثل في استيلاء السلطان على مناجم الذهب والملح والنحاس باعتبار أن حكم الشرع فيها يقضي بملكية السلطان لها، ونحن وإن كنا نجهل ـ بمقتضى ما بين أيدينا من وثائق ـ الطريقة التي كانت تدار بها تلك المناجم المحروسة بالجيش، فإننا نجزم بأن أمر الاستثمار والنقل والبيع قد شهد تبديلا جوهرياً، ونستدل على ذلك من ارتفاع قيمة الذهب، والأثر الرابع تحول المعاملات في الجملة عن المقايضة إلى التعامل النقدي، وهو أمر أثر بكيفية ملموسة على النمو الاقتصادي في السودان. فذهب السودان لم يكن يذهب كله إلى خزائن السلطان بل كان القسم الأعظم منه يدخل دار السكة في تنبوكتو ويضرب مثاقيل ودنانير لم تكن تشبه لا في الشكل ولا في الوزن مثيلاتها في الشمال.

الأثر الخامس: هو إدخال الموازين والمكاييل والمقاييس إلى السودان على يد المغاربة وقد أدى ذلك إلى وحدة المعايير السودانية وخضوعها جميعاً للدقة المطلوبة في ميدان التجارة والمعاملات الأخرى وإلى كبح الغش والتدليس وإسقاط الوساطات والمزايدات التي كانت إحدى عيوب التجارة السودانية القديمة.

والأثر السادس: تنظيم الأسواق المحلية على شاكلة ما كان يوجد في المغرب الشمالي، فبينما كانت الأسواق الكبرى تعقد كلما قدمت قافلة أو همّت قافلة بالتوجّه إلى الشمال، وكانت الأسواق الصغرى عبارة عن اتصالات بين القبائل للمقايضة،

أصبحت هناك أسواق يومية في كل المدن الكبرى، وأسواق أسبوعية في القرى تعقد فيها البيوع على أساس التعامل النقدي بضمانة أكيدة وموثوقة من بيت المال بتنبوكتو.

والأثر السابع : ظهور الصناعة التحويلية والكمالية على نحو لم تعرف له السودان نظيرا من قبل، ولقد كان للأعداد الكبيرة من الصناع المهرة الذين صحبهم جؤذر معه إلى السودان أو الذين توافدوا بعد ذلك إلى البلاد الأثر المحمود في خلق صناعات جديدة وتحسين الصناعات البدائية التي كانت معروفة قبل مجيء المغاربة إلى السودان.

والأثر الثامن : تمثل في نقل بذار ومزروعات جديدة إلى السودان بما في ذلك أنواع من الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر، وكذلك في تحسين المزروعات التي كانت موجودة عن طريق تنظيم الدورة النباتية. واختيار الأماكن الصالحة لكل نبتة واستخدام السماد الحيواني المركب، وضمن هذا المجال أيضا نذكر الأعمال الهامة في ميدان الريّ وشق القنوات وتحويل روافد نهر النيجر التي أنجزها المغاربة ولم تمر على مجيئهم إلى تنبوكتو سوى بضعة أشهر

هذا ما يتعلق الآن بالآثار الاقتصادية فهل حدثت آثار فكرية موازية لسالفتها ؟ ذلك ما سنحاول أن نتعرف عليه في العنصر الموالي.

3 ـ الآثار الفكرية للوجود المغربي بالسودان :

كان للاسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة العربية ومختلف علوم الدين إلى أماكن كثيرة من السودان الغربي، ولم يكن لجهود الدعاة والوعاظ ولا لحلقات العلم في الجوامع من هدف سوى تعريف السودانيين بالآداب الاسلامية وقواعد الدين وتنظيم المجتمع على أسس جديدة، ولم تعرف الشعوب التي أسلمت عنف الصراعات المذهبية التي عرفتها الأندلس والمغرب لأن المذهب المالكي كان منذ عهد المرابطين هو المعتمد بكيفية تكاد تكون شمولية.

ويمكننا أن نتصور ثلاث مراحل عبرت خلالها الثقافة الاسلامية العربية إلى المجتمعات السودانية.

المرحلة الأولى : نهض بها الدعاة وسط القبائل والمساجد في المدن واستمرت حتى أواسط القرن الرابع عشر، وكان ما نتج عن تلك المرحلة تعليم سواد الناس العبادات والمعاملات والسلوك الديني.

المرحلة الثانية : امتازت بتوثيق العلاقات المغربية والمشرقية مع السودان وانتقل خلالها علماء الفقه والحديث، وجماعة من المهندسين المعماريين إلى مناطق متباعدة في السودان، وأدّت جهودها إلى إدخال الثقافة العربية والفنون العربية وخلق مدرسة إسلامية سودانية وبصفة خاصة في مجال علوم الدين من فقه وحديث ومسائل ونوازل.

والمرحلة الثالثة : تبتدىء منذ أواخر القرن السادس عشر وقد وسعت المجالات السابقة وصقلتها وأضافت إلى أغراضها الفكرية مجالات وآفاق تمثلت في فنون أدبية أكثر عمقاً وإشراقاً وإبداعاً كالفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلات والشعر.

ويمكن القول بكل اطمئنان بأن المراكز الثقافية الاسلامية في ذلك الوقت كانت قد حققت نجاحاً كبيراً في ربط الفكر الديني العربي بالحضارات الأفريقية [18]، وسار ذلك الربط في نطاق التأثير المتبادل دون حدوث نكسات أو أدنى مظهر للرفض من طرف الأفارقة الذين أصبح ما تعلموه وخبروه جزءاً من كيانهم الخاص، وهذا ما أطلقنا عليه المدرسة الأفريقية.

ولقد توارد على بلاد السودان عشرات العلماء من المغرب، واستقبلت جامعة القرويين العشرات أيضا ممن لمع اسمهم في تاريخ البلدين معاً، وازدهرت تجارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفاً من كتب في مختلف الفنون، وبارك الاساكي (ملوك السودان) الحركة العلمية والثقافية العربية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء، وأسقطوا عنهم وظائف للسلطنة وغراماتها ومنعوا عنهم ظلم الحكام بحيث كان للاسكيا وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه [19].

ومن أهم رجالات العلم في هذه الفترة الذين أعطوا للثقافة العربية الاسلامية دورها الحاسم في المنطقة نذكر : محمد بن الكريم المغيلي، وصالح بن محمد أندي

المعروف بالشيخ العمري، وعبد الله بن أحمد ابن سعيد، ومحمد عيسى ابن علي التلمساني، وأبو القاسم التواتي، وعبد الرحمن ابن علي ابن أحمد القصري . . . إلى غير ذلك من العلماء.

وبعد هذه جملة أحداث سياسية واقتصادية وفكرية من شأنها أن تلقي الضوء على فترة من أهم فترات تاريخنا، فترة كان المغرب فيها ينازع القوات الاستعمارية الكبرى آنذاك (اسبانيا والبرتغال) من أجل إنقاذ نفسه أولا وتركيز الاسلام ونشر نفوذه بالسودان من جهة أخرى، وهي فترة قال عنها المؤرخون الاستعماريون الشيء الكثير، وصموا الوجود المغربي بالسودان في هذه الفترة بأنه احتلال تعسفي، في حين سموا وجودهم بالمنطقة انطلاقا من القرن الثامن عشر والى غاية القرن العشرين عملا (تحضيرياً) لاخراج الشعوب الأفريقية من ظلامات الجهل والفقر والمرض (الأفريقي) إلى النور (الأوروبي). وقد حققوا فعلا من جراء ذلك كل ما أرادوا، فأزالوا الجهل والفقر والمرض، لكن ليس من أفريقيا بل من أوروبا، التي ظلت وحتى بعد خروجها من المنطقة ترفض أية محاولة تخرج الشعوب الأفريقية من دائرة نفوذها.

إن المجهود الذي يجب أن يبذل من أجل دعم وتمتين العلاقات العربية الأفريقية لا يجب أن يرتكز فقط على الجانب الاقتصادي، بل يجب أن يتعداه إلى استغلال التراث التاريخي المشترك، خاصة وأن الشعوب الأفريقية ما زالت إلى يومنا هذا تنظر إلينا نظرة خاصة، فلنستفد من التاريخ، وحذار أن نقع في نفس الأخطاء فنفقد ثقة الشعوب الأفريقية فينا.

الهوامش

(*) نشر هذا البحث بمجلة البحوث التاريخية، ليبيا، العدد 2، 1985 وقد أعيد نشره بمجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد 31، 1987

(1) أنظر عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 190.

(2) نفس المصدر، 126

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) نفس المصدر، 127.

(5) نفس المصدر والصفحة

(6) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، فرنسا، السلسلة السعدية، 2، 67.

(7) عبد العزيز الفشتالي المصدر السابق، 81

(8) من رسالة المنصور لاسكيا اسحاق، انظر رسائل سعدية ص 132.

(9) عبد العزيز الفشتالي، المصدر السابق، ص 130.

(10) نفس المصدر والصفحة

(11) أنظر عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، ص 139

(12) عبد العزيز الفشتالي، المصدر السابق، 133.

(13) نفس المصدر 147.

(14) نفس المصدر 148.

(15) عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، 162

(16) نفس المصدر، 141.

(17) نفس المصدر 139.

(18) أنظر حسن أحمد محمود. الاسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص 10 ـ 11.

(19) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 73.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

1 ـ المصادر السودانية :

ـ كعت، محمود (توفي سنة 1002 هـ/ 1593)
تاريخ الفتاش، في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر ميزونوف، باريس 1964.

ـ مؤلف مجهول
تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، تحقيق هوداس، باريس 1901.

ـ السعدي عبد الرحمن (توفي بعد 1062 هـ/1652)
تاريخ السودان
المطبعة الأميريكية والشرقية بباريس، 1964.

ـ السوداني أحمد بابا (توفي سنة 1036 هـ / 1627).
نيل الابتهاج بتطريز الديباج
مطبعة المعاهد بالقاهرة، 1351 / 1932.
معراج الصعود، مخطوط دار الوثائق بالرباط رقم 1079 د.

2 ـ المصادر العربية :

ـ ابن القاضي أحمد (توفي 1025 هـ / 1616)
المنتقي المقصور على مآثر الخليفة المنصور
دراسة وتحقيق محمد رزوق، جزآن، الرباط، 1986

ـ الزياني أبو القاسم (1249 هـ / 1833)
الترجمان المعرب، عن دول المشرق والمغرب
مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 658 د.

ـ الفشتالي عبد العزيز (توفي سنة 1031 هـ / 1622)
مناهل الصفا، في أخبار الملوك الشرفا
نشره عبد الله كنون، المطبعة المهدية بتطوان، 1964.

ـ الناصري أحمد (توفي سنة 1315 هـ / 1897)
الاستقصا، في الأخبار دول المغرب الأقصى
الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء، 1954 ـ 1956 الجزء الخامس.

ـ اليفرني محمد (ت 1140 هـ / 27 ـ 1728)
نزهة الحادي، في أخبار ملوك القرن الحادي
طبعة هوداس، باريس 1889.
ـ الوزان الحسن بن محمد (توفي بعد 957 هـ/1550)
وصف أفريقيا.
ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1980 ـ 1982.

3 ـ المصادر الاسبانية :

ـ كاربخال مارمول ألف كتابه بعد 1571)
أفريقيا
الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق. أحمد بنجلون. الرباط 1984.

ثانيا : المراجع

ـ التميمي عبد الجليل
«كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا
معلمة بيبليوغرافية للاعلام المغاربة».
مقال **بالمجلة التاريخية المغربية**، العدد 33 ـ 34، يونيو 1984 تونس.
ـ الجمل، شوقي :
تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة 1971.
«أحمد بابا السوداني»، مقال بمجلة **المناهل** الصادرة بالرباط، العدد 6، يونيو 1976، ص 144 ـ 177.
ـ حركات، ابراهيم
المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، الدار البيضاء، 1978.
ـ حجي، محمد
الحركة الفكرية في عهد السعديين جزآن، مطبعة فضالة، 1978.
ـ زاهر رياض
كشف القارة الأفريقية، القاهرة 1969.

- زبادية، عبد القادر
مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر، 1971.
- الغربي محمد
بداية الحكم المغربي في السودان الغربي بغداد، 1982.
- كريم، عبد الكريم
المغرب في عهد الدولة السعدية، الدار البيضاء. 1977.

2 - المراجع الأجنبية :

Braudel, F.

- **La mediterranée et le monde mediterranéen,** 4ème édition, 2 tomes. Paris 1979.

Gastries H. de

- La conquête du Soudan par el Mansour, **Hespéris 1923,** trim

Drami, ISSIFOU ZAKRI

- **L'Afrique noire dans les relations internationales aux XVIème Siècle, Analyse** de la crise entre le Maroc et le Sonrhaï 257 p. Paris 1982.

Delafosse, M.

- Les relations du Maroc avec le Soudan a travers les âges in «**Hesperis**» 2ème trim. 1924.

الجهاد البحري
في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (*)

اهتم السلطان سيدي محمد بن عبد الله اهتماما بالغا بالجهاد البحري [1] وذلك لوعيه بالدور الخطير الذي تلعبه الثغور المغربية على المحيط الأطلسي، فاتجه إلى تبني سياسة دفاعية تهدف أساسا إلى الوقوف في وجه الاطماع الأوروبية. وسنحاول في هذا العرض أن نتناول بالبحث جهود السلطان المذكور في سبيل تقوية الأسطول المغربي، واهتمامه بالثغور المغربية وكذا إلى ردود الفعل الأوروبية تجاه أعماله.

أولا : جهود السلطان سيدي محمد بن عبد الله في سبيل تقوية الأسطول المغربي

تزخر المصادر المغربية المعاصرة بالعديد من الاشارات التي تهم الموضوع، فهذا كاتبه وسفيره أحمد بن المهدي الغزال ـ مثلا يسجل في مقدمة كتابه **نتيجة الاجتهاد** : «جد ـ إليه الله ـ في تهييء المراكب للجهاد، واجتهد وشحنها بالعدد والعدد، وخصص عساكره المؤيدة بالله على حضور النية على القتال لتكون كلمة الله هي العليا...» [2]. وهذا ما سجله أيضا محمد الضعيف الرباطي في تاريخه وهو بصدد الحديث عن منجزات السلطان : «... وأعظم من هذا كله ما فيه من الوجهة للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد، وقد جمع من ذلك ما لم يتفق لأحد ممن تقدمه، وسخر الله له السفن في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وغيرهما...» [3]. وفعلا فإنه لم يدخر وسعا في سبيل تحقيق ما كان يهدف إليه رغم الصعوبات التقنية التي كانت تعترضه، فقد قام بتجديد فن بناء الاسطول، وصرف الأموال في سبيل تحديث أوراش بناء السفن [4]، وكل تفكيره كان متجها إلى شيئين أساسين : بناء سفن قادرة على مواجهة أهوال المحيط من جهة وقادرة على مواجهة الوحدات البحرية الأوربية من جهة أخرى [5].

ومن أمثلة ذلك أنه : «أمر بإنشاء السفينة الكبيرة من طبقتين، وانفق فيها مالا كثيرا،

أنشأها بسلا ورئيسها هو الرايس سالم، ولما طلعت وأراد الخروج بها في البحر لم تقدر على الخروج لكبرها إلى أن أفرغ ما فيها وأخرجها بحيلة . . . » [6] . وهكذا نلاحظ أن المواني‌ء التي توجد بمصبات الأنهار لا تلائم حجم السفن التي كان يريد السلطان بناءها، فالحاجز الرملي في الشتاء ومستوى المياه المنخفض في الصيف يمنعان الفركاطات المجهزة بالمدافع من التحرك إلا خلال شهرين في السنة فقط [7] . وقد أشار إلى هذا كاتبه أحمد بن المهدي الغزال حيث حديثه عن العوائق التي تعترض السفن الجهادية قائلا : «على أن سفن سيدنا الجهادية مقصور جهادها على شهرين في السنة لاتصال المراسي بالأودية بصفة يتعذر الخروج منها قبل فتح الطمس بالأزمنة الشتوية . فهناك تقرصن وتعود لمرساها إلى القابل، وقد استعمل الحكماء وأهل الهندسة جهدهم في تنظيف المراسي من الرمل المانع لخروج المراكب، فلم يحصلوا على طائل، وصار العدو الكافر يترك البحر في الشهرين المعلومين ويسافر بقمة السنة لينال في ذهابه وإيابه ما منه . . . [8] .

أما عن كيفية تجهيز هذا الأسطول فنشير إلى أنه كان يحصل عليه عن طريقين :

ـ الطريق الأول : الاستيراد المباشر من أوربا : «وسخر الله له أجناس الروم، فما يأمرهم بالاتيان بشيء من ذلك إلا بادروا لامتثاله مسرعين وقاموا بين يديه سامعين وله مطيعين . . » [9] وهكذا فقد بعث السلطان ـ مثلا ـ بسفيرين من رياس البحر وهما الحاج التهامي المدور الرباطي والعربي المستيري الرباطي، إلى السويد وانجلترا قصد جلب الذخيرة الضرورية لأسطوله .

ـ الطريق الثاني : الغنائم .

تقوى الأسطول المغربي في هذه الفترة أيضا عن طريق الغنائم التي كان يحصل عليها المغاربة نتيجة عملياتهم البحرية المتكررة، وهذا ما أشار إليه بكل وضوح محمد الضعيف وهو بصدد الحديث عن أعمال السلطان الجهادية : « . . تكاثرت سفنه في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وأقبلت عليه الأيام . . . وكان الرايس من أهل سلا والرباط يقدمون عليه بمراكش بالنصارى الأسرى في كل سنة، مثل الرايس العربي المستيري والرايس عواد السلاوي والرايس العربي حكم وغيرهم . . . وهؤلاء كلهم بالسفن وكلهم يأتون إليه بسفن النصارى إلى مراكش . » [10]، ويقول في مكان آخر : « . . . وفد (السلطان) على رباط الفتح وسلا فوجد الرايس محمد عواد مانطة السلاوي، والرايس محمد عواد المعروف بقنديل السلاوي، والرايس العربي

المستيري في الحين فغنم اثنين من السفن واحدة من جنس البرطقيز والثانية من جنس السويد . . . »[11] .

وكان من نتيجة الجهود الجبارة التي بذلها السلطان أن تقوى الأسطول المغربي في عهده وأصبح بإمكانه تقديم المساعدة للأتراك العثمانيين أنفسهم : «ثم إن السلطان ـ نصره الله ـ سمع بحور النصارى على السلطان، عبد الحميد العثماني ـ أيده الله ـ فأراد إعانته على الروم . وأصدر أمره للحاج المكي على أن يرجع ويتهيأ ليأتي بالسفن هدية من السلطان ـ أيده الله تعالى ـ للعثماني، وأن يقف على السفن بالعرائش، وصار يمد العثماني بالبارود وملح البارود نحو الأربعة آلاف قنطار بارودا ومثلها ملحا لطنجة، ومنها تسير للعثماني ـ أيده الله ـ . . . »[12] .

ثانيا : اهتمامه بالثغور المغربية :

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يدرك جيدا الأهمية الستراتيجية للثغور المغربية على المحيط الأطلسي، وذلك نتيجة للاهتمام المتزايد الذي أصبح هذا المحيط في المواصلات الدولية بين أوروبا الغربية وأمريكا وبينها وبين الشرق الأقصى عبر رأس الرجاء الصالح، فأقر سياسة دفاعية لتحصين السواحل المغربية الأطلسية، وهذا ما أشار إليه سفيره أحمد بن المهدي الغزال قائلا : «وشرع سيدنا ـ أيده الله ـ في عمارة الثغور وتشييد ما هذه منها تتابع الأزمنة والدهور، وحصنها بالعدد الكبير من المدافع والعدد حتى صارت ممنوعة من العدو محفوظة من عين حاسد إذا حسد»[13] .

ويمكن هذا العمل من الحصول على نتيجتين أساسيتين :
- تأمين الحماية اللازمة للبلاد .
- الانفتاح على العالم الخارجي بعقد معاهدات وإرسال سفارات إلى دول أوروبا الغربية والشرق الإسلامي .

وهكذا نلاحظ أنه في إطار هذه السياسة قام ببناء حصون وتحصين أخرى وتحرير البعض الآخر.

ـ بناء الحصون :

بناء الصويرة : يذكر الضعيف في هذا الصدد : «وفي سنة ثمان وسبعين ومائة وألف أمر السلطان ببناء الصويرة. وحصنها وأنفق عليها مالا عظيما. . . وفي مهل ذي القعدة عام 1179 هـ قدم الصفار مع مائتي رجل من البحرية بقصد أن يأخذوا الانفاص التي بفاس الجديد ويذهبون بها إلى العرائش والصويرة. . . » (14).

ويرجع اختياره جزيرة الصويرة لبناء القلعة الحصينة إلى صلاحيتها للملاحة طوال السنة خلافا لمعظم المواني‌ء المغربية الأخرى الواقعة عند مصبات الأنهار. وقد وصفها وصفا دقيقا محمد بن المهدي الغزال قلائلا : «لها باباں شرقية وغربية تسافر منها القراصين متى شاءت من غير أن تفتقر لطيب هواء. . . وحصن ـ أيده الله ـ الجزيرتين الدائرتين بالمرسى كبرى وصغرى، بالعدد الكثير من المدافع، وشيد بها على صخرة داخل البحر إحكامه الصنوف الهندسة جامع، فالقاصد للمرسى لايدخلها إلا تحت رمي المدافع، من البروج والجزيرة، فإذا جاوز المدافع وحصل المرسى لا يمكنه الخروج منها إلا بدليل له بها معرفة وبصيرة، فهي محصنة محفوظة، وبعين الرعاية ملحوظة. . . وقد شاع خبرها في سائر الآفاق، وأجمع الكل على تفضيلها وتقديمها على ما سواها بالاستحقاق، بإبداعها وإنشائها تنابع الجهاد وتوالي. . . » (15).
ويدخل في هذا الاطار أيضا بناؤه لمرسى فضالة سنة 1186 هـ (16).

ـ تحصين الثغور :

لم يكتف السلطان ببناء قلاع جديدة، بل حصن القديمة منها خاصة تلك التي لها ماض معين مثل العرائش. (17) ويذكر الناصري في هذا الصدد : «بنى لها الصقائل والأبراج وصونها، ثم كان قدوم ابنه المولى يزيد في هذا التاريخ إلى فاس، وفي ركابه جماعة من رؤساء البحر والطبجية أهل الاجادة في الرمي، وكان قدومه بأمر السلطان لجر المدافع، والمهاريس النحاسية التي كانت بفاس الجديد ومكناسة ونقلها إلى ثغر العرائش ففعلوا. . . ». (18) وأراد السلطان أن يشرك معه في هذه العملية القبائل المجاورة : «. . . وأمر السلطان القبائل الذين بالطريق أن يتولوا جرها،

فكانت كل قبيلة تجرها إلى التي تليها. . . »[19]. وقد رحب سكان مدينة العرائش أيما ترحيب بهذه التحصينات التي تمكنهم من الدفاع عن مدينتهم : «ثم جرها أهل العرائش وقبائل حوزها إلى المدينة، وكان يوم دخولها مهرجانا عظيما أخرجت فيه المدافع والمهاريس والبارود، وتسابقت القبائل على الخيول ولعبوا بالبارود إلى المساء. . »[20].

ـ تحرير الثغور :

عمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله خلال الفترة الفاصلة بين سنتي 1182 هـ و1188 هـ على تحرير عدد من الثغور المحتلة، وذلك بعد أن تمكن من إقرار الأمن الداخلي ومن تدعيم أسس وحدة البلاد. وهكذا فقد توجه بنظره إلى تحرير البريجة عام 1182 هـ، وكذا إلى محاصرة مدينة مليلية خلال عامي 1185 ـ و 1188 هـ.

ـ تحرير البريجة :

لقد حاول المغاربة ومنذ أن احتلت من طرف البرتغال تحرير المدينة سواء على الصعيد الشعبي أو على الصعيد الرسمي، فعلى الصعيد الشعبي يكفي أن نذكر أن المدينة كانت محاصرة باستمرار من طرف مجاهدي دكالة وغيرهم، بل وأقيمت نقط الوثوب على المدينة. أما على الصعيد الرسمي فنذكر المحاولات الآتية :

ـ محاولة محمد الشيخ السعدي، لكن الضغط التركي اضطره إلى مهادنة القواب البرتغالية والاسبانية بالسواحل المغربية لمواجهة التدخل العثماني بالمغرب.

ـ محاولة عبد الله الغالب. إذ كادت المدينة أن تفتح بعد حصارها لولا الضغط التركي على حدود المغرب الشرقية مما أدى به إلى التراجع.

ـ كما أصدر عبد الملك المعتصم أوامره بمحاصرة البريجة قبيل معركة وادي المخازن وذلك خوفا من خروج قوات برتغالية منها.

ـ وعندما انتهت الحملة البرتغالية على المغرب بالفشل، تدخلت قوات إسبانية بالبحر لحماية المدينة من الهجومات المغربية وحال الاسبان دون تحرير المدينة، بالاضافة إلى أن الضغط التركي تدخل من جديد مما جعل أحمد المنصور الذهبي يتخلى عن تحرير المدينة والتمسك بالهدنة مع الاسبان.

وعلى كل فقد استفاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله من الظروف التاريخية السابقة التي حالت دون تحرير المدينة فيسعى إلى تهيىء أرضية دبلوماسية ملائمة.

وهكذا فقد سعى إلى تحسين علاقاته مع فرنسا، وضمان حياد إسبانيا في أي حرب تحريرية ضد البرتغاليين، كما عقد معاهدة مع الدانمارك خلال عام 1181 هـ نص الفصل السابع عشر منها على التزام الدنماركيين بتقديم أسلحة وعتاد حربي من بينها خمسة وعشرين مدفعا من العيار الثقيل والمتوسط وقذائفها وجميع لوازمها. ويدخل في نطاق هذا الاستعداد لهذه الحرب أيضا الامدادات العسكرية التركية التي وصلت إلى المغرب في نفس السنة. (21)

وهكذا عندما هيأ الأرضية الدبلوماسية لتغطية عملياته العسكرية انطلق لتحرير المدينة، ومن المصادر المعاصرة الهامة التي يمكن الرجوع إليها للوقوف على الكثير من دقائق هذه الحملة نذكر كتاب **الحلل البهيجية في فتح البريجة** (22) لمؤلفه محمد بن أبي القاسمي بن محمد بن محمد بن سليمان المراكشي، فيذكر في هذا الصدد: «. . . ثم إن الملك أخذ في إصلاح شأنه وأرسل إلى جنوده وعساكره يأتون للجهاد في سبيل الله ويتهيأون للحرب كما أمرهم وأن يركبوا الخيول المسومة ويلبسوا الثياب لقوله تعالى: **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم). ثم أرسل الملك إلى قبيلة دكالة أن ينزلوا البريجة المخلية وأن يربطوا عليها حتى يقدم الملك عليهم . . .**». (23) وتصف مصادر أخرى هذه العملية والدواعي التي دعت السلطان إلى ذلك: «ولما أحس ـ أعزه الله برضاه وأدام علاه ـ من الكفار المتعمرين بالبريجة البلدة المعروفة بساحل البحر قرب أزمور الأذاية لرعيته توجه إليها بعزمه وعنايته وحاصرها بالجيوش التي لا قبل لهم بها، ورماها بالكور والبومب، فلم يلبث إلا أن أخرجهم منها أذلة صاغرين وهدمها، فهي الآن تسمى المهدومة وتسمى اليوم الجديدة على أمره، وهو الذي سماها بذلك

ـ نصره الله وأيده وأعانه ووفقه وسدده ـ فاستولى عليها . . »[24] وفعلا فقد خرجت الحملة المغربية من مراكش سنة 1182 هـ ورابطت في فحص المجاهدين القريب من المدينة وأخذت تمطر الحصن بوابل من قذائفها، كما حاصرت في نفس الوقت الميناء، وحالت دون وصول نجدات عسكرية برتغالية قدمت من لشبونة، وظل الأمر كذلك إلى أن أعلنت الحامية البرتغالية استسلامها وطالبت بالسماح لها بالجلاء، وتم ذلك صبيحة يوم السبت 2 ذي القعدة سنة 1182 هـ، وقد دامت هذه الرحلة 58 يوما وانتهت بتحرير المدينة بعد أن خضعت للاحتلال البرتغالي نحو ثلاثة قرون.

ثالثا : رد الفعل الأوروبي تجاه الجهاد البحري :

كان رد فعل الأوروبيين تجاه الجهاد البحري قويا خاصة من الجانب الفرنسي والاسباني، إذ قررت كل من فرنسا واسبانيا حماية سفنهم من الهجومات المغربية المتكررة بجميع الوسائل المتوفرة لديهم. وهكذا فقد كلف الفرنسيون فيما بين سنتي 1763 و1764 القائد Fabry بمحاصرة الشواطىء المغربية لكن دون جدوى، إذ تمكن المجاهدون السلاويون أمام مدينة قادس من الاستيلاء على سفينة فرنسية كبيرة (La Sirène)، والتي سرعان ما حولت إلى سفينة جهادية.[25]

وفي سنة 1765 أصدر الملك الفرنسي لويس الخامس بعشر أوامره إلى الأميرال Chaffault للعمل على القضاء وبصفة نهائية على الجهاد البحري بالمغرب.[26] وهكذا في 31 ماي رسا الأسطول البحري الفرنسي أمام مدينة سلا وشرع في رمي المدينة بالقنابل انطلاقا من 2 يونيو، ورغم أحوال الطقس الرديئة آنذاك فإنه استمر في حصار المدينة لكنه لم يفلح، وأمام فشله اتجه إلى العرائش في 27 يونيو لكنه لقي هزيمة منكرة أيضا.[27] وقد سجل أحمد بن المهدي الغزال هذه الحادثة بدقة كبيرة فوضعها على الشكل الآتي : « . . . رمى بمرسى من الأنفاط والنوبه ما ظن أنه يحصل به على طائل فأجيب بضعف ذلك، فلم يلبث إلا وأجفانه هاربة تقفو أواخرها الأوائل، وخر هاربا مهزوما ساقط الألوية مدلولا مدموما، فعالج ما انصدع من أجفانه وأعاد الكرة يطلب حتفه بيده ويسعى في مذلته وهوانه، ووثب على مرسى ثغر العرائش . . . ـ واقتحمها بالبنب والمدافع، وشحن الفوارب العديده

بالشلظاط [28] والفسيان [29] مما يزيد على الثمانمائه، ظنا أن ليس لهم بها مقابل ولا مدافع وعبر المرسى بقواربه المشحونة بعساكره قاصدا حرق مركب كان أخذ لهم قبل داخل الوادي، فخلى المسلمون سبيله حيلة، حتى توغلوا في الموضع الذي لا تمكنهم الخروج منه، وركب لقطعهم من حضر من الحواضر والبوادي وقطعوهم قطعة لايسعهم منه قرارا. . . واستعملوا فيهم السيف فقتل وعرق وأسر منهم عدد كبير، فهم بين غريق وقتيل وأسير. . . ». [30] لكن القوات الفرنسية كانت مصرة على تنفيذ أوامر الملك مهما كلفها ذلك من ثمن فظلت تحاصر قواعد المجاهدين في سلا والمهدية والعرائش، وتقطع سبيل الاتصال بين المجاهدين والعالم الخارجي، وهكذا فقد اعترضت قطع الأسطول الفرنسي سبيل سفن هولندية ودانماركية كانت محملة بالعتاد إلى السلطان وأسرتها وقادتها إلى مدينة Toulon الفرنسية [31] وأمام هذه الوضعية عقد السلطان في 28 ماي 1767، معاهدة هدنة مع فرنسا اعتبرها بعض المؤرخين الأجانب نهاية الجهاد البحري المغربي، مستنتجين ذلك من خلال الأحداث التي تلت هذه المعاهدة.

غير أنه وبالرغم من توقيع هذه المعاهدة، فإن السلطان استمر في الحفاظ على قوة بحرية معينة مشجعا إياها على القيام بالجهاد البحري، ففي شتنبر من سنة 1773 كانت هناك مجموعة من خمس سفن تحت قيادة الهاشمي المستيري قد التقت برأس سبارتيل بمركاطة توسكانية تحت قيادة Acton ولكن بمجرد الطلقات المدفعية الأولى غرقت السفينة المغربية واستسلم القائد، وهربت باقي السفن إلى العرائش، وإثر ذلك لم يعد أحد يتكلم عن قوة بحرية مغربية قادرة على مهاجمة السفن الأوروبية.

أما رد الفعل الاسباني فيتجلى بالخصوص في معاملة الأسرى المغاربة بإسبانيا إلى درجة وصل معها صدى هذه المعاملة إلى السلطان نفسه: « . . . فاتفق له أن وردت عدة كتب من أسارى المسلمين، منها ما هو لمطلق العامة، ومنها لبعض الطلبة وعلماء الدين، الكل من البلاد الأصنيولية، وأصله للحضرة العلية فقرأت على مسامع سيدنا الشريفة. . . ». [32] فكتب السلطان إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا يبلغه اهتمامه البالغ بقضية هؤلاء الأسرى: «إننا في ديننا لا يسعنا إهمال الأسارى وإبقاؤهم في قيد الأسر، ولا حجة للغافل عنهم ممن ولاه الله تعالى

التصرف والأمن . . . » . [33] وكلف سفيره السالف الذكر أحمد بن المهدي الغزال بهذه القضية ، وقد كللت سفارته بالنجاح إذ أطلق الملك الاسباني سراح الأسرى المغاربة .

ولم يكتف السلطان بالاهتمام بالأسرى المغاربة فقط بل كان يهتم بجميع الأسرى المسلمين فقد سجل محمد بن عثمان المكناسي في هذا الصدد : « . . . وكان ممن اختصه الله تعالى بالشفقة على عباده ، والسعي في إصلاح في أرضه وبلاده ، والبحث عن أسارى المسلمين الذين بأيدي الكافرين ، وقد كان عند النصارى الأصبنيول قبل هذا منه أسارى المسلمين عدد كثير ، وجمهور غفير ، وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس ، والجزائر وعمالاتها ، فسرح الله تعالى جلهم على يده الكريمة . . . » . [34]

ويعد هذا جانب لامع من الجوانب اللامعة في أعمال السلطان سيدي محمد بن عبد الله حاولنا فيه أن نلقي بعض الضوء عليه . لقد حاول تطوير القوة البحرية المغربية ما يتلاءم وعصره ، وحاول تبني سياسة دفاعية تمكنه من حماية ثغوره وتمكن بالفعل من تحقيق الكثير مما كان يرغب فيه . لكن القوات الأوروبية المتربصة بالمغرب كانت تقف بالمرصاد لجميع الأعمال التي من شأنها تطوير القوة البحرية المغربية ، وظلت تراقب عن كثب هذا التطور .

هوامش

(*) اعد برسم الندوة التي نظمتها كلية الآداب بالجديدة، (1988) في موضوع : «السلطان سيدي محمد ابن عبد الله».
وقد نشر بمجلة دعوة الحق (المغرب، العدد 274، 1989)

(1) حول الدوافع التي حدت بالباحث إلى استخدام هذا المصطلح المغربي بدل استخدام مصطلح «القرصنة، وكذا المراحل التي مر بها الجهاد البحري إلى غاية السلطان محمد بن عبد الله : محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17، ص 210
(2) نتيجة الاجتهاد، ص 34 .
(3) تاريخ الضعيف، ص 166 .
(4) عبد الرحمان بن زيدان، الاتحاف، 3 : 259 .
RAmón Lourido, «Transformación de la Pirateria marroqui en Guerra del corso»,
in **Hespéris-Tamuda,** vol X Face 1-2, 1969, PP. 51-52.
(5) Roger Coindereau, **Les Corsaires de Salé**, P. 201.
(6) تاريخ الضعيف، ص 169 .
(7) Roger Coindereau op. cit. p.201.
(8) نتيجة الاجتهاد، ص 37 .
(9) تاريخ الضعيف، ص 166 .
(10) المصدر السابق، ص 169 .
(11) المصدر السابق، ص 166 .
(12) المصدر السابق، ص 187 .
(13) نتيجة الاجتهاد، ص 37 .
(14) تاريخ الضعيف، ص 172 ـ 173
(15) نتيجة الاجتهاد، ص 38 .
(16) تاريخ الضعيف، ص 176 .
(17) للمزيد من الإيضاح حول مختلف المراحل التي مر منها تاريخ مدينة العرائش انظر :
Tosas Garcia Figueras y Carlos Rortriguez Joulia Saint-CYR, **Larache, datos par su historia en el siglo XVIIe**
(18) الاستقصا، 8 ـ 26 .
(19) نفس المصدر الصفحة .
(20) أبو القاسم الزياني، البستان الظريف، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1577 د .
(21) أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب، مخطوط العامة بالرباط، رقم 658 د .
ملاحظة : يعتبر السلطان سيدي محمد بن عبد الله أول ملوك المغرب الذي كان يبدي عطفا كبيرا على الأتراك . انظر : محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، ص 190 .
(22) حققه أخيرا (1986) الدكتور عبد الكريم كريم .
(23) الحلل البهيجة، ص 20 .
(24) تاريخ الضعيف، ص 166 .
(25) Roger Coindreau, op. cit. p.60.
(26) Loc. Cit.
(27) Romóm Lourido, op. cit. p. 60
(28) من الكلمة الإسبانية Soldados
(29) من الكلمة الإسبانية Oficiales أي الضباط .
(30) نتيجة الاجتهاد، ص 36 .
(31) Roger Coindreau, pop. cit. p. 203.
(32) نتيجة الاجتهاد، ص 39 .
(33) نفس المصدر والصفحة .
(34) الإكسير في فكاك الأسير، ص 5 .

صفحة من صفحات التاريخ
المشترك بين اليمن والمغرب
خلال القرن السادس عشر (*)
(التهديد العثماني نموذجا)

علاقة اليمن بالمغرب علاقة قديمة قدم البلدين، فكثير من كتب الرحلات المغربية تحمل اخبارا تتعلق باليمن وأحوالها وظروفها، كما ان العديد من العائلات اليمنية استقرت بالمغرب في فترات مختلفة من تاريخه. وهكذا فإن اليمن لم يكن ابدا غائبا عن الساحة التاريخية المغربية، ومع ذلك، فإننا لانجد ـ حسب علمنا ـ دراسة تتعلق بالموضوع، وهذه محاولة نريد من خلالها أن نثير الانتباه الى ضرورة توحيد الرؤيا حول العديد من القضايا التاريخية التي تهم البلدين، وسنأخذ كمثال على ذلك قضية التهديد العثماني لليمن والمغرب خلال القرن السادس عشر.

هناك ثوابت في السياسة العثمانية سواء اتجاه المغرب أو اليمن تجعل الاحداث تسير على نفس النمط تقربا.

فنشير أولا بالنسبة للمغرب إلى مجموعة من العوامل تذكرنا الى حد كبير بأوضاع اليمن خلال نفس الفترة :

- الصراع حول السلطة
- الغزو البرتغالي للشواطىء المغربية
- تدهور اقتصادي واجتماعي هز المجتمع المغربي بعنف.

وفي هذا الاطار يدخل التهديد العثماني للمغرب. فقد تدخل العثمانيون أول الامر لصالح الوطاسيين ضد خصومهم (السعديين) وانتهى الامر باغتيال محمد الشيخ (المؤسس الحقيقي للدولة (السعدية)، مما جعل ابنه عبد الله الغالب يتجه إلى التعامل مع الاسبان والفرنسيين لمجابهة الخطر التركي، وقد كان لهذا التعاون آثار سلبية كبيرة نذكر من بينها :

- قضية الأندلس : اذا كان الاندلسيون ينتظرون الدعم من المغرب ابان ثورتهم التي اندلعت سنة 1568 ، لكن السلطان السعدي لم يستطع تقديم اي شيء لصالح هذه الثورة نتيجة التهديد العثماني. . . [1].

- الثغور المغربية المحتلة (سبتة، مليلية، الجزر الجعفرية. . .) : ظلت العديد من الثغور المغربية محتلة (سواء من طرف الاسبان أو البرتغال)، ولم يستطع السلطان السعدي القيام بأي عمل من شأنه تحرير هذه الثغور وذلك نتيجة التهديد العثماني، واضطراره إلى التفاهم مع الاسبان.

وسوف تتكرر الصورة مرة أخرى في أحداث جديدة، اذ انقسم المغرب من جديد فاستنجد المعتصم بالاتراك، فيي حين اتجه المتوكل الى البرتغال مما أدى إلى وقوع معركة وادي المخازن (1578)، والتي تجلت فيها الوحدة الاسلامية بوضوح، وكان لها صدى مدوفي الشرق العربي [2]، كما كانت ضربة قاضية بالنسبة للبرتغال الذين فقدوا فيها استقلالهم بوقوعهم تحت سيطرة الاسبان. لكن لم يستفد المغرب هنا أيضا من نتائج المعركة نتيجة التهديد التركي أيضا :

- فلم يستطع المنصور تحرير الثغور المغربية المحتلة (سبتة، مليلية الجزر الجعفرية. . .).

- ولم يستطع أن يذهب إلى حد بعيد في تقديمه المساعدة للاندلسيين، خاصة انه اكتشف تواطؤ بعضهم مع الاتراك [3]. لكنه استطاع أن يقف في وجه الاتراك، ليضمن للمغرب استقلاله، وهذا سفيره الى السلطان العثماني مراد الثالث، يقول : «. . . والعثمانيون من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام، وان كان أكثرهم وأكثر اتباعهم ممن يصدق عليهم قوله ـ ص ـ : «ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وان كانوا انما حملوا الامارة، وقلدوا الامر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها الى من هو احق بها، واهلها هم موالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب، الذين شرفت بهم الامامة والخلافة وكل مسلم لا يقول عكس هذا و خلافه. . .». [4]

وهكذا أمام اصدار المغاربة على الدفاع عن استقلالهم اضطر العثمانيون إلى التراجع والتخلي عن فكرة السيطرة على المغرب. وتذكرنا هذه الاوضاع بما كان يجري في اليمن :

- انقسام على مستوى السلطة (الزيدية والطاهرية)
- الغزو البرتغالي لسواحل البحر الاحمر والخليج العربي.
- التدهور الاقتصادي والاجتماعي نتيجة اختفاء الوساطة العربية.

في ظل هذه الظروف إذن ابتدأت علاقة اليمن بالعثمانيين، فقد تقدم أمير اليمن (كان تابعا آنذاك للمماليك بمصر) بفروض الطاعة والولاء للسلطان العثماني سليم (5)، وذلك نتيجة للخطر البرتغالي، اذ هدد البرتغاليون جدة سنة 1505، وتمكنوا من التسلل الى مكة نفسها (6)، وقد اقسم ملكهم أن يستولي عليها وأن يقوم بنبش قبر الرسول ـ ص ـ في المدينة (7)، وكان على الاتراك اذن أن يواجهوا البرتغال (8)

وقد كان موقع اليمن من بين العوامل التي برزت أهميتها في تحقيق الاهداف العثمانية ضد البرتغاليين، فوصول اليمن في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية وامتداد حدودها من جنوب نجد والحجاز في الشمال الى خليج عدن في الجنوب، ومن حدود عمان والربع الخالي شرق البحر الأحمر ومضيق باب المندب غربا (9) جعلها منطقة دفاع هامة عن حدود الامبراطورية العثمانية من الجنوب، وقد أدى هذا إلى اقتناع العثمانيين بأن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز والتحكم في البحرين الاحمر والعربي (10) وقد تمكن العثمانيون من تحقيق هدفهم على مرحلتين :

المرحلة الاولى : (1517 ـ 1538) :

بدأت هذه المرحلة بعد فتح مصر مباشرة في سنة 1517 بإرسال بعثة عثمانية حملت أوامر السلطان العثماني لقادة المماليك في اليمن لكي يعلنوا خضوعهم وتبعيتهم للسيادة العثمانية، غير أن بعض القادة المماليك لم يذعنوا لأوامر السلطان العثماني وتمسكوا باستقلالهم وخرجوا على من أعلن الطاعة منهم وقضوا عليه، لهذا رأت الدولة العثمانية أن ترسل ولاة للدولة غير أنها لم ترسل معهم في بداية الأمر قوة حربية

تدعم حكمهم مما شجع المماليك على تهديدهم حتى اجبروهم على الفرار من البلاد ناجين بأنفسهم ، ثم حاولت الدولة العثمانية أن تنصب بعض القادة المماليك ليكونوا ولاة اليمن من قبلها على أن يضمنوا تبعية البلاد لسيادتها ، غير أن هؤلاء القادة كانوا يستبدون بالأمر ويعلنون استقلالهم ، وقد أدى كل ذلك إلى أن الدولة العثمانية ارتأت اخيرا ألا سبيل إلى ضمان سيادتها على اليمن إلا بالاحتلال الفعلي وإقامة حكم عثماني مدعم بالقوة العسكرية ، وكانت هذه هي المرحلة الثانية التي استمرت قرابة قرن .

المرحلة الثانية (1538 ـ 1635) :

ابتدأت هذه المرحلة في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني الذي أمر بتجهيز قوة ضخمة ابحرت من ميناء السويس في 27 يونيو 1538 ، وكان الهدف الواضح من توجيه تلك الحملة هو القضاء على البرتغاليين الذي كانوا يعيثون فسادا في موانىء البحر الاحمر والعربي ، بينما كان الغرض الكامن من ورائها هو احتلال اليمن [11] الذي كان يمكن عن طريقه تحقيق الأغراض الدفاعية والتوسعية للدولة العثمانية حينذاك . وقد وصل الأسطول العثماني الى عدن في نفس السنة يقوده سليمان باشا الارناؤطي الذي كان من ابرز القادة العثمانيين في ذلك الوقت [12] . واستدعى هذا القائد أمير عدن عامر بن داود الطاهري لزيارة سفينة القيادة ، وكان عامر هذا قد كتب الى السلطان العثماني طالبا منه المساعدة للتغلب على الامام الزيدي شرف الدين الذي كان يسيطر على المنطقة الوسطى في اليمن ويطمع في ضم عدن الى منطقة نفوذه ، وقد ابدى القائد العثماني لامير عدن استعداده لمساعدته ـ بناء على موافقة السلطان العثماني ـ مما شجع عامر على تلبية الدعوة والصعود الى سفينة القيادة ، غير أن القائد العثماني غدر بعامر قبل أن يستقر به المقام على ظهر السفينة وامر بقتله [13] .

ثم انزل قواته العثمانية فاستولى على عدن بدون قتال في اليوم الثالث من غشت من نفس السنة [14] ، بل ان سليمان باشا أمر بقتل من بقي من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحجة أنهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين [15] وعلى كل فقد اناب سليمان باشا عنه في إدارة عدن احد ضباطه ، بينما أقلع اسطوله تجاه الهند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين ، غير أن مهمته انتهت بالفشل ، وانسحب الاسطول العثماني عائدا إلى عدن . [16]

ويرجع سبب هذا الفشل الى العثمانيين أنفسهم : إلى الطريقة التي فتحوا بها عدن وغدرهم بأميرها عامر، مما جعل جل الامارات حذرة جدا من التعامل مع الاتراك وبالتالي لم تقدم على تقديم أية مساعدة لهم لمواجهة البرتغال. وهكذا عندما وصلت إلى مسلمي الهند اخبار عدن خافوا أن يقع لهم ما وقع لها إذا ما تم لهم الاقتصار فتخلوا عنهم [17]. وبعد عودة الاسطول العثماني الى عدن رأى قائده سليمان باشا أن يعود الى مصر مارا بسواحل اليمن بعد أن يضمن تبعيتها للدولة العثمانية، لهذا عندما وصل الى ميناء مخا اليمني طلب من الناخوذة احمد الحاكم المملوكي في اليمن حينذاك إعلانا تبعيته البلاد للسيادة العثمانية ففعل.

وكان العثمانيون قد اتجهوا في ذلك الوقت الى ميناء الصليف حيث انزلوا قواتهم التي تقدمت الى زبيد، وغدروا بالناخوذة أحمد واعدموه هو وجمعا من رفاقه وقضوا نهائيا على الحكم المملوكي في اليمن [18]. وهكذا خضعت اليمن خضوعا فعليا للسيادة العثمانية في أواخر عام 1538.

لم يمض وقت طويل من سيطرة العثمانيين على عدن حتى اعلنت القبائل اليمنية ثورتها على الحامية العثمانية المرابطة في المدينة عندما رأت ما حدث من غدر العثمانيين بأميرهم عامر بن داود الطاهري.

واضطر العثمانيون أن يرسلوا اسطولا حربيا عبر البحر الاحمر تحت قيادة «بيري» الذي تمكن من استعادة عدن بعد أن أخمد ثورة القبائل [19].

أما القائد العثماني سلي باشا الذي كان مرابطا في ميناء الصليف فإنه اعتبر مهمته قد انتهت وقرر العودة الى بلاده [20] بعد أن أسند حكم اليمن للوالي العثماني مصطفى عزة [21]، وقد اتخذ هذا الوالي مدينة زبيد مركزا لولايته.

بدأ العثمانيون القيام بعمليات التوسع في اليمن منذ مطلع سنة 1539 مما أدى إلى وقوع الصدام بينهم وبين الامام الزيدي «فكان بينهم وبين ولاة الامام شرف الدين حروب في جهات شتى . . .». [22] وقد سيطر العثمانيون على ثغز في سنة 1545 كما سقطت بعدها صنعاء في قبضتهم [23]، ولكن المحافظة على صنعاء أو

أي من المدن الأخرى في جبال اليمن ما كانت لتواجه مقاومة اتباع الامام الزيدي الذي كان يسيطر على المنطقة الجبلية الشمالية الممتدة من صعدة شمالا إلى ذمار ورداع جنوبا، [24] وعلى الرغم من أن بقية أجزاء اليمن يدين معظم سكانها بالمذهب الشافعي السني فقد التقوا مع اخوانهم الزيديين [25] حول راية الامام شرف الدين لمقاومة العثمانيين الذين يختلفون عنهم في الجنس واللغة، واحسوا انهم اعداء مغتصبون، وإن كانوا يدينون بالاسم ويتبعون المذهب السني، وازاء تضامن الشعب اليمني وتكاتفه في مقاومته العثمانيين، فإن هؤلاء لجأوا في بعض الاحيان إلى استعمال أساليب المكر والدهاء والوقيعة بين اليمنيين وكانوا يحققون بها مالا تستطيع أن تحققه قواتهم المجادة، وعلى الاقل يشغلون بها عناصر المقاومة اليمنية حتى تصل إليهم الامدادات الكافية لتحقيق اغراضهم الحربية. وقد فعلوا ذلك مع الامام شرف الدين عندما أرسلوا اليه احدهم ويدعى حسن البهلوان، فأحدث هذا العثماني فتنة بين الامام وابنه المطهر اثارت قتالا مروعا بينهما [26] شغلهما عن صد تيار التوسع العثماني في ارجاء اليمن، ولم يخمد ذلك القتال سوى بتدخل «بعض العقلاء»، وتنازل الامام لابنه المطهر عن الامامة حقنا للدماء، بينما استولى الترك في أثناء ذلك النزاع على المنطقة الممتدة من تعز جنوبا الى جيزان شمالا. ثم تقدم الوالي العثماني ازدمر من زبيد تجاه صنعاء والتحم مع قوات المطهر الذي هزم بعد قتال عنيف انسحب بعده بينما دخل ازدمر صنعاء بمعاونة بعض اتباع المطهر في سنة 1547، بعد أن سفكت دماء كثيرة، ونهبت المخازل والمتاجر في أثناء سقوط المدينة في قبضة العثمانيين.

وبعد سيطرة العثمانيين على صنعاء توطد مركزهم في اليمن وتم لهم الاستيلاء على كثير من بلاده.

ولم تضعف مقاومة الامام المطهر للعثمانيين على الرغم من استيلائهم على مدينة صنعاء ومحاولتهم المستمرة لتثبيت دعائم حكمهم في اليمن اذ استعاد هذا الامام قواه في عهد الوالي العثماني رضوان باشا [27] وتمكن من قطع خطوط التموين عن صنعاء وغيرها من المدن الجلية الخاضعة للعثمانيين، بل ان المطهر تغلب على الوالي العثماني مراد باشا الذي قتل في احدى المعارك. [28] بينما تمكن المطهر من دخول صنعاء في سنة 1568، وعقد صلحا مع العثمانيين، انسحبوا بموجبه إلى زبيد وسهول تهامة.

وعندما علمت الدولة العثمانية بالمقاومة الضارية التي تزعمها الامام المطهر ضد قواتها في اليمن ارسلت حملة مزودة بأحدث الاسلحة يقودها سنان باشا.[29]

وأخيرا وجد العثمانيون أنفسهم في الحين يواجهون تيارا عنيفا من التذمر والعداء والثورات المستمرة والمقاومة العنيفة الضارية التي كان يشترك فيها مع الزيديين في الجبال اخوانهم الشافعيون وكانت القوات العثمانية تتكبد بصفة دائمة خسائر فادحة في الأموال والأرواح مما جعل العثمانيين يفكرون في الجلاء عن اليمن تخلصا من هذا الحلم المزعج الذي عاشوا فيه قرابة قرن من الزمان وهكذا كان جلاء العثمانيين عن اليمن الذي تم تفي سنة 1635 في عهد السلطان العثماني مراد الرابع استجابة طبيعية لما فرضته المقاومة الطبيعية التي قام بها الشعب اليمني ضد العثمانيين، ويمكننا أن نعطي عدة أسباب لفشل الوجود العثماني في اليمن :

- ضعف سيطرتهم على مصر في منتصف القرن السابع عشر
- تناقص أهمية البحر الأحمر بزيادة الاقبال على طريق الرأس الرجاء الصالح .
- وقوع اليمن في اقصى جنوب البلاد العربية بعيدة عن اسطنبول، وصعوبة ايصال الامدادات إليها والتكاليف الباهضة التي كانت تتحملها الدولة
- اختفاء المنافسة البرتغالية (بفعل معركة وادي المخازن)
- اختفاء خطر الدولة الصفوية في ايران.
- الظروف الداخلية للدولة العثمانية (هزيمة لبانتو 1571)
- الموقف الدولي.

تلك كانت هي احداث اليمن خلال فترة معينة خلال القرن السادس عشر، وقبلها عرضنا لاحداث المغرب خلال نفس الفترة فماذا يمكن أن نستخلصه من كل ذلك ؟

- ان رغبة السيطرة كانت واضحة لدى العثمانيين سواء في المغرب أو اليمن ولو على حساب المصلحة الخاصة لكل بلد، وكان المبرر الشرعي الذي يعطي دائما لتبرير ذلك هو توحيد المسلمين في اطار خلافة اسلامية واحدة.
- اساليب العثمانيين في السيطرة كانت واحدة في البلدين : فهي تتراوح بين الخديعة والمراوغة والعنف والقمع.
- فكر بعض حكام المغرب، كما فكر في ذلك بعض حكام اليمن، في التعاون مع

قوات اوروبية معينة، لخلق عامل توازن في علاقاتهم مع الاتراك. فعبد الله الغالب في المغرب تعاون مع الاسبان لضمان استقلال بلده، واتجه الى هذه المحاولة ايضا داود ابن عامر عندما فكر في التفاهم مع البرتغال، لكن نجح الاول وفشل الثاني.

- لقي العثمانيون في كل من اليمن والمغرب مقاومة عنيفة، وإن اختلفت أساليب المقاومة في كل من البلدين، فقد فرض على البلد الأول (اليمن) أن يواجهه بقوة السلاح، في حين اتجه البلد الثاني (المغرب) إلى المقاومة الدبلوماسية.

هوامش

(*) أعد برسم الندوة التي نظمتها جامعة عدن بالجمهورية اليمنية سنة 1989 في موضوع : «اليمن عبر التاريخ» وقد نشر البحث بحوليات كلية الآداب بالدار البيضاء، العدد الخامس 1989، ص 85 ـ 94.

(1) انظر في هذا الصدد : محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16 و17، الفصل الثاني من الباب الثاني

(2) ينقل لنا احمد بن القاضي صدى المعركة في الشرق العربي قائلا .

«. . . وحدثني بعض من اثق به أنه جلس ذات يوم بجرجة من بلاد الصعيد قاعدة امارة بني عمر مع أميرها يونس بن عمر، وتفاوضا في غزوة مولانا وماله من العدل والمآثر الحسنة والسير المستحسنة، فتأوه لذلك وتاقت نفسه للدخول في سلك بيعته . . .» انظر المنتقى المقصور، 2 : 846.

ويضيف قائلا . «ومما شاهدته من مبرة اهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ لما انتهى اليهم امر غزوته العظيمة ما يكل عن وصفه اللسان، ولا يحيط به بنان، وترى الواحد منا بينهم كأنه أعجوبة عظيمة يشار اليه قائلين : هذا من أهل الغزوة المشهورة، مما لا يدركه الا من شاهد ذلك، وصار لنا بذلك بينهم حظا عظيما، ووقارا جسيما وصار العرب من مملكته يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم. . .» المصدر السابق، نفس الصفحة.

(3) انظر محمد رزوق، المصدر السابق، نفس الفصل.

(4) علي التمجروتي، النفحة المسكية، . . . . ص 147.

(5) محمد بن اياس، بدائع الزهور، 3 : 166

(6) محمد بن اياس، المصدر السابق، 3 : 191.

(7) Kammer, **La Mer Rouge**... T : 2, p : 144

(8) عن دوافع الغزو البرتغالي للبحر الأحمر والخليج العربي، انظر :

محمد رزوق، صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج)، مقال بمجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالدار البيضاء، العدد الثاني، 1985، ص 123 ـ 131

(9) كانت هذه هي الحدود القديمة لليمن الكبرى. انظر الحسن بن احمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص 51.

(10) فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن، ص 19

(11) عبد الله بن داعر، الفتوحات المرادية. 1 : 188

عن فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، 24

(12) يذكر عنه محمد أنيس انه كان : «تجاوز الثمانين من عمره سفاكا للدماء ضعيف العقل عديم الرأي. . .».

انظر كتابه الدولة العثمانية والشرق العربي، ص 122

(13) عبد الله الجرافي، **المقتطف من تاريخ اليمن**، ص. 88
(14) عبد الصمد الموزعي، **كتاب الاحسان**. . ص. 8
عن فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، ص. 25
(15) ينفي احمد شرف الدين هذه التهمة عن الطاهريين، انظر **اليمن عبر التاريخ**، ص. 262.
كما لا يستبعد الدكتور عبد العزيز سليمان نوار أن تكون هناك محاولات من جانب عامر بن عبد الوهاب للوصول الى تفاهم ما مع البرتغاليين الذي كانوا يمثلون خطرا ساحقا على عدن في الوقت الذي كانت فيه عدن آخر معقل الطاهر بيين معرفة لهجمات عنيمة من جانب الامام الزيدي انظر كتابه، **الشعوب الاسلامية**، 104.
(16) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، 22
(17) ـ محمد أنيس، المصدر السابق، 122
(18) ـ عبد الصمد الموزعي، المصدر السابق، ص. 8
عن فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، 22.
(19) احمد فضل العبدلي، **هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن**، ص. 100
(20) عبد الله بن اتلمصدر السابق، 1 : 188،
عن فاروق عثمان اباظة، المصدر السابق، 24
(21) محمد العقيلي، **الجنوب العربي في التاريخ**، 1 . 308
(22) ـ حسين العرشي، **بلوغ المرام** . . ص. 60
(23) ـ عبد الصمد الموزعي، المصدر السابق، ص 10، عن فاروق اباظة، المصدر السابق 24.
(25) ـ امين الريحاني ملوك العرب، 1 126
(26) قطب الدين لحنفي، **البرق اليماني في الفتح العثماني**، ص. 84، عن فاروق أباظة، المصدر السابق، ص. 23
(27) المصدر السابق ص 136
(28) عبد الله بن داعر المصدر السابق، 1 . 201، عن فاروق أباظة، 24.
(29) حسين العرشي، المصدر السابق، ص. 61
(30) احمد فخري، **اليمن ماضيها وحاضرها**، ص. 156 ـ 157

المصادر والمراجع

- اباظة فاروق عثمان

  الحكم العثماني في اليمن، القاهرة، 1986

- ابن اياس محمد

  بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة

- أنيس محمد

  الدولة العثمانية والشرق العربي، القاهرة 1985

- حسن ابراهيم حسن

  اليمن البلاد السعيدة، القاهرة 1958

- حسن محمد

  قلب اليمن، بغداد، 1947

- رزوق محمد

  - **الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16 و17**، الدار البيضاء 1989

  - «صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن 16 ـ الغزو البرتغالي نموذجا ـ»، مقال **بحوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالدار البيضاء**، العدد الثاني، 1985، ص 123 ـ 131.

  - العلاقات العربية الافريقية في القرن السادس عشر» مقال بمجلة **المؤرخ العربي**، بغداد، العدد 31، 1987، ص 99 ـ 103

- التمجروتي علي

  - **النفحة المسكية في السفارة التركية**، باريس

- سالم السيد مصطفى

  تكوين اليمن الحديث، القاهرة 1963

- شرف الدين احمد حسين

  اليمن عبر التاريخ، القاهرة 1963

- العبدلي أحمد فضل

  هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن، القاهرة 1932

- العرشي، حسين
بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك، وامام، القاهرة 1939
- العفيلي محمد
الجنوب العربي في التاريخ، الجزء الأول بمطابع الرياض 1958 والجزء الثاني بالقاهرة 1961
- فخري أحمد
اليمن ماضيها وحاضرها، القاهرة 1957
- ماضي محمد
دولة اليمن الزيدية، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية، القاهرة 1950
- مؤلف مجهول
تاريخ الدولة السعدية التاكمدارتية، نشره جورج كولان بالرباط 1934
- مؤنس حسين
الشرق الاسلامي الحديث، القاهرة 1938
- الهمداني الحسن
صفة جزيرة العرب، القاهرة، 1953
- الواسعي عبد الواسع
تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، القاهرة 1927

- Berreby, J J

La Péninsule arabique, Paris 1958

- Kammer

La mer rouge, l'Abyssinie et l'arabie depuis l'antiquité

- Neibuhr, C.

Voyage en Arabie en d'autres pays, Amsterdam 1776

- Braudel (F)

La méditerranée et le monde méditerranéen, 2 tomes, Paris 1979.

- Castries (H. de)

- **Sources inédites de l'Histoire du Maoc**, 1ère série, Paris 1905-1953

- Ricard (R)

Etude sur l'histoire des Portuguais au Maroc, Coimbra, 1951

صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج) (*)

تعددت الصفحات المشتركة بين المغرب والخليج العربي لفترات طويلة في التاريخ الاسلامي، فنذكر في المجال السياسي - مثلا - لجوء عبد الرحمان بن معاوية إلى المغرب أيام أبي جعفر المنصور، إذ ظل يكابد المشاق إلى حين تأسيس الدولة الأموية بالأندلس. وفي نفس السنة التي توفي فيها عبد الرحمان الداخل كانت دولة اخرى تنبثق من الشرق هي دولة الادارسة التي كان يشعر افرادها بنوع من الالتزام المعنوي تجاه العراق، وما اتخاذ مدينة البصرة - بصرة المغرب - عاصمة لبعض أمراء الادارسة الا دليلا قاطعا على ذلك. وقد كانوا يهدفون بذلك إلى أن يباهوا (بصرتهم) بصرة العراق. وبالفعل فقد قصدها الادباء والعلماء والشعراء من المغرب والاندلس والمشرق [1]. ومازالت إلى يومنا هذا أسرة العراقيين المشهورة بالمغرب، كما لا ننسى ان السعديين اصلهم من شبه الجزيرة العربية وكذا أبناء عمهم العلويين فانهم هاجروا منها.

وسنحاول في هذا العرض الموجز أن نركز على صفحة مهمة من أهم الصفحات المشتركة بين جناحي العروبة، تلك هي الصفحة التي اشترك في كتابتها عرب المشرق والمغرب على السواء خلال القرن السادس عشر. فمن المعروف أن هذا القرن الاخير عرف احداثا خطيرة على الساحة السياسية والاقتصادية في العالم أدت الى تغيير وجه العالم الوسطوي تماما وظهرت قوات سياسية واقتصادية جديدة، وعقليات ومفاهيم جديدة، وقد كان نصيب منطقتنا من كل ذلك تعرضها للغزو البرتغالي. ومن أهم ما تميز به هذا الغزو شموليته بالنسبة للمغرب والخليج العربي فقد كان يهدف إلى تطويق المنطقة العربية بالاستيلاء على منافذها البحرية ونقطها الاستراتيجية قصد القضاء على الوساطة العربية، أي ضرب الاقتصاد العربي في الصميم، وبالتالي احداث خلل في التوازن الاجتماعي بالمنطقة، لكن المواجهة العربية كانت عنيفة خاصة في المغرب (بفعل معركة وادي المخازن) مما أدى بالبرتغال الى التراجع عن المنطقة العربية وتعرية نفسه بالعالم الجديد (البرازيل).

وسوف نتعرض في هذا البحث لعوامل الغزو ومراحله ونتائجه على المنطقة العربية .

الغزو البرتغالي

قبل التعرض إلى عوامل هذا الغزو نبدي أولا ملاحظة أساسية، وهي أن هذا الغزو بدأ مبكرا بالنسبة لباقي الدول الاوروبية (احتلال سبتة ـ مثلا ـ كان سنة 1415)، ولعل ذلك يرجع إلى عاملين :

ـ **عامل تاريخي** : خرج العرب من البرتغال منذ القرن الثالث عشر، في حين ظل الوجود العربي باسبانيا إلى غاية سقوط غرناطة (سنة 1492)، فلم يكن هناك اذن ما يشغل البرتغال عن ممارسة غزوهم للشواطيء الافريقية [2] .
ـ **عامل جغرافي** : قرب البرتغاليين من السواحل الافريقية، اذ تواصلت حملاتهم بعد غزو سبتة الى أن وصلوا سيراليوني عام 1461 . [3]

عوامل الغزو :

ـ **عامل ديني** : تتبع المسلمين بالمغرب الوصول الى الاماكن المقدسة بالحجاز.

صرح الامير البرتغالي هنري الملاح بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد البيت المالكي الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في المغرب، وانه سيمنح أكبر وسام في بلاده (وهو وسام السيد الاعظم) لمن يجاهد في هذا الميدان [4] . يضاف إلى هذا أن هذا الأمير نفسه كان على رأس الجماعة التي عرفت باسم (جماعة المسيح)، وكان يصرح بأن هدفه الأسمى هو نشر الكاثوليكية بين الأفارقة [5]

وقد كانت القرارات البابوية (Les Bulles Pontificales) تمنح للملوك البرتغاليين امتيازات مالية وجبائية مهمة جدا قصد تشجيعهم على الاستمرار في محاربة الاسلام والمسلمين وغزو أراضيهم . [6]

ـ **عامل استراتيجي** : أهمية المنافذ البحرية بالمغرب الأقصى والخليج العربي .

هنـاك صفـة مشـتركـة بين المغـرب الأقصى والخليج العربي تتمثل في أهمية المنطقتين بالنسبـة للمـواصـلات البحرية العالمية، فالمغرب يشرف على بحرين مهمين : البحر الأبيض المتوسط بحضاراته العريقة، والمحيط الأطلسي، منطلق الأوروبيين إلى العالم الجديد غربا، وأوروبا الغربية شمالا، وافريقيا الغربية جنوبا، بالاضافة إلى تحكمه في مضيق جبل طارق الذي لا تخفى اهميته إلى يومنا هذا. أما بالنسبـة للجزيرة العربية فإنها تمثل نقطة التقاء بين قارات ثلاث : أوروبا وآسيا وافريقيا، فمنها تنطلق السفن من بحر عمان متجهة نحو المحيط الهندي لينتهي بها المطاف إلى الصين واليابان. كما تستطيع السفن أن تنزل جنوبا نحو شواطىء افريقيا الشرقية إلى جزيرة مدغشقر وفي امكان السفن أن تدور حول جنوب الجزيرة العربية عبر باب المنـدب لتصـل الى البحـر الأحمـر فبرزخ السـويس، ومن هناك يمكن الانطلاق الى البحر الابيض المتوسط.

فمن شأن السيطرة على المنطقتين اذن التحكم بسهولة في طرق المواصلات العالمية، وجعل سكانها تحت رحمة المسيطر.

- **عامل اقتصادي** : القضاء على الوساطة العربية بالخليج العربي والمغرب.

استولى البرتغال على الشواطىء المغربية واحتلوا عددا منها وحاولوا التوغل إلى الداخل، وحاولوا قطع أي اتصال بينها وبين الخارج. وهكذا قطعوا بالقوة علاقاتها مع تجار البنـدقية وجنـوة الـذين ظلوا يترددون عليها طيلة قرون بقصد المبادلات التجارية، فطاردوا أولئك التجار بعنف ولم يترددوا في قتلهم أحيانا. [7] وفي الجنوب توغل البرتغاليون نحو مصادر الذهب ووصلوا في 847 هـ (1343)، (أرجين) ثم الى (مينا) و (أكسيم) بافريقيا الاستوائية في سنة 891 هـ (1486)، وامكنهم اثر ذلك أن يحولوا جزءا كبيرا من الذهب المستخرج نحو سفنهم الراسية على الشاطىء، بدل أن يتركوا ذلك الذهب يتابع طريقه التقليدية نحو الشمال أي نحو المغرب، عبر الصحـراء. ومن المعلوم أن المغـرب كان يعتمـد يومئـذ في توازنـه الاقتصـادي والاجتماعي على تجارة القوافل الصحراوية وخاصة على تجارة الذهب. [8]

ونفس الامر حدث بالمشرق العربي فقد كانت السياسة البرتغالية مرتبطة بهدف واضـح : القضـاء على الوساطة العربية ما بين أوروبا والمناطق الاسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور. [9]

الغزو :

كان البابا يحث باستمرار البرتغال على مهاجمة المسلمين وذلك كرد فعل ضد فتح بيزنطة من طرف الاتراك العثمانيين سنة 1453 . وهكذا فقد هاجم البرتغاليون مدينة القصر الصغير بقوات عظيمة سنة 1453 ، وقد كان على رأس الحملة الملك الفونسو الخامس نفسه ، واحتلال هذه المدينة يرجع في أساسه إلى أنها ميناء هام على مضيق سبتة وطنجة ، ويمكن الاعتماد عليها لتقوية سبتة ولمهاجمة طنجة فيما بعد . (10)

وفعلا فقد تعرضت هذه المدينة لحملات عديدة فشلت جميعها للمقاومة الداخلية الامر الذي حذا بالبرتغاليين الى القيام بمهاجمة أصيلا واحتلالها سنة 1471 ، واتخاذ هذه الأخيرة قاعدة لاحتلال طنجة التي فر منها أهاليها ودخلتها قوات الاحتلال بعد ثلاثة أيام من التاريخ المذكور. (11) فتعززت بذلك وضعية البرتغال في شمال المغرب ، وقويت أماني ملوك لشبونة في اتخاذ هذه المراكز نقطا لاحتلال داخل البلاد . (12)

وفي نفس الوقت كان البرتغاليون يسيرون في خطة مماثلة بالشرق العربي ، فقد كان تدمير المقدسات الاسلامية في الحجاز جزءا من أهداف النشاط البرتغالي في المياه الشرقية الاسلامية . (13) وقد اتبع البرتغاليون فعلا في سيطرتهم على البحار والمحيطات سياسة صليبية لا انسانية ضد العرب ، فقد كان البوكرك قاسيا مع العرب حتى انه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار (14) . واطلق القادة البرتغاليون عنان جنودهم فسمحوا لبحارتهم بممارسة القرصنة ضد السفن العربية ، وكان الاسطول البرتغالي يقوم بشن الحرب على المعاقل التجارية العربية ، فإن لم يستطيع احتلالها ضرب الاهداف المدنية واحرق الميناء بمشآته وسفنه وقواربه الراسية فيه ، وهذا ما فعله البرتغاليون في عدن وقمران ومسقط والبحرين وصحار مثلا (15) .

ولقد أدرك البرتغاليون أن استمرار تحركهم في التجارة الشرقية ومنع العرب من نقلها عبر الشرق الادنى ومصر الى اوروبا يتوقف على سد منافذ الطريقين العالميين عبر الشرق الأدنى إلى أوروبا هما طريق الخليج العربي الذي تسيطر عليه هرمز ،

وطريق البحر الأحمر الذي تتحكم فيه عدن وسقطرة وباب المندب. وكانت عدن شديدة المقاومة للبرتغاليين سنة 1513 [16]، ثم دمر الموانىء الساحلية التابعة لهرمز على الخليج العربي وخاصة مسقط وصحار، وحولوا الضريبة السنوية التي كانت تدفعها لهرمز إلى خزينة البرتغالين. ثم وجه البوكرك اسطوله الى هرمز وتمكن من بسط نفوذه على ملك هرمز الذي أصبح تابعا لملك البرتغال يدفع له ضريبة سنوية، وبنى البرتغاليون حصنا في هرمز واعفى التجار البرتغاليين من الضرائب [17]. وهكذا تسنى للبرتغاليين التحكم في الملاحة التجارية بالمنطقة. لكن ماذا كان موقف العرب من كل هذه التطورات ؟

المواجهة العربية :

لقد تجند المغاربة للدفاع عن بلادهم بصفة تلقائية وبتوجيه من العلماء الذين قادوا الناس بأنفسهم للجهاد، وظل الامر كذلك إلى حين تقلد الدولة السعدية مقاليد الأمور، اذ قادت الجهاد لتحرير البلاد من البرتغاليين إلى حين وقوع معركة وادي المخازن سنة 1578 التي قضت على الاطماع البرتغالية بالمغرب، وفرض المغرب نفسه كدولة تتمتع بالاحترام الدولي اللازم لجميع المعاملات الدولية خاصة أمام جيرانها الاسبان والاتراك بالجزائر.

أما في المشرق العربي فإن البرتغاليين وجدوا أيضا مقاومة عنيفة رغم تشتت القوات العربية التي لم يجمعها تنظيم سياسي موحد [18]. وهكذا فقد استمات العرب هناك في الدفاع عن حريتهم وكيانهم، وعند عجزهم كانوا يتجهون الى الدول الاسلامية المجاورة، فقد اتجه ملك هرمز إلى المماليك، ثم بعد ذلك إلى الشاه اسماعيل الصفوي لكن هذا الأخير تخلى عن هرمز مما اقنع عرب هرمز ومدن الساحل الغربي للخليج العربي بضرورة الاعتماد على النفس فقاموا بثورة مباغتة ضد البرتغاليين في هرمز ومسقط والبحرين وقريات وصحار، وهاجموا الحاميات البرتغالية في الجزيرة [19]. لكن الامر كان يتطلب تدخل قوى بحرية كبيرة مثل الدولة الصفوية الناشئة القريبة من معاقل البرتغاليين في الهند وفي الخليج العربي. غير أن الشاه اسماعيل الصفوي ركز جهوده في الاناضور والعراق دون أن يقدم أية مساعدة للكفاح العربي بالخليج وفضل عوضا عن ذلك التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين على حساب مصير الخليج العربي [20].

ولم تحول القوى الاسلامية مرة أخرى إلى الهجوم الا بعد أن سيطر السلطان سليم الاول على الشام ومصر والحجاز (1516 ـ 1517)، وأصبح يتحمل مسؤولية الكفاح ضد البرتغاليين سواء من أجل انقاذ الاراضي المقدسة الحجازية من تهديداتهم المتكررة لها أو من حيث اعادة التجارة الشرقية إلى طريق مصر [21] . وقد أدى وصول الاسطول العثماني إلى الخليج العربي إلى رفع معنويات المقاومة لدى أهل المنطقة وخاصة في القطيف في أعقاب سيطرة العثمانيين على البصرة، فثارت القطيف ثورة كبيرة ضد البرتغاليين في سنة 1550 وسلموا المدينة للاتراك العثمانيين. فكان أن رد البرتغاليون على ذلك بأن دمروا القطيف بمدفعية اسطولهم [22]

هكذا نرى أن كل المحاولات التي كان يقوم بها العرب كانت تبوء بالفشل بسبب تشتتهم السياسي أولا وتفوق الملاحة العسكرية البرتغالية ثانيا لكن ومع اقرارنا بهذه النتيجة لنا أن نتساءل : **هل نجح البرتغال بالفعل في تحقيق ما كانوا يطمحون إليه من تطويق المنطقة وضرب التجارة العربية في الصميم ؟**

لقد ظل الرأي السائد لفترة طويلة لدى الاوربيين أن البرتغال استطاعوا القضاء على الوساطة العربية سواء بالنسبة للسودان أو بالنسبة للشرق الاقصى لكن الابحاث الحديثة تثبت غير هذا، فلقد استمر المغاربة في عرض التبر ببعض الموانىء التي بقيت حرة وازداد العرض مع السنوات رغم كل المحاولات البرتغالية لقطع الطريق على القوافل إلى حد جعل المؤرخ البرتغالي الكبير (عودينبو) يعتبر ما عبر عنه بانتقام القوافل من الكرافيلات البرتغالية أهم أسباب انتصار المغاربة السياسي والعسكري على البرتغاليين [23] . كما لاحظ المؤرخ الفرنسي الكبير فرناند بروديل أن البرتغاليين فشلوا في حصارهم التجاري وأن البحر الاحمر عرف ازدهار كبيرا في أواسط القرن السادس عشر ولمدة تتجاوز عشرين سنة [24] . ولاحظ كيرك أن البرتغاليين لم يستطيعوا مطلقا تحويل برمتها عن الطريق البري، فقد بقي تجار العرب طوال القرن السادس عشر يقومون بجلب الحرير والاصباغ والعقاقير من الشرق والبن من اليمن وينقلونها جميعا في البحر الأحمر، ثم عبر الصحراء إلى القاهرة والاسكندرية [25] ويقول المؤرخ الكبير أحمد عزت عبد الكريم . «اذا كان الجانب الأكبر من التجارة الشرقية قد تحول إلى الطريق البحري المباشر، فإن اسواق العواصم والثغور العربية في بغداد والبصرة ودمشق وحلب والاسكندرية ظلت عامرة بمنتجات الشرق مما تجلبه إليها القوافل وتردد عليها التجار من جنسيات مختلفة ليزودوا منها بما يريدون» [26]

لكن الانتصار الحقيقي ـ كما يقول استاذنا محمد زنيبر ـ «لم يأت من المحاولات العثمانية ولا من أي جهة أجنبية عن العرب، بل جاء في الحقيقة من التضامن الفعلي بين العرب» (27) وهو يقصد بذلك دور معركة وادي المخازن في التراجع النهائي للبرتغاليين عن أطماعهم بالمغرب والمشرق على السواء، وهو انتصار كان المشارقة يقدرونه حق قدره إذ ينقل لنا مؤرخنا أحمد بن القاضي (28) اصداء هذه المعركة في المشرق العربي قائلا : «. . . . وحدثني بعض من أثق به انه جلس ذات يوم بجرجة من بلاد الصعيد قاعدة امارة بني عمر مع أميرها يونس بن عمر، وتفاوضا في غزوة مولانا وماله من العدل والمآثر الحسنة والسير المستحسنة، فتاوه لذلك وتاقت نفسه للدخول في سلك بيعته . . . . » (29) . ويضيف قائلا : «ومما شاهدته من مبرة أهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ لما انتهى اليهم أمر غزوته العظيمة ما يكل عن وصفه اللسان، ولا يحيط به بنان، وترى الواحد منا بينهم كأنه أعجوبة عظيمة يشار إليه قائلين : هذا من أهل الغزوة المشهورة ! مما لا يدركه إلا من شاهد ذلك، وصار لنا بذلك بينهم حظا عظيما، ووقارا جسيما، وصار العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم . . . . » (30)

هذا هو التاريخ وهذه صفحاته المشتركة بين مغرب الوطن العربي ومشرقه، فأين نحن اليوم من كل هذا ؟ وماذا فعلنا من أجل خلق تضامن عربي فعلي في مواجهة تحديات العصر، التحديات التقنية التي يأتي بها الغرب اليوم والتي كانت سبب فشلنا بالامس، التحديات السياسية والتي كانت أيضا سبب انهزامنا بالامس بسبب وحدة الغرب ووعيه بالامور وتشتت العرب وجهلهم.

هوامش

(*) أعده الباحث برسم الندوة العلمية الخامسة التي انعقدت ببغداد في أواخر ابريل 1984، وقد كان موضوعها «الخليج العربي والعالم». وقد نشر بحوليات كلية الآداب بالدار البيضاء، العدد الثاني، 1985.

(1) محمد بن تاويت، «المغرب ودول الخليج عبر التاريخ الاسلامي» مقال بمجلة المناهل الصادرة بالرباط، عدد 27، يوليوز 1983، 104/106.

(2) انظر شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، 154.

(3) المصدر السابق، 155

(4) المصدر السابق، 154

(5) نفس المصدر والصفحة

(6) انظر أحمد بوشرب، «مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي»، مقال بمجلة المناهل الصادرة بالرباط عدد 29، السنة العاشرة، مارس 1983، ص 73 ـ 74.

(7) J. Moulu, les Etats Barbaresques (collection que sais-je ?) N° 1097, p. 108

(8) J. Brignon et autres Histoires du Maroc, p. 189

(9) أحمد بوشرب، المقال السابق، 77

(10) ـ انظر عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، 8

(11) نفس المصدر والصفحة.

(12) نفس المصدرة والصفحة.

(13) انظر عبد سليمان نوار، الشعوب الاسلامية، 130

(14) المصدر السابق، 131

(15) نفس المصدر والصفحة.

(16) نفس المصدر والصفحة.

(17) المصدر السابق، 132.

(18) انظر أحمد عزت عبد الكريم، دراسات تاريخية في النهضة العربية، 190.

(19) انظر عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، 134

(20) المصدر السابق، 135.

(21) المصدر السابق، 135.

(22) المصدر السابق، 142

(23) أحمد بوشرب، المقال السابق، 82

(24) La Méditerranée et la Monde Méditerranéen à l'Epoque de Philipe II, 1 : 166.

(25) أورده محمد زنيبر في مقاله «بين جناحي العروبة» مجلة المناهل الصادرة بالرباط، عدد 16، سنة 1979، ص 189.

(26) دراسات تاريخية في النهضة العربية

(27) المصدر السابق، 189.

(28) انظر ترجمته في المقدمة التي عقدناها لتحقيق كتابه «المنتقى المقصور على مآثر الخلفية المصور»

(29) المنتقى المقصور، ص 745.

(30) نفس المصدر والصفحة.

ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ الأمة العربية (*)
«المغرب في القرنين 16 و17 نموذجا»

إن الكتابة حول مهجية كتابة تاريخ الأمة العربية تقتضي تجزىء هذه الدراسات إلى وحدات زمانية ومكانية من طرف المختصين، ثم تجميع الخلاصات التي وصل إليها هؤلاء قصد الخروج بتصور موحد لمعالم مدرسة عربية واحدة لكتابة تاريخ هذه الأمة.

وهذه ملاحظة أساسية لأن التعميم من شأنه أن يفقدنا القدرة على التمييز بين مختلف فترات تاريخ أمتنا، فتاريخ الأمة العربية قبل الاسلام ليس هو تاريخها في الفترة الاسلامية، وفترة العصر الحديث (القرنين 16 و17) ليست هي الفترة المعاصرة (القرنين 19 و20)، وتاريخ الشرق العربي له خصوصياته تميزه عن تاريخ المغرب العربي وإن كان يشترك معها في بعض النقط.

وهذه مساهمة متواضعة لدراسة تاريخ قطر من أقطار هذه الأمة في فترة معينة نبدي فيها بعض الملاحظات التي تمكننا من مقارنتها بتجارب أخرى في العالم العربي.

حينما نتحدث عن المغرب في القرنين 16 و17 فإن قضايا عديدة تطرح أمامنا، وتطرح معها نوعية الوثائق الممكن الاستفادة منها.

1 ـ المد الاستعماري الايبيري في شمال إفريقيا:

من المعلوم أن إسبانيا تتبعت ما بقي من الأندلسيين في شبه الجزيرة الايبيرية وقذفت بهم خارج الحدود، فكان رد فعل هؤلاء عنيفا، إذ تعاونوا مع القوات الاسلامية بشمال إفريقيا (مغربية وتركية) للوقوف في وجه من أخرجهم من ديارهم ولاسترجاع ما ضاع منهم، وهنا تبرز نوعية الوثائق المستخدمة. فالوثائق الأوربية

تعتبرهم بكل بساطة قراصنة يسعون الى السلب والنهب دون أن يقيموا أي اعتبار للأهداف الحقيقية التي جعلت الأندلسيين يواجهون الاسبان والأوروبيين عموما بهذا العنف، وعندما حاول عدد من الدارسين الأوروبيين دراسة المغرب في هذه الفترة انطلقوا من هذه الوثائق [1]، مما جعلهم يسقطون في أحكام خاطئة حول هؤلاء. وفي السنوات الأخيرة بدأ بعض الدارسين المغاربة ينظرون برؤية جديدة إلى هذه الوثائق محاولين استنطاقها، وفي نفس الوقت وضعها أمام الوثائق الوطنية لكي يبرزوا من خلالها حقيقة الدور الذي كان يقوم بها هؤلاء لصد العدوان الايبيري على المغرب، وبذلك أعطوها صفة «الجهاد البحري» إنطلاقا من الدوافع الحقيقية التي كانت تحرك الأندلسيين. إننا لا نقصد بهذا التنقيص من قيمة الوثائق الأوروبية، وإعلاء قيمة الوثائق العربية لتأييد ما نذهب إليه. فهذا عمل من شأنه أن يسقطنا في شوفينية ما، وبالتالي فهو لا يخدم التاريخ المغربي والتاريخ العربي في شيء، بل بالعكس يبعدنا عن الحقيقة التاريخية مسافة كبيرة.

إننا نقصد بالخصوص أن نعطي للوتيقة الوطنية وزنها بحاسب الوثيقة الأجنبية، فعندما نكتب عن هؤلاء الأندلسيين ننطلق أولا مما كتبه عنهم المغاربة، ثم نحاول أن نلقي بعض الأضواء على بعض القضايا إنطلاقا من وثائق أوروبية معينة، ونحاول أن نقوم بعملية مقابلة بين هذه وتلك، فنجد في النهاية أن الوثائق في حقيقتها متكاملة فإذا بحثنا الدوافع التي كانت تحرك الاندلسيين في الوثائق الوطنية وجدناها تتلخص في «الجهاد البحري ضد الكفار»، وإذا بحثنا عنها في الوثائق الأوروبية وجدناها تركز على القرصنة قصد الحصول على الغنائم، وبذلك تصبح الدوافع كالآتي : الجهاد البحري للانتقام ممن أخرجوهم من ديارهم + وللحصول على الغنائم في نفس الوقت، بل ولم لا الحصول على نفوذ سياسي داخل المغرب، ونفوذ معنوي لدى القوات الأوروبية

أما عن الاستعمار البرتغالي بالمغرب فالوثائق البرتغالية تحاول أن تصور لنا تعاون بعض المغاربة مع البرتغاليين، بل واعتناق بعضهم للمسيحية، «والانتصارات الباهرة التي حققها البرتغاليون بالمغرب. «فعندما درس الأوروبيون الاستعمار البرتغالي بالمغرب درسوه إنطلاقا من هذه الوثائق دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الوثائق الوطنية، وموقف المغاربة الحقيقي من هذا الاستعمار، نعم لقد تعاون

بعض المغاربة مع البرتغاليين ؟ لماذا دخل بعض المغاربة في النصرانية» ؟ هل حقق البرتغاليون فعلا «إنتصارات»، ماهي وضعيتهم في المراكز المحتلة ؟

بطبيعة الحال الوثائق الأوروبية سكتت عن الأجوبة، وهنا أيضا يبرز دور الوثائق الوطنية. فإذا حاولنا أن نبحث عن المتعاونين مع البرتغاليين نجد أنه قليل جدا، وحتى إن وجد فهو من طرف أصحاب المصالح، وبالتالي فهم لا يمثلون المغاربة في شيء، فهم عملاء للبرتغال، منفصلين عن المغاربة، بدليل أن المغاربة قاطعوهم، وكانوا يتحينون الفرصة للتخلص منهم إلى أن تمكنوا في العديد من المرات من ذلك. أما عن السؤال الثاني حول «دخول عدد من المغاربة إلى النصرانية» فنشير إلى وضعية المغرب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتدهورة في أواخر القرن 15 وبداية القرن 16، إذ تكالب على المغرب في العهد الوطاسي الجفاف والمرض والحروب الأهلية، مما اضطر المغاربة إلى بيع أبنائهم للبرتغال مقابل لقمة عيش حتى لا يموتوا جوعا، وهنا يبدو تفسير هذه الوضعية واضحا. إذ كانوا يتظاهرون باعتناق المسيحية مقابل الخبز، بدليل أنه بمجرد احتفاء هذه العوامل لم يعد ذكر هؤلاء الذين تظاهروا باعتناق المسيحية، مما على تأمهم لم يعتنقوها أبدا. أما عن «الانتصارات» ؛ فالتاريخ يبطل هذه المزاعم، فقد ظل العلماء يحثون المغاربة على الجهاد، وظل البرتغاليون محاصرين في مراكزهم لا يقرون على الخروج منها.

2 ـ التوسع العثماني :

لم يختلف العرب على قضية تاريخية معينة مثل اختلافهم حول تقويمهم للوجود العثماني بالعالم العربي.

فبينما اعتبره البعض وجودا ضروريا لانه انقذ هذا الأخير من المد المسيحي، إعتبره البعض الآخر عامل حنق للقومية العربية بحيث طمس معالمها طيلة سنوات الوجود العثماني به، خاصة في الجانب الفكري. ولن ندخل في هذا النقاش وسوف نسير مع الخط الذي ارتأيناه لهذا البحث ألا وهو البحث عن الوثائق التي تناولت قضايا مغرب القرنين 16 و17

لقد كان المغرب هو البلد العربي الوحيد الذي نجا من السيطرة العثمانية، واعتبر ملوك الدولة السعدية أنفسهم أحق بالخلافة الاسلامية من (المماليك الأتراك)، وذلك بفعل شرف نسبهم الذي يعطيهم هذا «الحق»، [2] وما فتىء مؤرخوا الدولة السعدية يلحون على هذه القضية. [3] واتجه ملوك الدولة السعدية إلى تحسين علاقاتهم مع الاسبان لاستخدامها كعامل توازن في علاقاتهم مع الأتراك، أي أن السعديين كانوا يواجهون الأتراك بالاسبان. وهنا أيضا تبدو أهمية التكامل والمقابلة بين الوثائق الوطنية والوثائق الأوروبية التي دعونا إليها في مستهل هذا البحث. فإذا اعتبرنا الوثائق التركية وبعض الوثائق الوطنية فبعض ملوك الدولة السعدية خونة، [4] وإذا اعتبرنا الوثائق الأوروبية فهي علاقات القصد منها المحافظة على التوازن بالمنطقة.

وإذا حاولنا أن ندقق هذه النقطة وانطلاقا من نظرية التكامل والمقابلة فإن الامر يبدو عاديا من الوجهة الدبلوماسية. فمقابل أن يحافظ بعض ملوك الدولة السعدية على استقلال المغرب عن أي نفوذ تركي عمدوا إلى تحسين علاقاتهم مع الاسبان أعداء الأتراك.

تلك كانت نظرة سريعة عن أهمية التكامل والمقابلة بين الوثائق الوطنية والأجنبية، ولننتقل الى نقطة أخرى طالما اتفق فيها العديد من الباحثين المغاربة والأوروبيين على السواء ألا وهي قصور الأسطغرافية المغربية التقليدية عن كتابة التاريخ الاجتماعي والفكري والاقتصادي للمغرب، ذلك أن كثيرا من المصادر التاريخية المغربية طالما اهتمت بالسلطة المركزية والفئات الاجتماعية المحيطة به، [5] مهملة عن قصد أو غير قصد تاريخ الشعب (العامة) على اعتبار أن تصرفات (الفئات الدنيا) من المجتمع لا تستحق التسجيل. ولكن الأبحاث التي بدأت تتصهر أخيرا بدأت تدعو الى إستخدام مناهج العلوم الاخرى (علم اجتماع، أنتربولوجيا، أتنولوجيا، لسانيات، أركيولوجيا.) لفك رموز هذه الوثائق ومحاولة تطويعها لميدان البحث التاريخي بمفهومها العصري.

كما نشير إلى أهمية إستغلال الوثائق التي لم يقع إستغلالها بعد بالشكل الكافي نتيجة تهميشها لسنوات طويلة من طرف الباحثين، مثل : فهارس الشيوخ، والاجازات العلمية، والحوالات الحبسية، والكناشات، والتقاييد التاريخية، والرسوم العدلية، والعقود الخاصة الى غير ذلك. . . فهذه الوثائق تساعدنا مساعدة عظمى في محاولة استخلاص جوانب معينة من الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية للمغرب.

هوامش

(*) نص المداخلة التي تقدم بها الباحث في المؤتمر الذي عقده إتحاد المؤرخين العرب ببغداد في الفترة المتراوحة بين 29 و27 في موضوع : «نحو مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته» وقد نشرت بحوليات كلية الآداب بالدار البيضاء، عدد 5، 1988 دجنبر 1987.

(1) عبارة عن تقارير لمبشرين أو رهبان أو جواسيس أو تجار أو قناصلة يخدمون بلدانهم الأصلية

(2) طبقا للحديث الشريف «قدموا قريشا ولا تقدموها»

(3) انظر مثلا عبد العزيز القشتالي، مناهل الصفا، وعلي التمحروتي، النفحة المسكية. وأحمد بن القاضي. المنتقى المقصور

(4) تنطق هذه الملاحظة بالخصوص على عبد الله الغالب السعدي انظر تاريخ الدولة السعدية، لمؤلف مجهول.

(5) علماء وفقهاء وتجار وقادة عسكريون.

قضية الشعوبية في التاريخ الاسلامي (*)

احتلت قضية الشعوبية مكانا بارزا في التاريخ الاسلامي يدل على ذلك ما ألف حولها قديما وحديثا، من طرف كتاب عرب واوروبيين، وتأتي اهميتها من كونها تطرح مسائل عديدة تتعلق بنوعية العلاقة التي كانت سائدة بين العرب والعجم خاصة الفرس، وكذا بابعاد هذه الحركة فكريا وسياسيا ودينيا.

أولا : السياق التاريخي لقضية الشعوبية :

مرت لفظة الشعوبية بتطورين متباينين، فقد اطلقت في الطور الأول على جماعة تذهب الى انه لا فرق بين الشعوب من عرب وعجم، ولذلك سموا «بأهل التسوية» (1) وكان هؤلاء من الموالي الذين وجدوا في تعاليم الاسلام ما يخرجهم من وضعيتهم المتدنية. الا ان الأحداث التي صاحبت قيام الدولة العباسية جعلت لفظة الشعوبية تنحرف عن مدلولها الاول لتطلق على فرقة جديدة لم تقف عند حد المساواة بل تعدتها الى الحط من شأن العرب واحتقارهم والطعن في امجادهم، وذلك ما سنوضحه في التحليل الآتي :

منذ بداية عهد الأمويين بدأ هؤلاء الموالي يكونون جاليات كبرى حول الامصار (تدل آنذاك على المدن العسكرية) التي أقامها الخلفاء والفاتحون لاستقرار الجيوش العربية، ومن جملتها البصرة والكوفة بالعراق، والفسطاط بمصر، والقيروان بافريقية؛ ورغم اسلام هؤء فإن الأمويين رفضوا منحهم المساواة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما سبب لديهم تذمرا مشوبا بنزعة الانتقام، وبالتالي جعلهم ينضمون الى جل الحركات المناهضة الى الحكم الأموي كالخوارج والشيعة، وقد تجلى عدم المساواة فيما يأتي :

1 ـ **في الـوظائف الرسمية** : منع الموالي من تقلد وظائف في السلطة مثل الولاية والقيادة والقضاء، ونشير هنا الى ان الأموين لم يكونوا يجهلون كفاءة هؤلاء، فقد استفادوا منهم بالفعل في الميدان الاداري خاصة الادارة المالية . لكن الامر وقف عند هذا الحد اي حد المساعدة التقنية، بينما ظلت السلطة الفعلية بيد العرب .

2 ـ **وضعيتهم داخل الجيش** : كان الموالي يستخدمون في الجيش باعتبارهـم مشاة لكنهم لم يكونوا مسجلين في الديوان ولهذا لا يدفع لهم العطاء

3 ـ **وضعيتهم الاجتماعية** : اعتبر العرب ان الحرب والتجارة اساس حياتهم المعاشية، وتركوا الاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة للموالي، ويمكن ايضا ملاحظة انخفاض مكانة الموالي الاجتماعية في مخاطبتهم بالقابهم الخاصة ولا يحق لهم استعمال الكني الا نادرا . كما لم يكن مسموحا لهم ان يتزوجوا نساء عربيات، كما ان ابناء العربي من امرأة غير عربية لا يأخذون نفس الحصة من ارث أبيهم من أبناء العربي من ام عربية .

4 ـ **في السياسة المالية الموسعة** : تجلت عدم المساواة بشكل واضح في السياسة المتبعة من طرف الأمويين، فقد ظل الموالي يؤدون الضرائب الثقيلة رغم اسلامهم نظرا للحاجة المستمرة للموارد المالية، نتيجة توقف الفتوح .

وهكذا وجد العباسيون في الموالي الفرس خير مساعد على تقويض دعائم الحكم القائم، حتى قيل بان الدولة العباسية اصطبغت بالصبغة الفارسية، بل عدها الجاحظ اعجمية اذ يقول في هذا الصدد «دولة بني العباس عجمية خرسانية ودولة بني مروان اعرابية» . [2]
ويقول المقريزي أيضا في هذا الصدد : «ان بني العباس أخذوا الخلافة بالغلبة بايدي عجم اهل خراسان، ونالوها بالقوة، حتى ازال عجم خراسان دولة بني أمية . . بل استحالت الخلافة كسروية قيصرية» . [3]

ولا شك ان المكاسب التي احرزها الفرس في هذه الدولة الجديدة من الأهمية بمكان، ذلك انهم اثبتوا سيادتهم في المجال السياسي والاداري والاجتماعي فشغلوا المناصب العليا، وكان منهم الوزراء والكتاب والحجاب والبطانة الخاصة، وفي ذلك يقول المقريزي حين يتحدث عن المنصور : «هو اول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في اعماله، وقدمهم على العرب فاقتدى به من بعده من الخلفاء، حتى سقطت قيادة العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها. . .» [4] . وهنا اتخذ الصراع بين العرب والموالي طابعا جديدا، وانتقلت حركة الشعوبية من المطالبة بالمساواة الى مرحلة التعصب للعجم والاعتراف بفضلهم على العرب.

ثانيا : آثار الشعوبية على الدولة الاسلامية :

كان للشعوبية آثار عديدة على الصعيد الاجتماعي والسياسي والديني إلى غير ذلك.

1 ـ على الصعيد السياسي :

ـ اضعاف الدولة الاسلامية نتيجة الفتن الداخلية :

اشترك الموالي في العديد من الفتن والثورات مما زاد في خطورتها واضاف اعباء جديدة على الدولة، وشغلها عن الزيادة في رقعة الاسلام. وقد ظلوا يترقبون الفرصة الى أن انضموا في النهاية إلى العباسيين، وحاولوا بث النفوذ الفارسي. فقد حاولوا ذلك ـ مثلا ـ في عهد المنصور، لكنه فطن للامر، اذ لم يقبل تدخل ابي مسلم الخراساني في امور الخلافة، اذ شعر بالروح الشعوبية والعصبية الفارسية واضحة جلية عنده فأمر بتصفيته.

لكن القضية لم تنته بمقتل ابي مسلم بل أدى ذلك الى قيام كثير من الحركات التي ازعجت الخلافة لمدة غير قصيرة. فقد خرجت عدة فرق بغرض الثار لابي مسلم في صورة صراع شعوبي عنيف.

ـ تفكيك وحدة العالم الاسلامي.

نجحت الحركة الشعوبية في تفكيك الوحدة الاسلامية، وهكذا قامت الدولة الطاهرية في خرسان والدولة الصفارية، والدولة السامانية، والدولة الغزنوية، وهذه الدولة وان كانت تعلن تبعيتها للدولة العباسية الا انها كانت في الواقع تبعية اسمية.

ـ رات طائفة من الموالي ان حكم العرب لها ضرب من سخرية القدر، وان بني هاشم غير مؤهلين لان يسوسوا شعوبا عريقة في المجد والعظمة. وفي ذلك يقول شاعرهم :

بني هاشـم عودوا الى نخـلة لكـم   فقـد صار هذا التمر صاعـا بدرهم
فان قلتـم رهط الـنـبـي محمـد   فان النصارى رهط عيس بن مريم (5)

لذلـك عملت هذه الشعـوبية على بعث المجـد الكسروي وايقـاظ القـومية الفارسية عند المسلمين الفرس.

وقد اعتبر الموالي الفرس انتقال الخلافة من دمشق الى بغداد انتصار لهم، اذ اعتبروه اعترافا من الدولة الجديدة بفضلهم.

كما ان تطلع الاعاجم للوزارة ومنافسة العرب عليها، لم يكن الا مظهرا من مظاهر الشعوبية السياسية، حتى ان الوزارة اصبحت وقفا عليهم، فقد كان اغلب الـوزراء من العناصر الفارسية. واول من لقب بالوزير في الاسلام هو ابو سلمة الخلال الهمداني. (6)

وقد اشتهر في هذا الصدد البرامكة في عهد الرشيد الذين كانوا يمثلون اوج النفوذ الفارسي وسلاح الشعوبية الحقيقي. (7)

والملاحظ ان الـطابـع الفارسي فرض وجوده على النظم السياسية والادارية فتعددت الدواوين، ولم يعد القضاء مقصورا على العرب وحدهم، وكان اول من تولى منصب قاضي القضاة فارسيا، وكذلك كان قاضي بغداد (8).

واشهر الكتاب الشعوبيين الذين عرفوا بعدائهم للعرب : ابن المقفع، وسهل ابن هارون، وغيلان الشعوبي.

2 ـ على الصعيد الاجتماعي :

دعت الحركة الشعوبية الى نبذ التقاليد العربية واحلال التقاليد الفارسية محلها، وهي ترمي بذلك ان تجعل من المجتمع العباسي صورة لمجتمع الفرس، وقد سارع بعض العرب فعلا لمحاكاة الفرس حتى قال المقريزي : «فسموا عوائد العجم ادبا وقدموها على السنة. . .»، بل تشبه بعض الخلفاء العباسيين بأكاسرة الفرس وقلدوهم في التعلق بمظاهر الترف والبذخ، واتخاذ البطانة الخاصة، ونصب الحجاب على الابواب

3 ـ على الصعيد الثقافي :

طعنت الحركة الشعوبية في تراث العرب الأدبي، وفي لغتهم، فقامت تتحامل على الابداع الادبي العربي، وترمي الشعراء بالبداوة والبعد عن الحضارة. ولم يقف الامر عند حد الشعر، بل تعداه الى النثر ايضا : ذلك انه الفت كتب كثيرة في ذكر مثالب العرب، واظهار عيوبهم، ونقاط الضعف في تاريخ القبائل وانسابها، ويتضح لنا الدور الذي لعبته الترجمة في نقل التراث الفارس خاصة كتب الزندقة. وكان ابن المقفع رائدا في هذا المجال، كما كان للبرامكة دور التشجيع وتقديم المنح بسخاء للمترجمين والمؤلفين الذين يخدمون حركة الشعوبية هذه. [10]

4 ـ على الصعيد الديني :

ارتبطت الشعوبية بالزندقة ارتباطا شديدا ومن ثم كانت تهدف الى افساد العقيدة الاسلامية وإثارة الشكوك حولها. وهكذا فقد حاولوا اعادة بعث الديانات الفارسية القديمة من مانوية، ومزدكية. . . واذا كان بعض الشعوبيين لا يتورعون عن مجاهرتهم بالعداء للعرب والاسلام، فإن بعضهم لجأ الى الوسائل الخفية التي تحقق الغرض المقصود، دون ان تثير الشبهات، وهكذا انضم عدد من هؤلاء الى الحركات المتطرفة من شيعة ورفض، وارجاء، وتعصبوا لها. وانكبوا على دراسة

العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث، رغبة في التفوق على العرب من جهة وكسبا لثقة المسلمين من جهة اخرى، فلما نبغوا في تلك العلوم استهانوا بها، ثم قاموا بوضع أحاديث كاذبة ونسبوها الى الرسول (ﷺ)، وغرضهم من ذلك تضليل الناس وتشكيك ضعفاء العقول في امور دينهم. [11]

ثالثا : موقف العرب من الحركة الشعوبية :

ادرك العرب خطورة هذه الحركة، فكثيرا ماكان الخليفة يتابع المسؤولين عنها، فالمنصور ـ مثلا ـ امر بنفي الزنادقة والمجان الى البصرة، كما امر بالقبض على عبد الكريم بن ابي العوجاء وقلته، بعد ان اعترف بسعيه لتشويه الحديث وانه وضع اربعة آلاف حديث مكذوبا [12]

كما استحدث المهدي منصبا جديدا اسماه (صاحب الزنادقة) مهمته تعقب الملحدين والاقتصاص منهم [13]. ثم امر بتصنيف كتب الجدل بالرد على الزنادقة الملحدين [14].

اما الرشيد فقد هدم وكر الشعوبية بالقضاء على البرامكة، وتصدى لهذه الحركة ايضا طائفة من العلماء المسلمين في مختلف الميادين، وهكذا اصبحت اللغة العربية موضع اهتمامهم، وألفت في ذلك عدة كتب مثل كتاب العين للخليل بن احمد والكامل للمبرد، وكتب اخرى في الشعر والادب. اما الدفاع عن العقيدة الاسلامية، فوكلت الى طائفة من ائمة المسلمين، نذكر من بينهم الامام الصادق، والامام ابو حنيفة والامام ابن حنبل.

هذا هو التاريخ، وهذه صفحاته فماذا فعلنا لمواجهة الشعوبية الحديثة خاصة ان الامة العربية مستهدفة من واجهات متعددة ؟

ـ فاذا كانت الشعوبية القديمة تنكر على العربي فصاحته وبلاغته، فان الشعوبية الحديثة تحاول بكل الوسائل هدم اعمدة الشعر العربي : اوزانه وقوافيه، وكل هذا تحت غطاء تطوير الشعر العربي.

واذا كانت الشعوبية القديمة، تختلق القصص والحكايات لتشويه سمعة العرب وبث الشقاق بين صفوفهم، فان الشعوبية الحديثة تقوم بنفس الدور، ويكفي ان نقرأ ونسمع ما يكتبه الصهاينة لنتاكد من ذلك.

ـ واذا كانت الشعوبية القديمة لا تتورع في وضع الاحاديث الكاذبة لتمجيد العجم وخاصة الفرس، فالشعوبية الحديثة تحاول التشكيك في الصحاح من الاحاديث الشعوبية القديمة قد عمدت باستمرار لفصل العرب عن تراثهم الحضاري الاسلامي، فان الشعوبية الحديثة تقوم الآن بنفس الدور على الاقل في نقطتين :

ـ الدعوة الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتنية.

ـ الدعو الى الأخذ بالعامية عوض اللغة الفصحى.

الهوامش

(*) اعد برسم «الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبي»، التي انعقدت ببغداد في سنة 1989.
وقد نشر بالعدد السابع من حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية (1) بالدار بالبيضاء، 1990.
(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، 3 : 403.
ويقول الجوهري في الصحاح، مادة شعب : «الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم»
(2) البيان والتبيين، 3 : 367.
(3) أوردته زاهية قدورة في كتابها الشعوبية واثرها السياسي والاجتماعي، ص. 79.
(4) السلوك لمعرفة دولة الملك، 1 ・ 15
(5) مروج الذهب، 3 : 291.
(6) تاريخ اليعقوبي، 2 . 352.
(7) زاهية قدورة، المصدر السابق، ١٩٨.
(10) الجهشياري، الوزارء والكتاب، ص. 232.
(11) ابن الاثير، الكامل، 8 : 28 ـ 29
(12) المرتضى، الأمالي، 1 : 127 ـ 137.
(13) الطبري، تاريخ الامم والملوك، 8 ・ 165.
(14) السيوطي، تاريخ الخلفاء، 271.

وثائق جديدة
عن الحركة الفكرية في العهد السعدي (*)

بدأ في السنوات الأخيرة الاهتمام ببعض الوثائق التي ظلت مهمشة لفترة طويلة. فإلى وقت قريب كان المؤرخ للحياة الفكرية يتجه الى كتب التاريخ التقليدية ليستقي منها مادته، فيصاب بخيبة أمل عند أول مواجهة مع المصدر، فيردد باستمرار أن المؤرخين المغاربة لم يهتموا إلا بالأحداث السياسية التي تتمحور حول السلطة. وهو قول ـ وإن كنا لانتفق معه في كل ما ذهب اليه ـ يعبر عن مدى قصور المصادر التقليدية عن كتابة التاريخ الفكري والاجتماعي للمغرب. وانطلاقا من هذا فقد اتجهت ابحاث عديدة الى مناهج جديدة في محاولة منها لفك (الحصار المضروب على الوثائق الوطنية)، وادخالها الى ميدان البحث التاريخي، مستخدمين في ذلك مناهج العلوم الاخرى كمنهاج علم الاجتماع، والانتربولوجيا، والاتنولوجيا، والاقتصاد، والاحصاء. وقد اعطت هذه الابحاث بالفعل في مرحلتها الاولى نتائج مشجعة. ومن والوثائق التي بدأت تدخل ميدان تاريخ الحركة بالمغرب : الفهارس والاجازات لمالها من اهمية في ابراز نوعية العلوم الملقنة، وطريقة تلقينها، ودراسة سلوك المشرفين عليها. ولاشك انه بتجميع هذه الفهارس والاجازات يمكن أن نرصد الحركة الفكرية ونتتبع تطورها، واشعاعها داخل المغرب وخارجه، وبالتالي فإن هذا النوع من الوثائق يوفر لنا مادة خام لاتوفرها لنا المصادر التقليدية.

وسنعرض في مقالنا هذا لانواع من الاجازات لعلماء من العصر السعدي عاشوا في فترة معينة، هي فترة أحمد المنصور الذهبي.

وتضم هذه الوثائق (1) :

- أربع إجازات.
- تدبيج واحد.
- وفهرس واحد.

أولا : اجازة ابي القاسم بن عبد الواحد بن العباس المخلوف لاحمد بن القاضي سنة 999 هـ.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وإله [وصحبه وسلم تسليما] [2] .
وبعد، فيقول اقل عبيد الله تعالى : أحمد بن محمد بن ابي [العافية الشهير] [3] بابن القاضي ـ خار الله له بمنه وادخله برحمته في . . . [4] : قرأت . . . [5] الصالح المحدث المتفنن . . . [6] سيدي ابي القاسم بن عبد الواحد المخلوف . . . [7] الابر، الرحالة، قدوة اهل زمانه، وفريد وقته . . . [8] مالك بن انس، واجازنا . . . [9] وحديث الرحمة المسلسل بالاولية، وأجازنا في كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه بحق روايته لذلك عن عدة مشايخ اعلام وعلماء عظام كالشيخ الصالح المقطوع بولايته المحدث ابي النعيم وضوان بن عبد الله الجنوي، والشيخ الصالح ابي عبد الله محمد بن ابي الحسن البكري الصديقي، والشيخ العالم العامل، محدث الانام، رجل اليالي والايام : الشيخ قطب الدين العجمي المكي، عن استجازة والده ـ رحمه الله ـ، عن مشايخ اعلام، كالشيخ نجم الدين الغيطي، والشيخ ابي الحسن البكري . . . [10]، [أبي اسحاق] [11] بن عبد الرحمان العلقمي، والشيخ الطبلاوي، وجماعة وافرة. واخذ شيخنا المذكور عن والده، عن نجم الدين الغيطي، وعن أبي الحسن البكري، وعن والده، وعن العلقمي، والطبلاوي المذكورين. واجاز لنا ـ ابقاه الله ـ كل ما يحمله من الكتب الحديثية وغيرها بشرطه المعتبر عند اهله. وكان السماع المذكور بمراكش المحروسة، وحضره جماعة من الاصحاب، كإمام الدين محمد بن قاسم بن علي الخليلي، وابي حفص عمر البسطي الفاسي . . . [12] بن سيدهم المحمدي، وابي علي بن مسعود الدرعي، والحاج ابراهيم بن محمد . . . [13]، وابي عبد الله محمد مسعود الدرعي، وابي سرحان مسعود بن عمرو الشباني في يوم الجمعة الثامن عشر من المحرم الذي من شهور سنة تسع وتسعين وتسعمائة. وكتب للعبد المذكور، حامدا الله تعالى، ومصليا ومسلما ومحوقلا ومحسبلا وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وسلم تسليما.

صحيح ذلك، وكتب عبيد الفقير اليه : ابو القاسم بن عبد الواحد بن العباس المخلوف ـ رفقه الله لما يرضيه تعالى بمنه. ومولدي تقريبا سنة اثنتين وستين وتسعمائة . . . [14] والصلاة والسلام الاتمام الاكملان على محمد وعلى آله وصحبه.

وأنشدنا مجيزنا المذكور عن قطن الدين العجمي المذكور :

إذا عرف الانسان اخبار من مضى توهمته [قد عاش من أول الدهر] (15)
وتحسبه قد عاش [آخر عمره إذا هو قد ابقى الجميل من الذكر] (16)
فكن عارفا اخبار [من مات وانقضى وعش ذا نوال واغتنم أطول العمر] (17)

ثانيا : اجازة على بن احمد القرافي لاحمد بن القاضي مؤرخه في 11 ذي القعدة سنة 986 هـ / 9 يناير 1579 (18) .

الحمد لله العظيم الامجد، والصلاة والسلام على أشرف العالمين أحمد، وعلى آله وأصحابه واتباعه احزابه على الدوام .

وبعد، فقد قرأ علي المولى الاجل العام العلامة ابو العباس احمد بن مولانا ابي عبد الله محمد بن القاضي المغربي الفاسي - نفع الله تعالى به - فاتحة الكتاب المبين بقراءتها مني على مولانا قاضي قضاة المالكية بمصر أبي عبد الله محمد التتائي المالكي، شارح مختصر مولانا الشيخ خليل وغير ذلك من كل مؤلف جليل بقراءته اياها على شيخه مولانا شيخ مشايخ الاسلام برهان الدين اللقاني المالكي، بقراءته اياها على الشيخ علم الدين سليما معلم أولاد الجان بقراءته اياها على شمهروس قاضي الجان بقراءته اياها على رسول الله - ﷺ - سيد ولد عدنان . وسمع ذلك علي بقراءته مولانا احد مشايخ الاسلام الشيخ زين الدين بي بكر الغمري، وولده النجيب محمد وكذا الشيخ العالم العلامة زين الدين بن عبد الرحيم بن عبد الله (19) من اعمال فاس، واجزت كل من ذكر منهم بها وبجميع ما يجوز لي وعني روايته بشرطه المعتبر عند أهل الحديث والاثر في صبيحة يوم الجمعة المبارك حادي عشر ذي قعدة الحرام سنة ست وثمانين [وتسعمائة] .

وكتبه علي بن أحمد بن على الانصاري القرافي الشافعي حامدا مصليا مسلما انتهى بنصه ومن خطه - رضي الله عنه - .

ثالثا : اجازة جماعية للمفتي عبد الواحد الحسني السجلماسي في أواخر شوال عام 998/غشت 1590 لاحمد بن القاضي، محمد التواتي ومحمد ابن يعقوب الايسي جميع ما اشتمل عليه فهرسه.

الحمد لله وحده و ﷺ على سيدنا محمد وإله وسلم تسليما وبعد، فيقول أقل عبيد الله تعالى، واحوجهم اليه : أحمد بن محمد بن ابي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي ـ خار الله له بمنه وأدخله برحمته في فضله وامنه ـ : قرأت هذه الفهرسة المباركة على مؤلفها الشيخ العالم العلامة، المتفنن الفهامة السيد . . [20] المسند حجة الاعلام، وحسنة الليالي والايام، لسيدي وسندي ومفيدي ومعلمي ابو مالك سيد عبد الواحد بن احمد الشريف الحسني

ـ ابقاه الله ملاذا للمسندين، مطافا للمتعلمين، محمد وءاله ـ.

وأجازني فيها وفي كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهله [21] وكانت القراءة المذكورة بلفظي وحضرها جم غفير من طلبة العلم : كالشيخ الفقيه المحدث ابي عبد الله محمد بن ابي بكر التواتي، والفقيه ابي عبد الله محمد ابن يعقوب الايسي الـراوية الاديب الحـافظ المتفنن، وجماعة، واجازني. . . [22] حضر بمثل الاجازة المذكورة في أواخر المبارك عام ثمانية وتسعين وتسعمائة.

وﷺ على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما آمين صحيح ذلك. قال له وكتبه بخطه عبد الواحد بن احمد بن محمد بن الحسن الحسني غفر الله لمنه.

رابعـا : تدبيج [23] احمـد بن القـاضي مع محمد بن ابي بكر التواتي (24 شوال عام 998 هـ / 26 غشت 1590).

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وإله وصحبه وسلم تسليما وبعد، فيفول كاتبه اقل عبيد الله تعالى احمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي ابن ابي العافيه الشهيرة بابن القاضي ـ خار الله له بمنه، وادخله برحمته في فضله ويمنه ـ : قرأت على الشيخ العالم ابي عبد الله محمد بن محمد بن ابي بكر بن الحاج موسى التواتي الذي ولد سنة احد وأربعين وتسعمائة بعض صحيح الامام ابي عبد الله محمد

ابن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري، وأجازني فيه بحق قراءته اياه على الشيخ الفقيه محمد بن محمود بن ابي بكر بَغَيْغ عن ابي عبد الله اند غمحمد بن محمد بن أحمد الدثر التازيختي، عن الشيخ ابي الفتح ابراهيم ابن علاء الدين القرشي القلقشندي، عن ابن حجر الى اخره. . . ونص اجازته بعد البسملة والتصلية الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، وافضل الصلاة واتم السلام على افضل المخلوقين سيدنا ومولانا محمد رسول رب العالمين وعلى آله واصحابه السادات البررة الاكرمين، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين، وعلى سائر أنبياء الله والمومنين، وذلك كل وسائر عباد الله الصالحين. أشهد الا الاه إلا الله وحده لاشريك له له الملك، الحق المبين، واشهد ان سيدنا محمد عبده ورسوله الصادق الامين.

وبعد فقد اجزت للاخ في الله محمد بن محمد بن ابي بكر بن الحاج موسى التواتي ـ نور الله قلبي وقلبه بأنوار اليقين، وشرح صدري وصدره لتلقي فوائد العلم والدين أن يروي عني صحيح الامام الحجة ابي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن بردزبة البخاري ـ رضي الله عنه وأرضاه، وأعاد علينا من بركاته وبركات علومه ـ لسماعه مني قراءتي من أوله الى آخره سوى فوتات يسيرة. وقراءته له علي من أوله لآخره عموما فأجزت له روايته عني بالامرين المذكورين لما تحققته ـ مع ذلك ـ من تأمله لذلك وصلاحه له نفعه الله بذلك يوم لاينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم ـ وذلك بحق روايتي له عن شيخنا ناصر السنة وحامل لوائها ابي عبد الله اندغمحمد بن الفقيه محمد بن احمد الدثر التازختي ـ رحمه الله مع أسلافه واشياخه، وجازاه عنا وعن رسوله افضل واحسن ما جازى به حملة حديثة ونقلة سنته ـ قراءة وسماعا من لفظه غير مامرة قائلا : أخبرنا اجازة شيخنا شيخ الاسلام قاضي القضاة جمال الدي ابو الفتح ابراهيم بن علاء الدين القرشي الشافعي القلقشندي ـ رحمه الله ونفعنا بعلومه وبركته ـ قال اخبرنا الحافظ ابو الفضل احمد بن حجر اخبرنا ابو علي محمد بن احمد بن علي بن عبد العزيز المهدوي اذنا مشافهة، عن يحيى بن محمد بن سعد، عن جعفر ابن علي الهمداني. اخبرنا ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمان الديباجي اجازة، اخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الباهلي، حدثنا الحافظ أبو علي الجياني، اخبرنا ابو عمر بن محمد بن الحداء سماعا، وأبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد الله اجازة. قال أخبرنا ابو محمد عبد الله به محمد بن أسد

الجهني اخبرنا ابو علي سعيد بن. . . [24]بن السكن. أخبرنا ابو عبد الله محمد بن يوسف بن البربري. اخبرنا الحجة امير المؤمنين ابو عبد الله بن اسماعيل البخاري - رضي الله عنه وأرضاه.

قال هذا وكتبه فقير رحمة ربه القدير محمد بن محمود بن ابي بكر بغيغ - لطف الله بهم آمين - مسلما على من يقف عليه، وطالبا منه الدعاء بخير الدارين انتهى من لفظه. بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.

صحيح ماذكره السيد الفقيه ابو العباس احمد المذكور خبره، واجزت له رواية ماذكره على شرطه.

وكتب بدلك عبيد الله تعالى، احقر عبيده محمد بن محمد بن ابي بكر بن الحاج موسى التواتي في الرابع والعشرين من شوال ثمان وتسعين وتسعمائة.

خامسا : اجازة عبد الواحد السجلماسي لاحمد بن القاضي فهرسه.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلك تسليما. وبعد، فيقول اقل عبيد الله تعالى واحوجهم اليه : احمد بن محمد بن احمد بن ابي العافية المكناسي الشهيرْ بابن القاضي - خار الله له بمنه وادخله بفضله في رحمته وجنته - : قرأت جميع هذه الفهرسة المباركة على مؤلفها الفقيه المحدث، العالم الفاضل، العلامة المشارك، المتفنن الفهامة، وحيد عصره، ومصباح دهره : ابو مالك سيدي عبد الواحد بن احمد الشريف الحسني - ابقى الله به النفع للمسلمين بجاه سيد الاولين والآخرين، واجازني فيها وفي كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند اهله.

سادسا : فهرس إمام الدين الخليلي مؤرخ في 25 محرم عام 999 هـ 3 نونبر 1590

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا وآله وصحبه الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحابته والتابعين وتابع التابعين لهم بإحسان الى يوم الدين، صلاه وسلاما دائمين متعاقبين ما أسفر صباح، ودعا داع الى الرشد والفلاح. وبعد، فيقول العبد الفقير الراجي فضل ربه القدير، الواضح اسمه عقب تاريخه أدناه - أصلح الله له دنياه وأخراه - لما دخلت في المرة الثالثة أرض المغرب - حماها الله - قاصدا حمى مولانا أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين، والائمة المهديين، الليث المصور، والملك المنصور، مولانا أبو العباس أحمد المنصور، وحصل من احسانه ما أعجز لساني عن آداء شكره، وكنت أتخلل مجالس العلماء والادباء وأخبرهم بمن لقيت من علماء الاسلام بمصر والشام، وأن لي سنـدا امتد بواسطتهم الى ابن حجر العسقلاني وغيره، فرغب الي من له الفضل علي مفيدنا وبركتنا الامام الفاضل، والعلامة الكامل، الخير الدين النقيل [25] الرحالة مفيد الطالبين، ولي : أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن علي ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي، والاديب الفاضل العلامة الاوحد المتفنن المفيد الرحال سيدي : الحسين بن أبي القاسم بن أحمد الدرعي تم الجوزي الملولي - خار الله لهما ونفعها باعتقادهما - أن اخبرهما بمن أجازني من العلماء المشهورين والأئمة المهديين وأن أصل سندهما بهؤلاء السادة الآتي ذكرهم لاسيما [26] في كتب الحديث، فاعتذرت اليهما بأنني لست أهلا لذلك فأبيا إلا تكليفي فصرت أقدم رجلا وأوخر أخرس لأنه كما قيل صاحب البيت بالذي فيه أدري، ثم توكلت على الملك الرحمان وقلت - وبالله المستعان - :

لقيت من العلماء المشهورين بمصر سنة اثنين وسبعين وتسعمائة الشيخ الامام محدث زمانه الشيخ نجم الدين الغيطي، ثم الشيخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد ابن الخطيب الشربيني، ثم الشيخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد الرملي الانصاري، ثم الشيخ الامام العلامة الشيخ محمد المحلي، واستجزت هؤلاء المذكورين فاجازوني باللفظ مشافهة، وكتبوا الي بذلك اجازة بقراءتي عليهم في مواضيع من الجامعين الصحيحين فأجازوني بذلك وبباقيهما وبجميع مالهم من

منظوم ومنثور مقروء مسموع ومجاز واستيجاز بحق مالهم روايته عن شيخ الاسلام القاضي زكريا، عن ابن حجر العسقلاني، والسند منه الى النجاري معلوم، ثم قرأت علي ابن القاضي زكريا بنفسه ـ وهو الشيخ الامام العلامة من الشيخ جمال الدين بن القاضي زكريا ـ مجالس كثيرة من فنون شتى من العلوم من مؤلفات والده المذكور، ومن علم الحديث وغير ذلك فأجازني بذلك وبجميع ماله من منظوم ومنثور ومقروء ومسموع ومجاز واستيجاز بحق روايته عن والده القاضي زكريا قال : وبحق روايتي أيضا عن الشيخ جلال الدين السيوطي قال في مشافهة وأنا أدركت عصره، ثم بعد أن تلفظ لي بالاجازة كتب لي بخط بيده وأنشدني لنفسه :

يارب اني عاجز والعجز باب المغفرة وعلى عذابي قادر والعفو عند المقدرة

ولقيت من العلماء بمصر أيضا الشيخ نور الدين علي بن غانم المقدسي الحنيفي، والشيخ يحيى القرافي، والشيخ نور الدين الزيادي، والشيخ محمد البلبيسي، والشيخ ابراهيم العلقمي، والشيخ عمر ابن عبد الحق السنباطي وأخوه الشيخه أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي والشيخ زيد الدين الجيزي.

والشيخ عبد الدائم البقري، والشيخ محمد البنوفري، وهؤلاء الثلاثة الاخيرة مالكيون وأجازوني باللفظ وبالكتابة ماعدا الاخير فباللفظ فقط، لقيت الشيخ الامام العلامة محمد بن ناصر الدين الطبلاوي، والشيخ العلامة محمد الصفدي الواعظ المفيد، والشيخ الامام العلامة أبو عبد محمد البرهمتوشي، والشيخ محمد بن سراج الدين الحانوتي امام الحنيفية برواق الترك داخل الجامع الازهر ـ عمره الله ـ، والشيخ محمد النمراوي، والشيخ محمد الذيب، والشيخ علي الطوري، وهؤلاء الخمسة الاخيرون حنفيون، وأجازوني باللفظ والكتب لي بالاجازة الا البعض منهم فباللفظ فقط، والشيخ الامام العلامة صالح بن أحمد البلقيني وأخوه الشيخ يحيى ابن أحمد والشيخ محمد البهنسي وآخرين ممن يطول ذكرهم، وقد تركتهم خوف الملل، ولي مع فرد فرد منهم مجالسات ومخاطبات ومحاورات وغير ذلك كتبوا لي اجازات اطالو فيها الا القليل فباللفظ والكل شافعيون الا من نصصت عليه.

ولقيت الشيخ الامام الانام، خاتمة علماء الاسلام الوالي، بل القطب بلا نزاع ولاخصام، شيخي واستاذي وبركتي الغوث الفرد الجامع الرباني مفتي المسلمين، مفيد الطالبين مربي السالكين : أبو عبد الله شمس العارفين محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي سبط آل الحسن ـ نفعني الله والمسلمين ببركته وأعاد علي وعليهم من سره ومداه، فلقد لازمته مدة طويلة سكنت عنده بداره المعروفة به بباب الشعرية بمصر ثلاثة أعوام فكنت أنسخ له شرح **العباب** تأليف والده ـ رحمهما الله ـ وكنت كثير التردد الى مجالسه بالجامع الازهر وغيره.

شاهدت من أحواله مالا يمكن التعبير عنه، أشهد بالله لقد امتحنته في اهلاك رجل بذي اللسان وقع في حق والده فما كان الاصيل ومات غريقا. أشهد بالله لقد سألته مسائل أشكل علي أمرها وسألته أن يسمح لي في السؤال عنها فقال لي : سل ماشئت فهو مغفور لك ومسامح فيه، فقلت له : تحير الناس في أي معلوماتكم أكثر ؟ فقال لي بما نصه : الحمد لله الحيرة في هي عين الكمال، أما علم التصوف فهذا أمر مقطوع لنا به فلا يحتاج أن نقيم لك الدليل عليه، وأما علم التفسير فقد حضر مجلسي فلان من علماء العجم وكنت في آية كذا فأخذ معي في البحث في تفسيره الى أن قمنا على غير طائل، ثم قلت له : ومن الغد أيضا، فبينما نحن في أثناء البحث من اليوم الثالث اذ حسر عن راسه وجاءني حاسر الرأس وأقسم لابد أن تمدد رجليك فاصر يقبل بطن هذه مرة والاخرى مرة أخرى في ذلك الملأ قال لي : الله اعلم من كان يتعب في المطالعة، معناه انني ما راجعت ولا طالعت في كتب التفسير، وأما الفقه، فهل حضرت مجلس قراءتي ؟ قلت، نعم، في كتاب **البهجة**، في باب التيمم، قال : كيف سمعتني أقرر الفقه ؟ قلت، سمعتكم تقولون هذا من تفقري، وهذه المسألة لي ولم أر من سبقني لكل ذلك، فقال لي : يكفيك هذا حيث كنت أقول ذلك على رؤوس الاشهاد وبحضرة العلماء في الجامع الازهر، فرأيته ـ رضي الله عنه ـ وكأن حالته تقول : أنا كامل في كل العلوم وهو كذلك، ثم قلت له : حب الناس فيكم حملهم أن قالوا لي : ان النبي ـ ﷺ ـ قال لكم : لك البشري أو مرحبا بك، وسيدي أحمد البدوي قال لكم : لك البشري أو مرحبا بك، فإن كان ماتكلم به الناس حق فمرادي أن اسمعه منكم وأروي عنكم وإن كان من شدة محبتهم تكلموا بذلك فمرادي أن أعلم حقيقة الحال، فقال : اسمع ما أقول لك وأخذ يستشهد بأمور هي خرق عوائد، ويقيم البرهان حتى كان ذلك مشاهد عيان

ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئا مما قال لي. والحاصل قال لي : نعم كان ذلك، وها أنا ذكرت ذلك في قصيدتين سردهما علي، ذكر لي الواحد مقالة النبي ـ ﷺ له : مرحبا بك أولك البشري، وفي الاخرى مقالة سيدي أحمد البدوي : مرحبا بك أو لك البشري، وهما مثبوتتان في ديوانه الذي أنشأه وأبدع ماشاء فراجعه (وقع الشك عندي أي لفظة النبي ـ ﷺ ـ كانت مرحبا بك أولك إلبشري، والذي ترجح عندي هي لك البشري، بل هو كذلك، فاعلم) فقلت له : هل ورد على قلبكم تكلما بذلك أو كان ذلك من صريح الكلام وصميمه.

بحيث لاشبهة ؟ قال : نعم، كان ذلك من صريح الكلام، وصوت النبي ـ ﷺ ـ بذلك وكذلك سيدي أحمد البدوي ـ رضي الله عنه ـ وحضرت معه دون الثمانين وتسعمائة زيارة سيدي أحمد البدوي ـ رضي الله عنه ـ وبعد انفاصله عن مقامه قال من على رؤوس الاشهاد سمعت منه دعوة والله ماسمعتها من غيره قط، قال له بعض من حضر ماهي ؟ قال : قال لي : حفظك الله للاسلام، وحضرت معه أيضا في التاريخ. وقد توجه الى زيارة خليل الرحمان ـ على نبينا وعليه وعلى سائر أنبياء الله. أفضل الصلاة والسلام ـ وبيت المقدس ـ شرفه الله تعالى ـ زيارة الله موسى ـ عليه السلام، وما هنالك من أماكن يتبرك بها بجوار المسجد الاقصى وقد شاهدت من أحواله ماأدهش عقلي وحير لبي فلا تسأل عن قبائل انقادت اليه تبلغه من درك الى آخر، وعلماء تمثلت بين يديه، وامراء أكبت على قدميه تقبلهما وقد امتدحته الشعراء وأطنبوا في مدحه وأرخوا تلك الزيارة فكان تاريخها رحلة قطب الانام مقبولة، ثم لما انفصل عن مقام الخليل ـ عليه السلام ـ سألته هل سمعتم من الخليل ـ عليه السلام ـ في هذه الزيارة ماترويه عنكم قال : نعم، عاهدت الله تعالى أن لا أصدر عن الحضرة الابراهمية الخليلية حتى اسمع منه شيء، قال سمعت الخليل عليه السلام من القبر الشريف يقول لي : أنت من معك في ضيافتنا، انتهت.

ومدينة الخليل ـ عليه السلام ـ هي بلدتي محل أنسي ومسقط رأسي، وليت امامة الشافعية بذلك المكان المشرف موافقة لغرض والدي ثم تفرغت عنها باختياري وأعدتها له ـ رحمه الله ـ أقام والدي بها اماما مدة تزيد على سبعين عاما وليها والدي محمد استقلالا عن والده يوسف، وكان يوسف جدي نائبا فيها مدة حياته أو أنه

استقبل بها اثناء مدته ووالد جدي هذا هو الامام العلامة الاوحد المفيد الرحالة الشيخ علاء الدين علي بن قاسم الارديبلي البطايحي الخليلي المقري مفتي المسلمين، توفي في شهر ربيع الاول سنة ست وثمانمائة، وله ضريح مشهور داخل القلعة هناك ـ رحمه الله ـ والامامة بذلك المقام هي الآن بيد أخي شقيقي أبو السعادات بن محمد والتأذين بيد ولده أحمد.

ورجعنا

وكرامات الشيخ الاستاذ البكري أجل من أن تحصر فلو تصدى أحد لذكر بعضها وان أطنب واسهب وأطال ومد الباع وقال فقد قصر ولولا خوف الاطالة والسآمة والملالة لذكرت لك نبذة أخرى من مناقبه وفيما ذكرت مقنع، فإن الذكي يفهم بالمثال الواحد، مالا يفهمه البليد بالف شاهد، توفي رحمه الله ورضي عنه ـ بعد التسعين وتسعمائة ـ، ودفن بجوار الامام الشافعي بالقرافة الكبرى بمصر.

ولقيت بمكة شرفها الله، الشيخ الامام العلامة عبد العزيز الرامزمي وحضرت مجلسه، والشيخ الامام محمد بن فهد، والشيخ الامام قطب الدين العجمي المؤرخ الحنفي، والشييخ جار الله بن أمين الحنفي أيضا، والشيخ عبد القادر والفاكهي والشيخ الامام العلامة مفتي مكة ـ شرفها الله ـ أبو عبد محمد الخفاجي، وقرأت عليه وأجازني وكتب لي اجازة بخطه عام أربعة وسبعين وتسعمائة، ولقيت بها اخرين ـ رضي الله عنهم وعنا بهم أمين. ولقيت بمدينة صفد من أرض الشام عام سبعة وسبعين وتسعمائة الامامم يحي بن حامد وحضرت مجلسه في الحديث وأجازني باللفظ من جملة من حضر هناك لك.

ولقيت بدمشق الشام الشيخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد الحجازي والشيخ شهاب الدين أحمد بن يونس العيثاوي والشيخ محمد البهنسي الحنفي والشيخ بدر الدين بن رضي الدين الغزي وقرأت عليه مواضع من الجامع الصحيح بعد أن اسمعني من لفظ الحديث المسلسل بالاولية.

وهو «الراحمون يرحمهم الرحمان ـ تبارك وتعالى ـ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». ثم ناولني الجامع الصحيح وأجازني بما قرأته عليه منه وبباقيه وبما له من منظوم ومنثور ومقروء ومسموع ومجاز واستيجاز الى غير ذلك، وكتب اجازة أطنب

فيها وكتب ما نصه أو معناه : أنا ملحق الاحفاد وبالاجداد، ومؤلفاتي تناهز المائة، منها تفسيري الذي لم اسبق اليه نظمته في مائة الف بيت وأحد وعشرون الف بيت، ومنها شرحي لشرح الشيخ جلال الدين المحلي على المناهج الموسوم احداهما المحلي لمشكلات المحلي والاخر بجيد المحلى ومنها. . . وذكر عدة من مؤلفاته، قال : من نظمي مضمن الحديث الشريف :

عن النبي اتانا من رأى امرأة أحل في قلبه للحسن موقعها
فليات زوجته وليقض حاجته فإنما معها مثل الذي معها

واثبت من نظمه في إجازته التي كتبها لي شيئا كثيرا، توفي رحمه الله فيما بين الثمانين الى التسعين وتسعمائة بدمشق رحمه الله تعالى. ولقيت من العلماء بحمص، وحماة، وحلب، وانطاكية، وقسطنطينية ما لا قرابة له ولا حصر، وقد استخرت الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأجزت من ذكر فيه بالجامعين الصحيحين وبجميع مالي من منظوم ومنثورن مقروء ومسموع ومجاز واستيجاز وغير ذلك حسبا أجازني من أجازني لي ممن ذكر. سئل والدي ـ رحمه الله ـ عن سبب تسميتي امام الدين قال : رجاء أن يكون امام مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام ـ وقد حقق الله رجاءه كما ذكرت، وهذا الاسم انفردت به في بلدتي بل جلت الأقاليم فيما رأيت ولا سمعت من تسمى به غير رجل بأرض صعيد مصر في الصدر الأول وسني من الخمسة والثلاثين الى الثمانية والثلاثين وفي هذا القدر كفاية، وفي الليلة المسفرة عن خامس محرم فاتح عام تسعة وتسعين وتسعمائة.

وكتب بمنزلي «بأسيست» [27] من حاضرة مراكش ـ كلأها اله ـ و. . . [28]، افقر. . . [29] أمام الدين بن محمد بن يوسف بن علاء الدين بن قاسم البطايحي الخليلي. . . [30] الخزرجي نسبا، غفر الله لي ولوالدي ولمن دعا لهما وللمسلمين، وعلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

هوامش

(*) نشر تحقيق هذه النصوص بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 42 ـ 43، 1987
(1) مخطوط خاص بالرباط.
(2) بياض بالأصل وما بين المعقوفين إضافة من إجازاته الأخرى.
(3) بياض بالاصل والاضافة من إجازاته الاخرى
(4) بياض بالأصل.
(5) بياض بالاصل.
(6) كلمة غير مقروءة.
(7) بياض بالاصل.
(8) كتب بالاصل هكذا. (ولو أنه صدرا)، ولم نهتد الى قراءتها.
(9) كلمة لم نهتد الى قراءتها.
(10) بياض بالاصل.
(11) بالأصل. (أبي عبد الله)، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه، انظر فهرس ابن القاضي، رائد الفلاح
(12) كلمة لم نهتد الى قراءتها.
(13) كلمة لم نهتد الى قراءتها
(14) بياض بالاصل.
(15) بياض بالاصل، والاكمال من درة الحجال، 1 : 5.
(16) بياض بالاصل، والاكمال من المصدر السابق، نفس الصفحة.
(18) انظر نص الاجازة ايضا عند احمد بن القاضي، المنتقى المقصور، 2 : 800 ـ 801
(19) انظر ترجمته عند ابن القاضي درة، 3 · 116 رقم 1054.
(20) كلمة لم نهتد الى قراءتها.
(21) كتب مباشرة بعد كلمة (أهله) كلمة (في يوم).
(22) كلمة غير مقروءة.
(23) التدبيج من مصطلحات المحدثين، وهو أن يروي قرين عن قرين كأن يروي صحابي عن صحابي، أو تابعي عن تابعي، أو أي راو عن آخر يساويه سنا وسندا وتوسع المتأخرون فجعلوا كل رواية بين الاقران في أي علم كان تدبيجا.
انظر محمد حجي، الحركة الفكرية، 2 · 110.
(24) كلمة غير مقروءة.
(25) النقيل · في القاموس والتاج. كأمير، الغريب والذي يقيم في القوم وليس منهم، والكلمة في المخطوطة مشكولة بكسر النون مشددة القاف. ولعل المجير اراد بها صيغة المبالغة لتكون من باب (السكيت) و(السكير).
(26) بالاصل هنالك (واو) مباشرة بعد كلمة (لاسيما) ولا معنى لها هنا
(27) حي من أحياء مراكش والناس ينطقونه «اريزط».
(28) بياض بالاصل
(29) بياض بالاصل
(30) بياض بالاصل

وثائق عن أسرى مغاربة (*)
بمالطا واسبانيا

موضوع الوثيقتين الأولى والثانية :

تتعلقان بأسرى مغاربة (امرأة وزوجها وخادمة لهما) بمالطا يستغيثون فيها بالسلطان العلوي المولى سليمان (1792 ـ 1822)، بواسطة رسالتين يؤكدون فيهما انتمائهم للشرفاء الادارسة بفاس، ويشيرون في نفس الوقت إلى ما يعانوه من التعذيب من طرف فرسان القديس يوحنا بمالطا.

أما لغة الوثيقتين فهي غالبا عامية مغربية مازالت معظم الفاظها مستعملة إلى يومنا هذا.

موضوع الوثيقة الثانية :

تتعلق بمغربي تنصر في مدينة اليكانت الاسبانية، وقد بعث الى الملك الاسباني كارلس الرابع يشكو اليه حاله، ويعبر في نفس الوقت عن رغبته في الالتحاق بالاسكريال قصد تعلم اللغة اللاتينية والدين المسيحي.

الوثيقة الأولى

الحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

إلى من يداه الله بالرضى والرضوان وختم علينا وعليه بالسعادة والغفران.

إلى من هو في الدنيا سعيد وفي الآخرة إن شاء الله شهيد.

إلى أمير المؤمنين مولي اسليمان سلطان الغرب نصره الله وناصر عصاكره أمين.

السلام عليك ورحمة الله وبركاته من المسلم عليك لاله فاطنة بنت سيد محمد بن عبد الرحمان الشريف... كثير السلام والمر الذي نعلمك به اخير إن شاء الله يا سلطان الرحم الله ينصرك ويطول عمرك. واليوم إلى تسال راه الروم إلى مالكني اضربني واعطاني العصا اعلى جوف ورميت اولد ميت مول خمسة اشهر ونصف، ميت رحمة الله عليه، واليوم ياسيد راه الروم إلى أنا عند ابعث الطبيب والقابل له وشهد اشهدت الزور وقالو هذك ماهش حبل باش اخذاها... لو... من عند سيدها واليوم امنين اسمع الخبر السلطان ابهذا الشيء كله سيفط ربعة اطب وقابلة اخرى وصاب الشريفة حبل ومات الجنين في كرشها وجات القابل وقبلتها مر اخر وصاب اولد مولى خمسة أشهر ونصف ميت والقابل صابت الولد ميت في كرشها مالي سبعة ايام ميت في كرشها، جسم كله بيدين برجليه براص بعينه كله، راد الاسم امتاع القابل (مريا مرت الاورينس بركلنط) اسم القابل بانه هي الي شافت الولد مولى خمسة اشهر ونصف.

واليوم يا سلطان، الله ينصرك، كيف اسمع السلطان امتاع مالط بهذا الشيء كله خرجها من عند والدها الى دار (نبافب) صاحب سيد محمد الله يرحم وراه نحمد الله ونشكر ما يخصها الا النظر في وجهكم العزيز علينا والسلام.

الوثيقة الثانية

الحمد لله وحده

وصلى الله الله على سيدنا ومولانا محمد

االحمد لله مسبب الاسباب، ومعتق الرقاب، وخلق آدم وحو من التراب، وجعل العلم يخط بالصواب، والقرطاس رسالة بين الاحباب، اعن بذلك من يوقف عليه كتبنا ويتصل بيده صوبنا، الى سيد مولي اسليمان سلطان الغرب نصره الله وناصر عصاكره آمين.

السيد لاله فاطنة بنت سيد محمد بن عبد الرحمان كثير السلم وكل مسلم ألف سلم وسلم اعـلى سيد مولى اسليهان من عند زوجها مولى امحمد ابن الحاج اعلى السبيع كثير السلم وكل سلم ـ يتبعه ألف سلم ـ واليوم يا سلطان الرحم الله ينصرك ويزيد في ايامك انها من الى جابون الى مالطا وعملون في الكرنتين [1] ابقيت فيها اربعين يوم بعد ذلك كيف كملت الربعين يوم الداوني الى عند السلطان امتاع مالطا وقال لي انت امنين يا وليه ؟ وقلت له : يا سلطان أنا من الغرب. بنت من انتي ؟ وقلت له : انا بنت السلطان مولى ادريس مانكرشي اصلي وقريبت مولى محمد، وقلت لو يا سلطان انا مانكر اصلي انا بنت السلطان مولى ادريس واليوم انا من إن جيت فيدك ما جيتش بغرض اعمل كيف ما تحب فيا جيت بالسيف اعليا وبعد ذلك قلت لو يا سلطان انا جابني الله في يدك تبقا انت تحكم اعليا خير من غيرك، وبعد ذلك قال لي السلطان : انت يا بنت انا ما نقدرش نحكم فيك يحكم فيك الى جابك ايسير امتاع اما البيع اما. . . وبعد ذلك كلم المركانت [2] الي جابني وقال له هذا الشريد تبق عند لاتنباع ولا تنشر حتى يظهر اناس لاهيا ولا زوجها، اجملهم في دار وحد وبعد ذلك ياسيد اعطان الشهر جوزت امليح واليوم ياسيد الله. . . . عمرك ويزيد في ايامك وقال لي الروم الى انا عند : انت عندك لمن تكتبي الورق ؟ وقالت لو أنا عند دار النبي دار سيدي مولي سليهان الله ينصر ويطول عمركم ويزيد في ايامـك راه كل ما جربيا انعود لك في الورق واليوم الروم الى انا عند يقعد اعلى الكرس وايحط الدويا في حجر امتاع. . . ويشرب الدخان في حجر والدخان طالع مع حجر وجه، وقلت لو عدو الله اعلاش تشرب الدخان في حجر وقال : انت امتاع نعمل فيك كيف ما نحب وقام الى زوجها وعمل في الحديد ودار في الحبس وبعد ذلك جا المركنتيا باش يشروها اعطو فيها خمسين الف اريال مالط هي وزوجها وخادمها هم في ثلثة. واليوم قامت السيد فاطنة قالت للمركانتيني وقالت لهم انتم اتحب تشروني راه الى يشرني. . . متلفين اعله انا منيش خادم امتع الفلوس. انا الله ينصر دار النبي الله ينصر سيد مولي اسليهان ويجعل البرك في ذرته وبعد ذلك الكافر جبلها خبز الشعير وقالت لو انا ما نكل خبز الشعير يا عدو الله، وبعد ذلك قام الكـافـر وغلق عليها البيا كلهم ولا خلالها شي من الضو الا وحدها ولا من يدخل. . . وبعد ذلك سمع الجران العيطان امتاع وبعثل اجاوشد الخادم واعطها العمر وجاب المصلح وطللها بالنجس حاش وبعد ذلك قالت لو الخدم انا مانديش

يا عدو الله النجس لاله ونشد الروم المكنس حاش وجه سيد بالنجس وطلها لي على وجه وقال لي : اعلي تقول انا مانش سيدك، وقلت لو يا عدو الله انا سيد مولى اسليهان الغالي الله ينصر وينصر عصاكر ياعدو الله وبعد ذلك اضربني اعلى كرشي بخبز وانا مراة حبل وبعد ذلك قعدت ثمانية وهي بالوجع وبعد ذلك جاب الطبيب والقابل شفت الشريفة وصابتها حبل والصغير ميت في جوفها مول سبعة ايام وانها من التسعة ايام ارمت الشريف اولد مولى خمسة اشهر ونصف ميت واليوم ياسيد مولى اسليهان الله ينصرك وايطول عمرك باش اتكون تعرف واليوم انظر سيد اوسع واليوم ياسيد الله ايطول عمرك ويزيد في ايامك انها من الى خلطت الورق سيد الى عند باش ذلك الساعة اسمع السلطان مالطا وحمال اربعة الطب ايدوفيا في دار (نباف) صاحب سيد محمد بن عبد الله يرحم اخديمكم واليوم ياسيد مولى سليهان الله ينصرك وايطول عمرك راه عندكم زوج انصرا . . . واحد منهم يقول له (فباف) اخديم سيد محمد الله يرحم ولاخر يقال له (افرنصيص اشكنبر) فهم الى عملين فيها الخير وسلم واليوم راهم امسلمين عليك وقال الحمد لله الى دار سيدنا مزالت عامر الله ينصر مولى سليهان الله يرحم سيد الكبير وينصر سيد مولى اسليهان واليوم يا سيد الله ينصرك وايطول عمر اللى انت ابعثت اخديمك ابعث اعلى يد الرا [3] امتاع اصبانية والرايس امتاع اصبانية [4] هو يبعث الى مالطا الى دار (نباف) اخديم سيد محمد [5] الله يرحم ويسلم اعلى سيد مولى سليهان الله ينصر من عند المجاهدين الرياس والبحرية كلهم واليوم يا سيد مولى اسليهان الله ينصرك وايطول عمرك احنا ما عندنا حد غير الله وثم انت واحنا نطلب الله فضل وفظلك راه جدك يشفع في الاخر وانتم تشفع في الدنيا الله يطول عمركم.

وتاريخ الورق انها في الثمنية ايام في شول. . .

وسلم اعلى سيد من عند الشرفا ومن عند المجاهدين والغرب وسلم اعلى سيد مولى عبد الله يعطك الله ارضات مولى عبد الله الشريف ومولى عبد السلام بنمشيش الله يعطك خاطر الله والنبي والصالحين.

وأما اليوم يا سيد مولى اسليمان الله ينصرك ويطول عمرك يا عز الغرب ، واليوم هذا الـرالي اضربني الى انا عند في عمر ستة وربعين سنة واليوم الله ايطول عمر سيدي بولد ثالثة باش ما تقولش هذا صغير آليم اشتكاة للحكام امتاعهم وقالوا حنا ما نحكمش انت ايسير. . . واليوم يا سيد الله ايطول عمرك ويزيد في ايامك ولد ما نخليهش يمشي باطل ولا ليوم ياسيدي راه كيف جاو امتاعك وقال لي يابنت لوجه ما تكتبيش التربية امتاعك وانا قلت لهم : انا ما نخليش ذرة باطل. عند السلطان مولى اسليمان هو يخذ حق الله يعضه ما يتمنا عند الله والله يرحم ابا سيدي والسلام .

وهذا الروم اسمه قبطان (اشكنبر) ولد (اندزيا) الأعمى .

الوثيقة الثالثة

الحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا عيسى وآله

الى سيدنا نصره الله الهمام المعظم المحترام سيدنا كارلش الرابع
سلام على مقام سيدنا بالخير ودوام العافية ونعمت من الله شاملة .

وبعد فالذي نعلم به سيدنا نصره الله وملد ملكه انه اشتد على الحال في أمر المعيشة وكل شيء غالي وقلت صحتي بان الصدقة الذي جاد سيدنا علي بها وهي ثمانية دراهم نحاسا ورطل ونصف من الخبز في كل يوم فإنها لم تجريني الا مع الخدمة أنا وزوجتي في بلاد ذلك مدينة الاكنط وهذا ما تفضل به سيدنا الكبير رحمة الله تعالى وقدس روحه في الجنة ونطلب كرامة من سيدنا بجاه خلافته وكمال قال القائل حيث يقول :

يا ملكـــا زانــة (كـذا) لدينـا خلافتـه ‏‏ والجـودنـــال به العـز الـــذي طلب
نودك الشكـر (كـذا) في الـدنيا وأخرة ‏‏ وشـكـــر مثلك في الـــدرين قد وجب

ونعلم سيدنا باني شريف من قبيلة أهل سرف من مدشر أبي جديال من أولاد الشلي من ذرية مولاي ادريس بفاس وهو حاضرة المغرب واني فقيه وقرأت بلغات العرب وعلمت كثيرا منهم صغيرا وكبيرا ونعرف الذي فرض الله علي والذي يلزمني في ديني وهو دين سيدنا عيسى عليه السلام فالحمد لله الذي الهمنا الى الصواب ولم يكون رجائي إلا في سيدنا لاني ما عندي احد الا هو وإذا كانت من سيدنا حسنة تكون في حضرة الاسقريال بمدرسة الرهبان أو في موضع ءاخر لاني شائف في تعليم اللطين والدين الحقيقي لعل الله يلهمنا الى الصواب وكتب الحروف . . .

هوامـش

نشر تحقيق هذه النصوص بحوليات كلية الأداب بالدار البيضاء، العدد الرابع، 1987

(*) توجد هذه الوثائق بالارشيف التاريخي الوطني بمدريد A.H.N (قسم الدولة) في ملف يحمل تاريخ 1798، تحت رقم 3576. وقد تفضل الدكتور يحيى بوعزيز (جامعة وهران بالجزائر) فبعثها لنا، بها مشكورا، قصد نشرها.

(1) الكرانتين . هي مدة الحجر الصحي ، من الاسبانية CUARANTENA أي أربعين يوما .
وقد أوضح معناها السفير المغربي الى مدريد ابن عثمان المكناسي قائلا . «ومعناها (الكرانتين) عندهم أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوما لا يخرج منه اليه أحد، وسبب ذلك انهم يتحرزون أن يدخل الوباء ارضهم وبلادهم لتوهمهم انه في بلادنا اعاذنا الله منه . . . فيجعلون تلك الكرنطينة احتياطا وقطعا للشك بحيث اذا كان في الوارد عليهم شيء من ذلك يظهر عليه في تلك المدة فلا يدخل البلد وحين تكمل الكرنطينة ولم يظهر عليه شيء يأتي ويقلب من هو في الكرنطينة فإن اخبر بأنه لابأس به يدخل المدينة ويتلاقى مع الناس وإلا فلا . . .»
انظر : الاكسير في فكاك الاسير، ص 9

(2) المركانت، من الاسبانية Mercante اي التاجر

(3) الرا : من الاسبانية EL REY اي الملك

(4) الرايس امتاع اصبانية : قائد البحرية الاسبانية

(5) تقصد السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله

الفهـرس

تم الطبع بمطابع
افريقيا الشرق
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور، الهاتف: 25.95.04 - 25.98.13 - الدار البيضاء

أفريقيا الشرق

159 مكرر، شارع يعقوب المنصور
الدار البيضاء

25.95.04
25.98.13